أندريه مالرو

الغزاة

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

أندريه مالرو

الغزاة

ترجمة

فايز كم نقش

منشورات عويدات

بيروت لبنان

منشورات عويدات
بيروت — لبنان

الطبعة الاولى : ايلول (سبتمبر) ١٩٦٧

مُقدمة

للمترجم

الترجمة في العالم العربي مشكلة تطرح على المترجم والقارىء سؤالاً خطيراً لا يزال يفتقر حتى اليوم الى الجواب . فالكتب المترجمة ثروة ثقافية ، علمية وفكرية ، تحملنا الى آفاق التطور والابتكار ، خصوصاً في هـذه الحقبة التي اصبح الغرب فيها المصدر المطلق لارتقاءات الفكر الانساني في معارج العلوم والفنون بعد ان كان الشرق نبراسها الأوحد . لكن المشكلة المزمنة التي تواجه المترجم والقارىء ، والتي لم تجمع الآراء بعد على تحديد ابعادها ، هي الترجمة نفسها وأعني الاسلوب الذي يتوجب على المترجم نهجه في نقل النصوص الاجنبية الى اللغة العربية .

اتيح لي حتى الآن ان اترجم عدداً وفيراً من الكتب العلمية والادبية وان استقصي اثرها في نفوس بعض القراء ، بغية تكوين فكرة مبدئية عن ا لجداء في ما قدمت ، فخرجت بنتيجة مرضية وان لم تكن في جانبي .

قال بعض القراء انني كنت موفقاً في بعض ما ترجمت ، ركيكاً في بعضه الآخر . وانتقد بعضهم اسلوبي الرجراج الذي لا يستقر على حال من كتاب الى آخر . بينما ادركت قلة قليلة السر في ذلك التحول فاعتبرته دليلاً قاطعاً على امانة المترجم وقدرته بآن واحد .

ولما كنت لا ازعم لنفسي حق تقييم القراء وتصنيفهم ، وهم قد فعلوا ، فقد آثرت الاحتكام اليهم باثارة هذه المشكلة وشرحها بايجاز يساعدهم على تصويب حكمهم .

ولكن ، من اين ابدأ في هـذه العجالة وهناك نقاط كثيرة هامة لا بد من ابرازها ؟ لنأخذ الكلمة نفسها .

الكلمة في كل لغة ذات وزن ووقع معينين . وليس صحيحاً ان للمرادفات في اللغة وزناً واحداً ومدلولاً موحداً. قد تكون اقوى من الكلمة نفسها أو أضعف منها . ولكن يندر ان تكون في غير الاسماء مثلها . لذلك رأينا الكتاب العرب لا يضنون بالمرادفات التي تمدهم اللغة العربية الغنية بها، ليرسخوا في ذهن القارىء معنى معيناً ، حتى بات هذا النهج لدى كثير منهم دليلاً على تمكنهم أو طابعـاً لاسلوبهم الادبي . واذا كان لكل اديب بارز عندنا اسلوبه المتميز وطابعـه المألوف ، فان للكتاب الغربيين مثل ذلك . ولست اول من ادرك هذه الحقيقة . لذا كان على المترجم ان ينقل الى القراء اسلوب المؤلف وطابعه المميز بعبـارات قد تفتقر دائماً الى البلاغة والبيان العربيين ، لكنها لا تشكو علـّة من قواعـد اللغة. فان لم يُعن بذلك ، وجد قارئنا نفسه يطالع دوستويفسكي ودانتي وسارتر ورونوفان باسلوب طه حسين الرفيـع البليـغ .

لا جدال ان هناك من يفضل الترجمة الى العربية بالبيان العربي مكتفياً باعطاء القارىء فكرة المؤلف فحسب دون اسلوبه . الا انني لست من هذا الرأي ، بل ارى ان من حق القارىء العربي ان يتذوق اسلوب الكتاب الاجانب وان يحيط بتصرفهم وبتعابيرهم اضافة الى احاطته بسياق افكارهم .

العقبة الثانية التي قد يقعد البعض دونهـا هي اختلاف التعابير والمصطلحات المستعملة في اللغات الاجنبية وفي لغتنا . ونحن ، وان كنا نجد كثيراً من التجانس بين بعض اللغات الاجنبية ذات المنشأ الواحد ، فان اختلاف هذا المنشأ نفسه في اللغة العربية هو الذي يجعل من العسير – ان لم اقل من المستحيل – ، ايجـاد العبارات المطابقة تماماً لتلك التي استعملها الكاتب في لغته الاساسية ، رغم ما تنعم به اللغة العربية من سعة وشمول . ثم ان الكاتب الاجنبي الذي يورد حواراً بين اشخاص متباينة مستوياتهم الثقافية ، يصوغ اقوال كلّ منهم بما يتفق وثقافته

بل ومدينته ورظانته . فهـــل يجوز للمترجم ان ينقل ذلك الحوار بلغة سليمة متجانسة وكأن كل متكلم صورة منسوخة عن الآخر او انه « صوت سيده ؟ ».

أؤمن ان لا .

اما عن اللغة العامية فحدث ولا حرج ! فالعامية الفرنسية ـ مثلاً ـ تكتب بأحرف فرنسية ـ طبعاً ـ ويفهمهــــا الفرنسيون على اختلاف لهجاتهم ، وهي عديدة كما نعلم . والكتاب الاجانب الذين يبيحون لأنفسهم ايراد كلمات نضطر في شرقنا العزيز الى استبدالها بالنقاط معتمدين على فطنة القارىء وحذقه، يلقون بالمترجم في متاهات الحيرة والقلق كلما نسب استبدال نقاطه بالكلمات : كيف يأتي ببديل لهذه الكلمة ؟ ـ هذا اذا وجد لهـــا البديل ـ . أبالعامية السورية ام اللبنانية ام المصرية ؟ حتى اذا ما استقر على رأي ، برز التساؤل الثاني : هـــل سيفهم القارىء الجزائري او العراقي او الليبي مدلول تلك الكلمة ؟ كأن تحقيق معجزة كتابة الكلمات العامية بالاحرف العربية ـ مع ما في ذلك من تعـــذر وصعوبة ـ لا يكفي المترجم وهناً حتى يجد نفسه امام معضلة مستعصية اخرى، معضلة العامية غير الموحدة . هل تراني ابالغ ؟ حسناً ، اليك المثال الصغير التالي: ماذا ؟ : شو ؟ ايش ؟ شنو ؟ ايه ؟ الخ ... اظنه يكفي !

واما الكلمات الفنية والتقنية ، فلها حكاية اخرى : هم ينحتونها وعلينا ان نحذو حذوهم تحت طائلة افقادها القيمة والموقع اللذين توخاهما الكاتب لهـــا . صحيح ان المعري عدّ سبعين اسماً للكلب ، وهم ليس لديهم مثلها، لكننا ما زلنا نستعمل « الاوليغارشية والاوتوقراطية والبيولوجية والديماغوجية والشوفينية » وعشرات مثلها دون ان نتفق على مرادفات لها .

هذه بايجاز مشكلة الترجمة بسطتها للقارىء في هـــذه الدراسة السطحية ليحدد موقفه على ضوئها . لقد وقفت طويلاً امامها قبل ان اختار سبيلي فأقصر جهدي على دراسة نفسية المؤلف واسلوبه وعقليته فأتقمصها لأنقلها للقارىء بعد

ذلك كما ارادها الكاتب ان تكون لا كما تشاء الصياغة العربية ان تجعل منها بعد الصهر والسبك .

لهذا ايها القارىء ، ولأن هناك فارقاً كبيراً بين « التاج » للجاحظ و « المدخل الى تاريخ العلاقات الدولية » لرونوفان ، وبين « المقدمة » لابن خلدون و « العقد الاجتماعي » لروسو وبين « الايام » لطه حسين و « البؤساء » لهوغو بل وبين « جغرافية العالم الاجتماعية » لبيير جورج و « غزاة » مالرو الذي بين يديك ، وجب ان تتذوق كلاً منها وان تحس ما بينها من فوارق .

يجب ان تعيش كل كتاب . هذا ما عملت على توفيره لك . انه خير في رأيي من ان تقرأها كلها وكأنها المقامات ، مقامات الحريري .

فايز كم نقش

١

المشارف

٢٥ حزيران

« تقرر الاضراب العام في كانتون »

هذه البرقية معلقة منذ الأمس يبرزها خط أحمر . المحيط الهندي ساكن حتى الافق ، صقيل مصمّخ ، لا تخطه الغضون . والسماء المليئة بالغيوم تثقل علينا بجو اشبه بحجرة الاستحمام وتحيطنا بهواء مشبع . والمسافرون يمشون فوق السطح بخطى معدودة ، متحاشين الابتعاد كثيراً عن الاطار الابيض الذي ستثبت فيه البرقيات المتلقاة هذه الليلة . تحدد الاخبار بدقة كل يوم ، الفاجعة التي اهلت فتجسمت واصبحت الآن نذيراً مباشراً متسلطاً على كل رجال السفينة . كان عداء حكومة كانتون يتكشف حتى الآن بالكلمات : وها هي ذي البرقيات فجأة تترجم الاعمال . كان ما يؤثر في كل فرد اكثر من وقع القلاقل والاضرابات وقتال الشوارع في نفسه ، تلك الارادة غير المتوقعة ، التي بدت على مثل صلابة الارادة الانجليزية ، على ان لا يُكتفى بعد اليوم بالأقوال بل بالنيل من اكثر ما

تحرص عليه انجلترا في صميمها : من ثروتها ونفوذها . ان تحريم بيع اية بضاعة ذات منشأ انجليزي في الاقاليم الخاضعة للحكومة الكانتونية حتى ولو كان العارض صينياً ، والطريقة التي باتت الاسواق مراقبة بها ، السوق تلو الاخرى ، وتخريب عمال هونغ ـ كونغ للماكينات ، واخيراً ، هذا الاضراب العام الذي اصاب فجأة كل التجارة في الجزيرة الانجليزية ، في الوقت الذي يشير فيه مراسلو الصحف الى نشاط المدارس الحربية غير العادي في كانتون ، كل هـــذه الامور وضعت المسافرين امام حرب من طراز جديد كل الجدة ، حرب تشنها الطاقـة الفوضوية للصين الجنوبية ، مدعومة بمتعاونين لا يعرفون عنهم شيئاً تقريباً ، ضد رمز السيطرة البريطانية على آسيا نفسه ، الصخرة العسكرية التي تراقب المملكة المحصنة منها قطعانها ، ضد هونغ كونغ .

هونغ كونغ . ان الجزيرة هنـا على الخريطة ، سوداء وواضحة ، تغلق نهر اللآلىء هذا كالمزلاج ، النهر الذي تمتد عليه كتلة كانتون الغبراء ، بخطوطهـــا المنقطة التي تشير الى ارباض غامضة ، لا تكاد تبعد ساعات عن المدافع الانجليزية. ان بعض المسافرين يرمقون بقمتها السوداء كل يوم وكأنهم يتوقعون منها وحياً ، قلقين بادىء الأمر ، متأملين الآن ، يشغل خاطرهم التكهن بما سيكون الدفاع عن هذا الموقع الذي تتوقف عليه حياتهم ، عن اغنى صخرة في العالم .

فاذا ما أصابها الأذى وأُعيدت في وقت ما الى مصاف الموانىء الصغيرة، بل اذا ما اصابها الوهن فحسب ، كان معنى ذلك ان الصين قادرة على ايجاد الاطر « الكادرات » التي اعوزتها حتى الآن لتناضل ضد البيض ، وذلك ايذان بانهيار السيطرة الاوروبية . ان تجار القطن أو الشعر الذين اسافر معهم ، يحسون بذلك احساساً حاداً حتى ان ما من شيء أطرف من ان يُقرأ على وجوههم المتأملة (ولكن ماذا سيحل بالدار ؟) انعكاس النضال الرهيب الذي باشرته مملكة الفوضى المجسدة التي تنظمت فجأة ، ضد الشعب الذي يمثـل الارادة والصمود والقوة ، اكثر من أي شعب آخر .

ظهرت حركة عظيمة على السطح وهرع المسافرون يتدافعون يزحم بعضهم بعضاً : ها هي صفحة البرقيات .

سويسرا ، المانيـا ، تشيكوسلوفاكيا ، النمسا ، غيره ، غيره ، روسيا ، فلننظر ، كلا ، لا شيء مهم . الصين ، آه !

موكدن : تشانغ ـ تسو ـ لن ، صفحاً . . .

كانتون .

واخذ المسافرون البعيدون يضغطوننا على الحاجز ليقتربوا .

« فتح مستجدّو مدرسة وامبوا الحربية الذين يشكلون حامية موكب ضحم من الطلاب والعمال ، النار بقيادة ضباط روسيين ، على شامين ، المستعمرة الاوروبية في كانتون ،فرد البحارة الاوروبيون المكلفون بحماية الجسور بالرشاشات. وشن المستجدون بتحريض من الضبـــاط الروسيين عدة هجمات على الجسور . لكنهم صُدوا عنها وأنزلت بهم خسائر فادحة .

سيجري جلاء النساء والاطفـال الاوروبيين عن شامين الى هونغ كونغ اذا امكن على ظهر سفن امريكية ،بينما بات انطلاق القطعات الانكليزية وشيكاً » .

وران الصمت فجأة .

اخذ المسافرون يتباعد بعضهم عن بعض،واجمين. والى اليمين التقى فرنسيان في غضون ذلك: « اخيراً ياسيدي،لنا ان نتساءل حقاً متى ستتخذ الحكومات الموقف الحازم الذي . . . » واتجها نحو المقصف لتضيع نهاية جملتهم في غمار هزات المكنات المكتومة .

لن نصل الى هونغ كونغ قبل عشرة ايام .

السـاعة الخامسة

شامين : ـ تعطل التيار الكهربائي . المستعمرة كلها في ظلام.عززت الجسور بسرعة وقطعت بخطوط من الاسلاك الشائكة ، وهي منــــارة بأنوار سفن المدفعية الكشافة .

مدينة منكودة مقفرة ريفية ذات طرق طويلة وشوارع مشجرة مستقيمة ينبت العشب تحت اشجارها الاستوائية الفيحاء ... الصيني الذي يجر المقعد المتحرك الذي استقله يتفصد بالعرق ، فالمسافة طويلة . اخيراً وصلنا الى حي صيني تملؤه اللافتات المذهبة ذات الاحرف الجميلة السوداء المشيرة الى المصارف الصغيرة والوكالات من مختلف الانواع . وامامي ، وسط طريق عريضة مغطاة بالعشب ، يمرح خط حديدي صغير . ٣٧ ، ٣٥ ، ٣٣ ، ... قف ! وتوقفنا امام منزل شبيه بكل منازل هذا الحي : « مقصورة » ٠ وكالة غامضة ، اثبتت حول بابها لوحات باسماء شركات تجارية كانتونية غير معروفة . وفي الداخل ، وراء كوى معفّرة متداعية ، يسترخي موظفان صينيان ، الاول ، اشبه بالجثة ، متسربل بالبياض ، والآخر بدين مفرط بلون التربة المشوية ، عار حتى وسطه . وعلى الجدار رسوم ملونة من شنغهاي : فتيات بهُدُب ملتصقة بدعة على جباههن ، وغيلان ومناظر . وامامي ثلاث دراجات متشابكة . انني لدى رئيس الكيومنتانغ [1] الكوشنشيني . سألت باللغة الكانتونية :

– « هل الرئيس هنا ؟

– لما يعد بعد يا سيدي . ولكن اصعد ، واستقر .

صعدت الى الدور الاول عن طريق ما يشبه السلم . لا يوجد احد . جلست ورحت انظر متفرغاً : خزانة اوروبية ، طاولة من طراز لويس فيليب ذات سطح من الرخام ، مقعد صيني من الخشب الاسود وتكأت امريكية فاخرة تراكمت فوقها كلها المفكات والبراغي . وفوقي صورة زيتية كبيرة لسن ـ يات ـ سن على المرآة وصورة شمسية اصغر لصاحب الدار . ومن الخليج الصغير ، كانت

---

١ – الكيومنتانغ : الحزب الثوري الصيني الذي اسسه سن ـ يات ـ سن رئيس الجمهورية الصينية فيما بعد عام ١٩٢١ . المترجم

رائحة الشحوم الصينية القوية الكاوية ، تصل مصحوبة باكتزاز وبصوت صناجة بائع الحساء ...

هوذا صوت قباقيب .

ودخل المالك وصينيان آخران وفرنسي ، هو جيرار الذي من اجله انا هنا. وأجري التعــارف . سقوني شاياً أخضر وكلفوني بان اؤكد للجنة المركزية «اخلاص فصائل الهند الصينية الفرنسية كلها للتنظيمات الديمقراطية التي ...الخ.»

اخيراً خرجنا ، جيرار وانا . ولم يمض على وجوده هنا غير ايام قليلة وهو الموفد الخاص للكيومنتانغ في الهند الصينية . انه رجل قصير القامــة ، سرى الشيب الى شاربه ولحيته ، قريب الشبه من القيصر نيقولا الثــاني ، ذو نظرة كدرة مترددة وعطف ظاهر ، فيه شيء من الاستاذ الأحسر ومن طبيب الريف ، يمشي الى جانبي بخطوة سابغة تسبقه لفافة مثبتة الى طرف مبسم دقيق .

كانت سيارته تنتظرنا عند ركن الشارع ، فاتخذنا مكاننا فيها ومضينــا متمهلين عبر الحقول . وكان الهواء المخمور كافياً لخلق مناخ جديد تتحرر فيه العضلات المتعبة والمتوترة بآن واحد ... « ما هي الأخبار ؟ »

– ما استطعت معرفته بنفسك عن طريق الصحف . يبدو ان اطلاق اوامر الاضراب من مختلف اللجان العمالية كان في غاية الاتقان ... ولمـا يجد الانجليز بعد شيئاً للدفاع عن انفسهم : ان تنظيم المتطوعين دعاية لعلها صالحة ضد الشغب ولكن ليس ضد الاضراب . ان منع تصدير الأرز يضمن التموين في هونغ كونغ لبعض الوقت . لكننا لم نفكر قط في اجاعــة المدينة . ما جدوى ذلك ؟ ان الصينيين الاغنياء الذين يدعمون المنظمات المناوئة للثورة قد دوّخهم هذا المنع كما لو تلقوا ضربة من هراوة ...

– ولكن منذ امس ؟

– لا شيء .

ـ هل تعتقد ان حكومة الكوشنشين قد حذفت البرقيات ؟

ـ كلا . ان مستخدمي جهـــاز البرق جميعهم من « الآناميين الشباب [١] » تقريباً ، فلو عمدت الى مثل هذا الاجراء لعلمنا به . ان هونغ كونغ هي التي كفت عن الارسال » .

فترة صمت .

« والمصادر الصينية ؟

ـ ان المصادر الصينية موجهة من جانب الدعاية ، هذا كل ما يقال ! بعض غرف التجارة طالبت رئيسها باعلان الحرب على انجلترا ، جنود انجليز من شامين وقعوا في اسر الكانتونيين ، مظاهرات ذات اهمية خارقة في طور الإعداد ... خرافات ! اما ما هو جدي واكيد ، فهو أن الانجليز في هونغ كونغ يرون الثروة تفلت من ايديهم لأول مرة . المقاطعة شيء حسن. اما الاضراب فأحسن. اما ماذا سيعقب الاضراب ؟ يؤسفنا اننا ما عدنا ندري بشيء ... علني اتلقى بعض المعلومات في غضون فترة ما . ثم ان ما من سفينة أبحرت الى هونغ كونغ منذ يومين . انها جميعها هناك ، في النهر ...

ـ وهنا ؟

ـ ليست الامور سيئة ، لو علمت : سوف تحمل معك ستة آلاف دولار على الاقل . واتوقع الحصول على مائة اخرى ، ولكن مجرد توقع . ثم انني هنا منذ اربعة ايام فحسب .

ـ انهم على حماس كافٍ اذا استرشدت بالنتائج ؟

ـ اوه ! حماس عميق ! ان الحماس الصيني شيء نادر . اما هذه المرة ، فلا بد من القول انهم متحمسون . فكر في ان الالوف الستة من الدولارات قد اعطاها فقراء فحسب : صغار العمال وعمال المرفأ والصناع ...

---

١ - جمعية شبان آنام او الآناميين الشباب ، جمعية سرية متعاونة مع اليسار الثوري . المترجم

ـ ايه ! ان لديهم اسباباً كافية للرجاء ... مغامرة هونغ كونغ ، شامين ...

ـ بالطبع ، ان هذه الحرب الخفية ضد انجلترا الجامدة، العاجزة عن التصرف.

ـ انجلترا ! تسكرهم . لكن كل هذا غير مطبوع كفاية بالطابع الصيني ...

ـ هل انت واثق تماماً ؟ »

صمت قابعاً في زاوية السيارة مغمضاً عينيه نصف اغماضة ، اما ليفكر واما ليتذوق هذه النسمة المنعشة التي لها فعل الاستحمام في اراحتنا . وكانت المرزات تمر الى جانبنا في زرقة المساء الحائرة اشبه بمرايا كبيرة شهباء مرسومة هنا وهناك بألوان مائية مدعوكة، وأدغال وهياكل ، تنوف عليها دائماً اعمدة مراكز البرق المعدنية . قبض شفتيه ودغدغ شاربه بأسنانه واجاب :

« هل تعرف مؤامرة « موناد » التي اكتشفها الانجليز اخيراً في هونغ كونغ ؟

ـ لست اعرف شيئاً ، انا لما أصل بعد .

ـ حسنا . لقد لاحظت جمعية سرية هي الموناد ان الارتباط بين هونغ كونغ وكانتون لم يعد مؤمنا الا بواسطة سفينة بخارية صغيرة تدعى : الهومان . وهذه السفينة البخارية عندما تكون في هونغ كونغ ، يحرسها ضابط انجليزي وبعض البحارة . ولقد ميز رسل الجمعية ـ بكثير من حسن الادراك ـ الفائدة التي قد تُجنى من منع هذه السفينة من الابحار الى كانتون عندما تكون محملة بالأسلحة التي يرسلها الانجليز الى مناوئي الثورة .

ـ أليس على هذه السفينة احد من انصارنا ؟

ـ كلا . والاسلحة تلقى في زوارق عند نقطة معينة قاحلة من نهر اللآلىء ، تماماً كما يحدث في تهريب الحشيش عبر قناة السويس .

« لنعد الى المؤامرة . قتل ستة من المندوبين العارفين كل المعرفة انهم يغامرون بحياتهم، الضابط والبحارة واستولوا على السفينة ، فاشتغلوا فيها طيلة اربع ساعات حتى ضبطتهم دورية من الفدائيين الانجليز عند الفجر ، في اللحظة التي كانوا يغادرونها حاملين معهم ـ ضمن ماذا ؟ ـ احدى كتلتي الخشب التي

يبلغ طولها ستة امتار والتي تحمل العيون المرسومة على مقدمة السفن الصينية ...

– لست افهم جيداً ما تقول ...

– ان هذه الاعين تسمح للسفينة بتوجيه نفسها ، فاذا مـا عورت ارتطمت وغرقت .

– اوه ! اوه ! ...

– أيدهشك هذا ? يمينا وانا مثلك . ولكن في الحقيقة ...

« اكثر الجمعيات جدية ، تلك التي تثق فيهـا اعظم الثقة ، تلك التي تقول جازماً انها على استعداد اذا مـا ازفت الساعة ، تتخلى عن كل شيء لتسعى وراء عين مرسومة على قطعة من الخشب » .

واذ رآني ابتسم استرسل :

« لعلك تظن انني اعمّم الحكم او ابالغ. لكنك سترى ، سترى ... سيروي لك بورودين وغارين مئات من الوقائع من هذا النوع ...

– هل تعرف غارين معرفة جيدة ?

– رباه ، لقد عملنا معـاً ... ماذا تريدني ان اقول لك ? ... انت تعرف نشاطه كمدير للدعاية ?

– بالكاد اعرفه .

– اوه ! انه ... كلا : من الصعب شرح ذلك . انت تعلم ان الصين لم تكن تعرف الافكار التي تجنح الى الفعل ، فاصبحت هذه الافكار مطبقة عليها اطباق فكرة المساواة في فرنسا على رجـال العام ٨٩ : اشبه بالاطباق على فريسة . ولعل الحال كذلك في كل آسيا الصفراء ، ففي اليابان ، عندما بدأ المحـاضرون الألمانيون بنبوءة نيتشه ، راح الطلاب المهووسون يلقون بأنفسهم من اعـالي الصخور .

والأمر في كانتون اكثر التباساً بل ولعله اكثر هولاً. لقد كانت ابسط مفاهيم الفردية غير ملموسة . فبات صغار العمال اليوم يحسون بأنهم موجودون ... موجودون وحسب ... فهناك ايديولوجية شعبية كما هناك فن شعبي ، وهذا ليس

مجرد تعميم ، بل هو شيء آخر ... لقد قالت دعاية بورودين للعمال والفلاحين : « انكم اشخاص رائعون ، لانكم عمـال ولأنكم فلاحون ولانكم تمتون الى اكبر قوتين في الدولة » . لكن هذا لم يثمر مطلقاً . قدروا انه لا يجري التعرف على قوى الدولة الضخمة بالضرب الذي تتلقاه وبالموت جوعاً. لقد ترسخت في نفوسهم عادة تقبل الاحتقار بوصفهم عمـالاً وبوصفهم فلاحين ، فخافوا ان تنتهي الثورة وان يعودوا مجدداً الى ذلك الاحتقار الذي يأملون الخلاص منه . الا ان دعاية غارين القومية لم تقل لهم شيئاً من هذا الطراز. لكنها فعلت فيهم بشكل غامض وعميق ـ وغير منتظر ـ بعنف خارق ، اذ اعطتهم امكان الايمـان بكرامتهم الشخصية ، بأهميتهم اذا كنت تفضل هذا التعبير . وليس عليك الا ان تشاهد نفراً من قاطري عربات الركوب بسحناتهم التي تحاكي سحنة القطط الماكرة ، واسمالهم وقبعاتهم المصنوعة من قش الكراسي ، وهم يتمرنون على الأسلحـة كفدائيين ، يحيط بهم جمع هيّاب ، لتخمن النتيجة التي حصلنا عليها . لقـد كانت كل من الثورة الفرنسية والثورة الروسية قوية لأن كلاً منهما اعطت كل انسان ارضه . اما هذه الثورة فانها بصدد اعطاء كل انسان حياته. ولن تستطيع اية قوة غربية ان تعمل ضد هذا الاتجاه ... الحقد ، الكل يجنح الى تفسير كل شيء بالحقد ! ما ابسط هذا ! ان فدائيينا متعصبون لأسباب كثيرة ، لكن في مقدمتها رغبتهم في ان يحيوا الآن حياة لا يمكنهم معها الا ان ... لا يستطيعون بعدها الا ان يبصقوا على الحياة التي عاشوها من قبل ، ولو ! ولعل بورودين لم يع هذا وعياً كافياً بعد ...

ـ وهل هما على تفاهم كلي ، الرئيسان الكبيران ؟

ـ بورودين وغارين ؟ »

خيل الي بادىء الامر انه لا يريد الاجابة عن سؤالي. ولكن لا ، انه يفكر. ان وجهه على هذه الصورة دقيق الملامح . والمساء ينتشر . لم يعـد يُسمع غير الصفار الرتيب للصراصير يعلو دوي محرك السيارة . والمرزات ما تزال تمر تباعاً على جانبي الطريق وعلى الافق تتنقل شجرة نخيل فارهة ببطء ...

استأنف يقول : « لا اظن انهما متفاهمان تماماً . انهما متفاهمان ، هذا كل ما في الامر . انهما يتكاملان . ان بورودين رجل عمل وغارين ...

– وغارين ؟

– انه رجل قادر على العمل . وبهذه المناسبة ، اصغ : سوف تجد في كانتون لونين من النــاس . اولئك الذين جاؤوا زمن سُن عام ١٩٢١ و ١٩٢٢ ليجربوا حظهم او ليقامروا بحياتهم ، والذين يجب ان ندعوهم بالمغامرين . هؤلاء يرون في الصين مشهداً يتعلقون به تعلقـــاً متفاوتاً . انهم اناس يحتل الشعور الثوري في نفوسهم المحل الذي يحتله الميل الى الجيش في نفوس افراد الفرقة الاجنبية ، اناس ما استطاعوا قط تقبل الحياة الاجتماعية ، اناس طالبوا الوجود باشياء كثيرة ، ارادوا اعطاء حياتهم معنى معيناً ، فاصبحوا الآن بعد ان رجعوا عن كل هذا ، يقدمون الخدمـــات ، يخدمون . واولئك الذين جاؤوا مع بورودين ، ثوريين محترفين ، الصين في نظرهم مادة اولية . انك لواجد بينهم كل الاوائل في شؤون الدعاية وكل المساعدين في النشاط العمالي وفي الجيش تقريباً . ان غارين يمثـــل – ويدير – الأولين الذين هم اقل قوة ولكن اكثر ذكاء بكثير ...

– هل كنت في كانتون قبل وصول بورودين ؟

استأنف باسماً :

– نعم . ولكن ثق انني اتكلم كلاماً ذاتياً بحتاً ...

– وقبل ذلك ؟ »

صمت . هل سيرد علي بأن هذا لا يعنيني ؟ لن يكون مخطئاً ... كلا . انه ما يزال يبتسم . قال وقد وضع يده برشاقة على ركبتي :

« قبل ذلك كنت استاذاً في كلية هانوي » .

وازدادت البسمة ارتساماً فأصبحت اكثر سخرية كذلك وضغطت اليد حيث كانت وقال :

« لكنني فضلت شيئاً آخر ، تصور ... »

استطرد على الفور وكأنه اراد ان يمنعني من طرح سؤال جديد :

« ان بورودين رجل اعمال عظيم ، شغيل الى اقصى الحدود وباسل وجريء عند اللزوم ، بسيط جداً ، يستولي نشاطه على روحه ...

– رجل اعمال عظيم ؟

– رجل يحتاج الى ان يفكر في كل شيء : « هل يمكنني الافادة من هــذا الشيء وكيف ؟ » ، هذا هو بورودين . لقد اتسم كل بلاشفة جيله بميسم نضالهم ضد الفوضويين : ان كلاً منهم يفكر في انه يجب ان يكون رجلاً يشغله الواقع قبل كل شيء ، رجلاً شاغلته مصاعب ممارسة الحكم . ثم ان في قرارته ذكرى مراهق يهودي شاب منصرف الى قراءة ماركس في مدينة ليتوانية صغيرة مع الاحتقار الذي يحيط به وتوقع نفيه الى سيبيريا ...

« الصراصير ، الصراصير .

– متى ترى انك حاصل على المعلومات التي ألحت اليها منذ حين ؟

– في غضون دقائق ؛ سنمضي لتناول الطعام لدى رئيس فصيل شولون الذي يملك مطعماً ومدخناً [1] كهذا » .

والواقع اننا كنا نمر حينذاك امام مطاعم تزينها احرف ضخمة ومرايا في جو تحولت فيه الحياة الى ضوء وضجيج ، الى اشعاعات عواكس ومرايا وكرات ومصابيح وضجة لعبــة « الدومينو » والحواكي وصرخات المغنيات والمزامير الحادة والصنوج والصفائح المعدنية ...

هذه انوار تزداد تراصاً والسائق يخفف السرعة ويثور فيضغط جهاز التنبيه دون توقف ليستطيع التقدم خلال حشد من النسيج القطني الابيض اكثر كثافــة مما يشاهد في شوارعنا المشجرة، بين عمال وصينيين فقراء من كل الحرف يتنزهون وهم يأكلون الحلوى والفاكهة ، بالكاد يزعجون انفسهم بالتنحي ليتركوا مجالا

---

١ ــ المدخن كما هو معروف موضع الدخان ولما كان الدخان هو التبغ بلغة المولدين فقد نسبت استعمال هذه الكلمة لتعريب عبارة *Fumerie - restaurant* ، وهو المطعم ومكان تدخين الافيون معاً ومثل هذه الامكنة شائع في الصين . المترجم

للسيارات النابحة ذات الصرير بالمرور ، بينما يطلق سائقوها ، الآناميون السباب راعدين. هنا يتوقف كل شبه مع كل ما هو فرنسي .

توقفت السيارة امام مطعم مدخن ، ليس محاطاً بشرفات حديدية غليظة كتلك التي مررنا بها ، بل اقل منها اتساماً بطابع المستعمرات، اشبه بنزل صغير خاص ، مدخله ، الذي تعلوه سمتان بلون اسود على خلفية ذهبية بحسب العادة الشائعة ، ليس الا مرايا ذات اليمين وذات الشمال وفي الصدر بل وحتى في الجزء العمودي من درجات السلم . ووراء خوان الصندوق ، كان صيني بدين لا يرى منه غير جذعه العاري ، يجري حسابات بواسطة جهاز مبسط ذي كرات صغيرة، حاجباً تقريباً حجرة عميقة تصطخب في ظلالها اجسام برتقالية وايد رشيقة حول طبق كبير من سرطان البحر الصغير البراق وهرم من القواقع الفارغة القرمزية الخفيفة .

في الطابق الأول، استقبلنا صيني يقارب الاربعين ذو رأس درواس، وبعد التعارف ادخلنا من فوره الى مكتب خاص حيث كان بانتظارنا ثلاثة من مواطنيه. الألبسة بيضاء نظيفة والياقات عسكرية . وعلى الاريكة المصنوعة من الخشب الاسود ، خوذ من النوع الشائع في المستعمرات . تقدمات . (ومن الطبيعي انه يستحيل سماع اي اسم) . مائدة صغيرة دون سماط ، تغطيها الاطعمة ، وفناجين صغيرة مملوءة بالمرق ، ومقاعد من الخيزران . والضوء المنبعث من المصابيح الكهربائية المتدلية بعدد كبير من السقف يخرق الليل البهيم. والضجة التي لا تني تطغى عليها طلقات الاسهم النارية وطقطقة « الدومينو » وضربات الصنوج ، ومن حين الى آخر ، مواء الكمان الوحيد الوتر ، تحتل الحجرة مع نفحات الهواء الساخن التي تعمل المراوح الكهربائية جاهدة على طردها .

قال لي الدرواس ، وهو مالك المكان والمترجم ، بصوت جهير تقريباً وبلكنة قوية :

«السيد مدير المستشفى الفرنسي، جاء يتناول عشاءه هنا، هذا الاسبوع...»

بدا فخوراً جداً بذلك ، لكن اكبر اصدقائه سناً أستوقفه :

« قل لهم ان ... »

انبرى جيرار يعلمهم بأنني افهم اللغة الكانتونية فبدا تعطفهم اكثر ظهورا وبدأ الحديث : ثرثرة ديمقراطية « حقوق الشعب » الخ ... بي انطباع عنيف بان القوة الوحيدة لهؤلاء النـاس هي احساس مبهم وان الآلام التي عانوها هي الشيء الوحيد الذي يعونه حقاً . فكرت في جمعيات الاقاليم ايام الميثاق [1] (الا ان هؤلاء الصينيين على جانب كبير من الانس يتنافر تنافراً مثيراً مع عادتهم التنخع في حلوقهم) . يا لعمق ايمانهم وثقتهم بالكلام ! لكم ينتظر ان يكونوا ضعفاء ازاء النشاط الجلي العنيد للجان التقنية التي يرسلون اليها دولاراتهم !...

هذا ما علموا به اليوم مشوشاً دون تنسيق :

يلوذ الانجليز في المستعمرات الدولية على عجل نافرين من كل مدن الداخل .

قررت اتحادات صغار العمال الكبرى ان يدفـع كل عضو من اعضائها خمسة سنتات يومياً من الآن فصاعداً لمساعدة المضربين في هونغ كونغ .

مظاهرة هائلة في طور التحضير في كل من شانغهاي وبكين للتذكير باعمـال العنف الجائرة التي يمارسها الامبرياليون الاجانب ولدعم الحرية الصينية .

يجري تجنيد المتطوعين على نطاق واسع في الاقاليم الجنوبية .

تلقى الجيش الـكانتوني من روسيا كمية ضخمة من المعدات الحربية .

ثم الخبر التالي وقد طبع بتعقل بأحرف كبيرة :

يتوقع بين فينة واخرى توقف التيار الكهربائي في هونغ كونغ .

وقعت خمسة اعتداءات ارهابيـة أمس ، ورئيس الشرطة مصاب بجراح بليغـة .

تشرف المدينة على الافتقار الى الماء .

---

١ ـ يقصد المؤلف هنـا الميثاق الوطني ، وهي الجمعية الثورية الفرنسية التي خلفت الجمعية التشريعية بتاريخ ٢١ ايلول١٧٩٢وحكمت فرنسا حتى تشرين الاول١٧٩٥ واعلنتالجمهورية وحكمت على لويس السادس عشر بالاعدام كما يعرف كل متتبع لاحداث الثورة الفرنسية .

المترجم

واخيراً ، معلومات تتعلق بالسياسة الداخلية تختص كلها تقريباً بمن يدعى تشينغ – داي .

وعندما انتهى العشاء ، نزلنا ، جيرار وانا ، بين رفيف الأكمام البيضاء والانحناءات ، وقررنا السير قليلا . فالهواء منعش ، وصفارات البواخر ، غير بعيد في النهر ، تطغى احيانا بعجيج يحمله الجو الرطيب طويلا ، على صخب المطاعم الصينية .

مشى جيرار الى يميني قلقاً . لقد شرب كثيراً هذا المساء ... « هل بك ألم ؟

– كلا .

– تبدو كاسفاً ...

– نعم ! »

لم يكد ينبس بهذه الاجابة حتى تنبه الى خشونة كلماته فأردف على الفور :

« وهناك ما يبرر ذلك ...

– لكنهم يبدون جميعاً في غاية الافتتان ؟

– اوه ! هم ! ...

– والاخبار جيدة ...

– اية اخبار ؟

– تلك التي اطلعونا عليها ، بالطبع ! توقف المركز الكهربائي عن العمل ، الـ ...

– انت لم تسمع اذن ما كان يقول جاري ؟

– كان جاري انا يحدثني عن ثورة ابيه فكنت ملزماً بالاصغاء اليه ...

– كان يقول ان تشينغ ـ داي سوف يقاومنا صراحة .

– وبعد ؟

– ماذا وبعد ؟ الا يكفيك هذا ؟

– قد يكفيني لو انني ...

– لنقل ان هذا الرجل هو اكثر الناس نفوذاً في كانتون .

– وماذا بعد ؟

– لا استطيع ان اشرح لك . ولكن اطمئن، فلسوف تسمع به في المستقبل: انه الرئيس الروحي لكل جناح اليمين في الحزب واصدقاؤه يطلقون عليه اسم غاندي الصيني وان كانوا مخطئين حقاً .

– فلنحدد : ماذا يريد ؟

– لنحدد ! يُلحظ انك غر ... لست ادري ، وربما هو الآخر ايضا .

– ولكن ، بأي شيء يربكك ؟

– كانت علاقاتنا اميل الى التوتر . أما الآن فيبدو انه في سبيله الى اتهامنا امام لجنة السبعة وامام الرأي ...

– بأي شيء ؟

– وهل اعلم ؟ آه ! انك تعتقد ان كل شيء على ما يرام لانك اطلعت على برقيات رائعة ! لكن الداخل يوازي الخارج صدقني .. .فليس يتوجب النضال في هونغ كونغ فقط ضد المؤامرات العسكرية التي لا يفتأ الانجليز يبعثونها والتي يعلقون عليها كثيراً من الامل ، بل في كانتون نفسها ايضا .٠. ان الخبر الجيد الوحيد الذي احطت به اليوم هو خبر اصابة رئيس الأمن الانجليزي بجراح . ان لهونغ من المزايا مما كنت اتوقع. ان هونغ رئيس الارهابيين الذين تعطينا البرقيات اخباراً عنهم من حين الى آخر : « اعتداءان وقعا امس في هونغ كونغ ... ثلاثة اعتداءات ... خمسة اعتداءات ... » وهكذا دواليك . ان لغارين ثقة كبيرة به ... لقد اشتغل معنا ، فكان كاتم اسراره . انها لفكرة على اية حال ان يستقدم « رأس الفتيلة » هذا ليجعل منه كاتم اسراره . ثم ان هونغ يشعر نحوه بحمى الشباب . سيبدأ منها . ولكن لا بد من الاعتراف بانه فكه مضحك بما فيه الكفاية . كانت المرة الاولى التي رأيته فيها ، في هونغ كونغ ، العام الماضي . علمت انه قرر قتل الحاكم بمسدس براوننغ وهو الذي يعجز عن اصابة باب برصاصة على بعد عشر خطوات . ولقد جاءني الى الفندق يهز يديه

الضخمتين الشبيهتين بالمرشات . طفل ، طفل حقـــاً ! « هل انت على ع... لم بش ... روعي ? » لكنهُ قوية جداً ، يبدو وكأنه يجزّىء مقاطع الكلمات بفكيه . شرحت له بأن « مشروعه » كما يقول ليس مشروعا ذكيا ، فأصغى الي ربع ساعة وهو شديد الانزعاج ثم : « نعم . ف ... قط هذا لا يـ ... مم ، ليكن . لأن .. ني اقسـ ... مت ». ومن الطبيعي انه لم يبق لديه الا ان يقوض كل شيء ! لقد اقسم على دم اصبعه ، في لست ادري اي هيكل وثني محكم ... كان شديد الانزعاج ، شديده . اما انا فقد نظرت اليه بلطف رغم ذلك : ان الصينيين من امثاله ليسوا شائعين . واخيراً ، في اللحظة التي هم فيها بالذهاب ، نفض كتفيه وكأنها ينعفان بالبراغيث وشد على يدي قائلا ببطء شديد وأيم الحق : «عندما سيحـ ... كم ع ... لي بالعقوبة القصوى ، يجب ان يقال للشباب بان يحذوا حذوي » . وكان قد انقضى دهر لم اسمع خلاله من يتفوه بعبـــارة « العقوبة القصوى » بدلاً من « الموت » . ـ لا بد وانه قرأ بعض الكتب ... ـ ولكن دون أي عاطفة وكأنه يقول : « عندما سأموت يجب ان تحرق جثتي ».

ـ والحاكم ؟

ـ حدث ان قتله في اليوم الذي اعقب اليوم التالي خلال لست ادري اي احتفال . وانني ما زلت اتخيل نفسي جالساً على سريري عارياً منفوش الشعر كالقنفذ ، في حرارة لاهبة ـ مع ان الساعة لم تكن قد تجاوزت العاشرة بعد ـ اصغي الى صخب اجهزة تنبيه السيارات والابواق والصرخات متسائلا مـا اذا كان هذا يشعر بانتهاء الحفلة او بنهاية الحاكم ... لكن هونغ كان قد نفى ذلك الصباح بالذات بوصفه مشبوها . وكنت ارى في كل هذا الزحام من السيارات والعدائين ، فكيها يصرف الكلمات على مقاطع ، وكنت اسمع صوته على الأخص وهو يقول لي :

« عندما سيـ ... حكم ع ... ليّ بالعقو ... بة القصـ ... وى ... »

« بل انني ما زلت اسمعه ... لم يكن كلامه مجرد خدعة لو تعلم . كان

يفكر حقيقة بمفرداته المدهشة في انه سيحكم بالاعدام . وسيحدث هذا ... طفل ...

– من اين جاء ؟

– من الفاقة . لا اعتقد انه عرف لنفسه اقرباء . لقد استبدلهم ، لخيره ، بشخص يبيع الآن في سايغون لعباً مثيرة وذكريات واشياء مماثلة ... قل ! هل ترغب في ارتشاف قدح من البيرنو ، من البيرنو الحقيقي ؟

– بطيبة خاطر .

– لا يرفض مثل هذا العرض . سنذهب اليه غداً ... سوف يتيح لك ذلك رؤية رجال « اهـّلوا » الارهابيين . لقد اصبحوا ندرة في هذه الايام ... هل ترغب في المضي الى الفراش ؟

– ليس بصورة خاصة ... »

نادى السائق الذي اخذ يقترب .

« الى تي – ساو ».

ومضينا ، ضاحية تضيؤها فوانيس نادرة ، شقق جدران مسودة ، واقنية ترتعد فيها نجوم ضخمة ممحية تقريبا ، وليل ناشز تخرقه هنا وهناك بقع مربعة : الحوانيت الخشبية الآنامية الصغيرة حيث يسهر باعة ساكنون وسط اكداس من الاواني الصلصالية الزرقاء ... هل جيرار استاذ سابق حقاً ؟ ان طبعه ومجموع مفرداته يتغيران كلما ازداد تعبا ... وددت لو علمت ...

كنا ندرج بسرعة كبيرة حتى أكاد احس الآن بالبرد . كنت قابعـــاً في ركني ،عاقداً ذراعي لحماية نفسي، ما ازال اصغي الى ثرثرة العشاء الديمقراطية، هذه الصيغ المضحكة في اوروبا التي تجتنى هنـــا كالسفن التجارية القديمة التي يغطيها الصدأ : ما زلت ارى الحماس الخطير الذي تولده لدى كل الناس ، وهم في معظمهم من الكهول ... واللجنة الكانتونية التي تدير كل هذا تشمخ ببطء

وراء هذه البرقيات التي لا تستطيع هونغ كونغ اخفاءها، والتي تبدو، كل واحدة منها، وكأنها جراح.

اول تموز

هونغ كونغ – اضرب كل المرضين الصينيين في المشافي.
ان بواخر شركة الملاحة الهند الصينية مجمدة في الميناء.
اعتداءات جديدة وقعت بالأمس.
اخبار مستمرة شامين مقطوعة.

كآبة وملل واضطراب من ان لا ادري ماذا اعمل في هذه المدينة التي انا مرغم على الانتظار فيها حتى تمخر السفينة، في حين وددت لو اكون في كانتون. لحق بي جيرار في الفندق. تناولنا طعامنا مبكرين وكنا وحدنا في القاعة تقريبا، فقصّ علي بأقل تشوشاً من الأمس حكاية هونغ هذا الذي يغتال رؤساء المصالح الانجليزية الواحد تلو الآخر، والرجل الذي سنمضي للقائه بعد ظهر اليوم، الرجل الذي جعلته الصدفة كما قال جيرار « مولـّد هونغ ». اسم الرجل روبكسي: انه جنوي اجتاز الثورة الصينية بهدوء الذي يمشي في نومه. عندما جاء الى الصين منذ سنوات خلت، فتح مخزنا في شامين: لكن الاوروبيين الاغنياء كانوا يوحون اليه بقدر من النفور جعله يهجر مخزنه ويستقر في كانتون نفسها حيث عرفه جيرار وغارين عام ١٩٢٠. كان يبيع نفايات الاسواق الاوروبية ويملك بصورة خاصة دمى متحركة: عصافير صداحة وراقصات محترفات وقطط محتذية تحركها قطعة من النقد يعيش منها. كان يتكلم الكانتونية بطلاقة وقد تزوج فتاة محلية على جانب من الجمال اصبحت بدينة فيما بعد. وكان حوالي العام ١٨٩٥ فوضوياً مناضلاً. لكنه ما كان يحب الكلام عن هذا الجزء من حياته الذي يذكره بفخر ولكن بحزن ايضاً اذ يجعله اشد اسفاً وهو يرى مدى ضعفه الحالي:

« ماذا تريدون، ان كل هذا من الاشياء الماضية ... »

كان جيرار وغارين يذهبان احياناً لزيارته حوالي الساعة السابعة، حينما

تكون شارة دكانه قد ضوّئت ، ليريا اطفالاً ذوي قنبرة ، جلوسا على الأرض يرنون اليها وبقع من النهار تشتبك بصفائح الدمى و كساها الحريرية ، بينما تنبعث جلبة قدور تتحرك في المطبخ، وروبكسي متمدداً على كرسي طويل وسط مخزنه الضيق يحلم بجولات في داخل الاقليم مع دماه المتحركة الجديدة العديدة . لسوف يصطف الصينيون امام باب خيمته وسيعود غنياً ؛ سوف يقدر على شراء قاعة واسعة يستطيع الجمهور ان يجد فيها كرات لاختبار قبضاته وزنوجاً ذوي بطون من القطيفة الحمراء ، وبنادق كهربائية وميازين وكل انواع المكنات التي تدار بالقروش بل وقد يجد الجمهور لعبة الكرات « بولينغ » ... فاذا ما وصل غارين، خرج من هواجسه كما يخرج من الحمام ، ينفض نفسه ويمد له يده ويحدثه عن السحر . والسحر اعزّ فكرة في نفسه ، لا بدافع تعلقه بالاوهام بكل معنى الكلمة بل بدافع من الفضول . فلا شي يثبت وجود الابالسة على الارض وبصورة خاصة في كانتون ، ولكن ما من شيء ايضا يثبت غيابهم ، لذلك يستحسن الاستعانة بهم واستدعاءهم . ولقد كان يستدعي كثيراً منهم متقيداً بالطقوس ، ابتداء من اولئك الذين وجد اسماءهم في كتاب « غران آلبير » البير الكبير المجتزأ وحتى اولئك الذين يعرفهم المتسولون والخادمات معرفة حميمة . كان يجد قليلاً من الشياطين ولكن كثيراً من البيانات يستغلها لاثارة دهشة زبائنه او لشفائهم في الوقت المناسب من الامراض الخفيفة . ولم يكن يدخن الافيون الا قليلاً . كان يُرى غالباً ، ساعة القيلولة ، يتهادى سدفه الابيض : قبعة مسطحة ، جذع هزيل، سراويل عريضة تحول اطرافها الملاقط التي يستعملها راكبو الدراجات الى سراويل جنود المستعمرات الفرنسية وقدمان دون وقاية ، لأنه كان يحب الخروج مصطحباً دراجة يجرها الى جانبه اكثر مما يركبها ، دراجة قديمة لكنها ابداً مشحمة بعناية .

كان يعيش محاطاً بصبيات صغيرات تقبّلهن خدمات، عملهن الرئيسي الاصغاء الى الحكايات ، صبيات تشرف عليهن بعناية زوجته الصينية التي لم تكن تجهل ان من الطرافة ان يحاول اجراء بعض التجارب معهن. ولما كان يستبد به الكلف

الاستعماري فانه لم يكن لينصرف عن تراق سليمان *Clavicules de Salomon* الا ليقرأ او يعيد قراءة «حكم السوط *Le Règne du Fouet* » او « العبد *Esclave*» او بعض الكتب الفرنسية الاخرى من نفس النوع . ثم كان يستغرق في هواجس طويلة يخرج منها هلعاً مفتوناً وعلى ثغره ابتسامة الطفـــل الرعديد . « يا سيد غارين ، هل تفكر في ان هناك اموراً قذرة في الغرام ؟ - كلا يا شيخ ، لماذا ؟ لأن ... لأن ... هذا يثير اهتمامي ... » وكانت المكتبة مستكملة بطبعة من « البؤساء » وبعض كراسات جان غراف *Grave* التي كان يحتفظ بهـا وان كان قد فقد اعجابه بها .

وفي عام ١٩١٨ ، كلف بهونغ الذي فرزه في عداد الصينيين الفتيـان الذين كانوا يأتون للاصغاء اليه . وسرعان ما هجر حكايات الاشباح ليعلمه الفرنسية (فلم يكن باقيـاً لديه اي نص ايطالي ولم يكن يعرف الانجليزية الا بالـكاد) . وعندما تعلم هونغ الكلام ، تعلم القراءة ثم تعلم الانجليزية التي كان يجهلها من قبل لوحده وقرأ كل ما استطاع ايجاده ، وهو ليس بالكثير . ولقد استعـاض عن الثقافة التي تعطيها الكتب بخبرة روبكسي ، فربطت بينهما صداقة عميقة لم تكن تبدو واضحة ابداً ، صداقة تجعل معاملة هونغ العنيفة وسخرية الجنوي الخرقاء الوجلة ، من الصعب التكهن بها . سرعان ما فهم هونغ ، أليف الفاقـة ، قيمة عقلية صديقه العجوز الذي لم يكن يقدم الاحسان بـــل يدعو المتسولين الى « احتساء قدح شراب » (حتى اليوم الذي استشاط فيه غضباً لرؤية دكانه النظيفة يزحمها حشد من الغِراث في وقت لم يكن يملك فيه دانقاً ، فطردهم وهو ينهال عليه ركلاً ورفساً) والذي هجر كل شيء عندما أرسل اخوه الى بيريبي ليستقر قرب سجن الاشغال الشاقة « الليمان » بقصد ايجاد « الاساليب » القادرة على جعل حياته هناك اقل ايلاماً وليستطيع من حين الى آخر ان يقبل فمه كلما ذهب الى زيارته ليدفع فيه ديناراً ذهباً . اما روبكسي فقد افتتن من جانبه بهذا اليافع الذي كان ينفجر بضحكة الزنجي كلما سرد على مسامعه الحكايات، ولكن يستشعر فيه في اعماقه شجاعة نادرة وجناناً ثابتاً حيال الموت وتعصباً كان يثير

خاطره . « انت ، اذا لم تقتل في سن مبكرة فلسوف تقوم بأعمال طيبة ... » يلفظها « توقتل » .

قرأ هونغ جان غراف فلما انهاه سأل روبكسي رأيه فيه .

وفكر روبكسي قبل ان يتكلم – وهو ما كان نادر الوقوع – ثم قال : « يجب ان افكر ، لأن ، فاهم يا صغيري ، جان غراف بالنسبة الي ليس رجلاً طيباً ، انه شبابي ... كنا نحلم بامور كثيرة والآن نحرك العصافير الميكانيكية... كان ذاك الوقت عصراً افضل من هذا لكننا معذلك لم نكن على حق. أيدهشك ان اقول لك هذا ، هه ؟ كلا ، لم نكن على حق لأن ... اصغ الي جيداً : عندما لا يكون للمرء غير حياة واحدة، فانه لا يحاول تغيير الواقع الاجتماعي... ان ما هو صعب هو ان يدرك الانسان ما يريد . خذ مثلاً : انك اذا « نسفت » احد القضاة ، فاهم ، بقنبلة فسينفق . وهذا حسن . ولكن اذا « عملت » صحيفة لكي تصبح العقيدة معروفة ، فالناس كلهم لا يحفلون ... »[1] .

لقد فشل في حياته ، وهو لا يدري على التحديد موضع الفشل فيها ، لكنه يحس بأنها فاشلة . لم يكن يستطيع العودة الى اوروبا : لقد بات الآن عاجزاً عن مزاولة أي عمل يدوي وما كان يريد تقبل أي عمل آخر . وفي كانتون ، كان يشعر بالسأم رغم انه على وجه العموم ... هل كان يحس بالسأم أم تراه كان يلوم نفسه على قبوله حياة غير جديرة بآمال صباه ؟ ولكن الم يكن ذلك لوم احمق ؟ لقد عرض عليه ادارة احدى مصالح شرطة ُسن – يات – سن ،كانت عواطفه الفوضوية لا تزال شديدة الاحتدام وكان يدرك انه عاجز عن الوشاية بانسان أو مراقبته . وعرض عليه غارين فيما بعد ان يعمل معه . « كلا ، كلا يا سيد غارين . أنت عظيم الكياسة ، ولكن ، كما تعلم ، اظن ان الآن ، قد فات الاوان ... » ترى هل اخطأ في هذا التصرف ؟ بمجمل القول ، انه ناعم البال بين

---

١ ـ النص الفرنسي حافل بالاخطاء اللفظية واللغوية التي يرمي الكاتب من ورائها الى تقمص شخصية الجنوي ، ذلك الايطالي الذي يتكلم الفرنسية ، ويؤسفني ان لا استطيع مجاراته في الترجمة العربية الا قليلا . المترجم

شياطينه وكتبه التي تبحث في المغناطيسية وزوجته الصينية وهونغ وادواتـــه الميكانيكية ، ان لم نقل انه سعيد ...

تروّى هونغ الحكم الغامض الذي ادلى به روبكسي عن حياته. ان الشيء الوحيد الذي ثقفه الغرب به بقوة تكفي لتجعل خلاصه منه مستحيلاً هو الطابع الوحيد للحياة. حياة واحدة ، حياة واحدة ... لم يستشعر الخوف من الموت قط (فهو لم يتوصل ابداً الى فهم ماهية الموت فهماً تاماً ، بل ان الموت بالنسبة اليه الآن ليس الموت بل الألم المتناهي من جرح شديد الخطورة) ، بـل الخوف العميق والدائب من ان يحطم هذه الحياة التي هي حياته والتي لن يستطيع ان يمحو منها شيئاً .

اضحى احد سكرتيري غارين وهو في هذه الحالة مـــن الارتياب . ولقد اختاره غارين بسبب الأثر الذي تبدى لشجاعته في نفوس جماعة كبيرة العدد من الصينيين الشبان الذين يشكلون الجناح اليساري الأقصى في الحزب . كان هونغ مفتوناً بغارين . لكنـــه كان يحمل الى روبكسي كل مساء ، وبشيء من الحذر ، احاديثه واوامره . وكان الجنوي العجوز المستلقي على كرسيه الهزاز أو المنصرف الى ادارة طاحونة هوائية من الورق أو التأمل في واحدة مـــن الكرات الصينية المليئة بالماء والتي يشاهد المرء بداخلها حـــدائق وهمية ، يضع الاداة ويعقد يديه على بطنه الهزيل ويرفع حاجبيه في حيرة ثم يخلص الى القول مجيباً: «هه حسناً، قد يكون على صواب هذا الغارين، قد يكون على حق ...».

واخيراً ، ولما اصبحت القلاقل اكثر تواتراً وازداد روبكسي فقراً ، قبـل مركزاً في خدمة المخابرات العامة بعد ان بيّن بأنه بطبيعة الحال « لن يُكلف بالوشاية باحد » ! وارسله غارين الى سايغون حيث كان وجوده نافعاً .

كنا قد فرغنا من تناول الطعام ورحنا نمشي وقـــد حنت الحرارة ظهورنا حينما صمت جيرار . انه الوقت الذي نجد روبكسي في مثله .

دخلنا دكاناً صغيرة لبيع سلع صغيره مختلفة : بطاقات بريدية ،تماثيل بوذا ، سجاير ، نحاسيات آنام ، رسوم كامبودجية ، ملاءات السامبو وسائـد حريرية

مطرزة بالتنانين واشياء اخرى غير واضحة المعالم من الحديد، معلقة على الجدران حتى السقف بعيداً عن ضياء الشمس . وصينية بدينة نائمة وراء الصندوق .

« المعلم هنا ؟

– كلا سدي « سيدي » .

– أين هو ؟

– ما ادري .

– مشرب ؟

– زوز « يجوز » ، مشرب تام – لونغ ! »

عبرنا الشارع : كان « مشرب تام – لونغ » في الجهة المقابلة . انه مقهى هادىء ، على سقفه، تتقيل بعض الحراذين. تقاطع على السلم خادمان يحملان غلايين الافيون والمكعبات الخزفية التي يضع المدخنون رؤوسهم عليها، وامامنا ، كان الغلمان السعاة نائمين عراة حتى الخصور وشعورهم على اذرعتهم المطوية. وعلى مقعد من الخشب الاسود ، استلقى رجل وحيداً ، يحدق امامه مؤرجحاً رأسه بتؤدة فلما رأى جيرار ، نهض واقفا . اصبت ببعض الدهشة : كنت اتوقع شخصا غاريبالدياً[1] واذا بي امام رجل قصير اعجف معقد الاصابع منسرح الشعر أشيبه وقد جزه على شكل مستدير يذكر راسه بغينيول ...[2] قال جيرار مشيراً الي باصبعه :

« هوذا رجل لم يشرب البيرنو منذ سنوات .

فأجاب روبكسي :

– حسنا ... ماشي الحال ».

خرج فتبعناه . غمغم جيرار في اذني قائلا بينما كنا نعبر الشارع « لقد لقبه غازين بـ : نيافرون[3] » .

---

١ ـ نسبة الى غاريبالدي وفدائييه . وهو المواطن الايطالي الذي نافح من اجل وحدةايطاليا ضد النمسا اولاً ثم ضد مملكة نابولي ثم وضع سيفه في خدمة فرنسا بين عامي ١٨٧٠-١٨٧١ .
المترجم

٢ و ٣ ـ غينيول ونيافرون ، الشخصيتان الرئيسيتان للدمى المتحركة في فرنسا يقابلهما لدينا كراكوز وعيواظه .
المترجم

دخلنا مخزنه وصعدنا الى الطابق الاول . فرفعت الصينية رأسها ونظرت الينا ونحن نمر ثم عادت الى سباتها . كانت الغرفة رحبة ، في وسطها سرير تحميه كلّته . وعلى طول الجدران، رصفت اشياء تحت غطاء مشجر . غادرنا روبكسي فسمعنا قفلا يصر وصندوقا يغلق بشدة ثم صوت الماء ينبعث من صنبور ويغور في قدح . قال جيرار : « ساهبط لدقيقة واحدة . يجب ان ابادل صينيته بعض المجاملات اذا لم تكن مستغرقة في نوم عميق : ان ذلك يرضيه .

طالت الدقيقة . كان روبكسي اول من عاد ، يحمل زجاجـــة على طبق وسكراً وماء وثلاثة اقداح ــ وهو لائذ بالصمت . جلس وراح يحضر بنفسه اكؤس البيرنو دون ان يتكلم . وبعد فترة قال :

ــ « هه حسن ! اصبحت متقاعداً ، كما ترى ...

صاح جيرار وهو يرتقي السلم اخيراً داعكاً لحيته :

ــ روبكسي ، ينتظر الرفيق منك حكايات تتعلق بابنك الروحي ! آه ! لقـــد لبثت فترة طويلة متغيباً ؛ أحسست كأننا متبوعين . أليس كذلك ».

لم يرَ كم تغير تعبير وجه روبكسي عندما تحدث عن هونغ .

« انت ، لو لم اكن اعرفك كما اعرفك ، لتلقيت يدي على « بوزك » منـــذ زمن ... لا تمزح على هذا النحو !

ــ ماذا دهاك ؟

ــ انت ترى ان الوقت مناسب اذن ن ن ؟

ــ اي وقت ؟

هز روبكسي كتفيه متضجراً .

ــ « ما ذهبت لدى الرئيس هذا الصباح من اجل الحفلة .

ــ كلا .

ــ ولكن ماذا تفعل ؟

ــ لدينا موعد في الخامسة .

ــ آه ! هذه هي اذن ... عليك ان تستطلعه اخبار هونغ ، تستطلعه هو .

وحينئذ سيقول لك ان هونغ قد وقع بين براثنهم .

ــ براثن الانجليز ؟ البيض ؟ منذ متى ؟

ــ مساء البارحة كما يقول . بعد ساعتين من اذاعة البرقيات ... لعل ...

وراح يقرع القدح بملعقته قرعاً خفيفاً ثم شربه دفعة واحدة. « في يوم آخر، ولن اقول لا .٠. والبرنو ، انه هنا من اجل الصحاب ... »

٢ تموز

نزول النهر

بدا وكأن القلق الشديد قد اخذ بالتعاظم كلما اقتربنا من الهدف . ابداً : كان الفتور مهيمناً على السفينـــة . ساعة فساعة ، بينما كنا نجانب ضفاف النهر المسطحة يلفنا البحر الكثيف وايدينا مغطاة بحبات العرق ، كانت هونغ كونغ تزداد وضوحاً ، تخرج عن كونها مجرد اسم ، مجرد موقع في مكان ما من البحر، مجرد زينة من الحجر . واخذ كل منا يشير بان الحياة تلج فيها . لم يعد هناك قلق حقيقي : انها حالة من التشوش تختلط فيها وتيرية سير المركب المثير باحساس كل منا بأنه يعجم لحظات الحرية الاخيرة : لم تشتبك الوحدات بعد ، والقلق ليس الا احساساً مجرداً . دقائق غريبة تستولي القوى الحيوانية القديمة خلالها على كل المركب . خبال هنيء تقريبا وتوان متوفز . ان لا يرى الانسان بعد ، ان يعرف الاخبار فحسب ، ان لا يكون قد « اجتيح » بعد ...

٥ حزيزان
الساعة الخامسة

اعلن الاضراب العام في هونغ كونغ .

الساعة الخامسة والنصف

اعلنت الحكومة الاحكام العرفية .

الساعة التاسعة

في مرفأ هونغ كونغ الكبير

لقد اجتزنا المنارة لتونا . تخلينا عن كل اغراءات النعاس ، الرجال والنساء على السطح . أكؤس عصير الليمون والويسكي صودا . وعلى صفحة المـاء ، ترسم صفوف المصابيح الكهربائية هيا كل المطاعم الصينية بخطوط منقطة . والى الاعلى، تعلو كتلة الصخرة العتيدة ، جبـــارة ، ذات لون اسود فاحم عند القاعدة ، متصاعدة في السماء متدرجة لتنتهي بتكوير حدبتها الآسيوية المزدوجة محاطـة بضباب خفيف وسط النجوم . ليست شبحاً او مسطحاً قدّ من الورق ، بل هي شيء جامد وعميق كمادة حقيقية ، كأرض سوداء صالحة ، يحدق بأعلى حدبتيها خط فلكي (طريق ؟) ، بالخرشوم الشاهق ، وكأنه عقد . اما البيوت فلا يرى منها غير مشتل من الاضواء المتراصة تراصاً لا يصدق ، متداخلة تقريبـاً ، فوق رسم المطاعم الصينية الراعش ، يتفكك سواد الصخرة بمقدار ما ترتفع ، لتسمق في الاعالي وتضيع بين النجوم الساطعة المتدلية . وفي الخليج الصغير ، تهجع اعداد من السفن الكبيرة المضاءة بطبقـــات نوافذها الصغيرة ، تختلط انعكاساتهـــا المتكسرة على صفحة الماء الذي لا يزال دافئاً بانعكاسات اضواء المدينة . كل هذه الاضواء في بحر الصين وسمائها لا تذكر المرء بقوة البيض الذين أبدعوها بل بمشهد بولينيزي [1] ، بعيد من الاعيـاد التي تمجد فيها آلهة مبرقشة باطلاق عدد هائل من القطارب المضيئة في ليل الجزر كالحبوب ...

مر امامنا حاجز عمودي حجب كل شيء عنا ، لا نأمة الا صوت قيثـــارة وحيـدة الوتر : ستار من السفن الشراعية الصغيرة ... والهواء فاتر ـ وشديد السكون !...

كف مشهد النقط المضيئة عن الاقتراب منا فجأة . وقوف . غطست المراسي بقرقعة حديد متصافق تصم الآذان . غداً صباحاً ، في الساعة السابعة ، سيصعد رجال الشرطة الى السفينة . محظور النزول الى اليابسة .

---

١ ـ بولينيزيا : اسم يطلق على الجانب الاكبر من جزر اوقيانوسيا في شرق المحيط الهادي واوستراليزيا . المترجم

حمل بحارة السفينة امتعتنا الى زورق الشركة البخاري. لم يتقدم اي « كولي» لعرض خدماته . انسللنا على سطح البحر لا تكاد ترجنا هذه الماء الكثيفة القليلة الغور . وفجأة ، في اللحظة التي كنا نتخطى فيها جؤجؤاً صغيراً تكثر فوقه المداخن والاشارات ، ظهر لنـــا حي الاعمال : ابنية عالية متلاصقة على طول الرصيف البحرية، صف من هامبورغ او لندن يسحقه مخروط من النباتات الكثيفة وسماء يرتعد الهواء الشفاف على اديمها و كأنه منطلق من فرن. دنا الزورق الكبير من رصيف المحطة التي كان القطار ينطلق منها من قبل باتجاه كانتون .

ما زلنا لا نرى أي « كولي [1] » على الاطلاق . لقد رجت الشركة الفنادق الاوروبية الكبيرة ان ترسل رجالاً من لدنهـا كما قيل ... ولكن ما من احد . حمل المسافرون صناديقهم بجهود كبيرة يساعدهم البحارة .

ها هوذا الشارع الرئيسي . والمدينـــة ، وهي الحد بين الصخرة والبحر ، مشيدة فوق الاولى ومعلقة بالثاني ، عبارة عن هلال يرسم عليه هذا الشارع الذي تقطعه عمودياً كل المطالع التي تصل الرصيف بالخرشوم ، سعفـاً كبيراً مقعّراً . ان نشاط المدينة كلها يتركز فيه عادة . اما اليوم، فانه ساكن قاحل. ومن بعيد لبعيد ، يمضي فدائيان انجليزيان الى السوق يرتديان ألبسة الكشافـة ، متلازمين حذرين ، ليوزعا فيها الخضار واللحم . قباقيب خشبية ترن على البعد . ما من امرأة بيضاء . ما من سيارة .

ها هي ذي المخازن الصينية : الصياغة ، باعة اليشب ، تجارات النفـائس . قلّ عدد البيوت الانجليزية التي ألاقيهـــا ، وبعد ان رسم الشارع منعطفاً حاداً فجأة ، ما عدت أرى أياً منها . ان هذا المنعطف مزدوج حتى لكأن الشارع

---

١ - كولي « *Coolie* » اسم يطلق في الصين على صغار الفعلة وبصورة خاصة اولئك الذين يجرون المقاعد ذات العجـلات التي تستعمل هنـاك بدلاً من السيارات . وهم ادنى من مستوى أبسط العمال ، لذلك سأستعمل الكلمة نفسها في سياق هذه المقالة لأنها اكثر دلالة وتحديداً .
المترجم

مغلق اشبه بالفناء . وحيثما نظرت ، على كل الطبقـــات ، شارات : سوداء ، حمراء ، مذهبة ، مبرقشة على لوحات عمودية او مثبتة في اعلى الابواب ، كبيرة او دقيقة ، مثبتة على مستوى العيون او معلقة في العلاء ، على مستطيل السماء ، تحيط بي اشبه برفوف من الحشرات الطائرة . وفي اعماق اجحار ضخمة معتمة محددة بثلاثة جدران ، يجلس الباعة ذوو الدراريع الطويلة على منصة ينظرون الى الشارع . وما ان أبدو لهم حتى يحولوا أعينهم الصغيرة الى اشياء تتدلى من السقف منذ الوف السنين : حبّار مضغوط وسبيدج وأسماك ونقانق سوداء ، وطيور البط المغطاة باللّك بلون فخذ الخنزير المملحة ، أو الى اكياس الحبوب وصناديق البيض الملفوفة بالتراب الاسود الموضوعة على الارض ٠ واشعـاعات حادة من الشمس ، محملة بغبار أصهب ، تسقط فوقهم . فاذا ما التفت اليهم بعد تجاوزهم ، لاقيت نظرتهم التي تتبعني ، ثقيلة حاقدة .

وامام المصارف الصينية التي تعلوها الشعارات المذهبة ، المغلقـة بالقضبان المشبكـة كالسجون او اماكن الجزارة ، يقف جنود انجليز للحراسة ، اسمع احياناً صوت ارتطـام أخمص بنادقهم الخفيفة باسفلت الشارع . انه رمز عديم الجدوى : ان عناد الانجليز الذي عرف كيف ينتزع هذه المدينة من الصخر ومن الصين ، بيتاً اثر بيت ، واهي العزيمة الآن امام السلبية العدائيـة لثلاثمائة ألف صيني قرروا اخيراً ان لا يُهزموا بعد اليوم . انهـــا اسلحة عديمة الجدوى ... فليست الثروة هي التي يفلت زمامها من الانجليز بل القتال ايضا .

★

الساعة الرابعة . قيلولة محمومة مرجعها المراوح التي لا تكاد تدور لأن سير المصنع الكهربائي مضمون جزئيا . الحرارة ما تزال شديدة جداً ، وفي الشوارع ، تتصاعد من الاسفلت اللامع الذي يعكس زرقة السماء ، حرارة اشد من حرارة الطقس ، مصحوبة بالغبار . ان على معاون مندوب الكيومنتانغ ان يسلمني بعض الوثائق . لقد نُفي المندوب الرئيسي منذ حين ، وكان بلطيقياً . وقـد اشاهد المنظم الاوروبي للاضراب ، الألماني كلين .

كل ما اعرفه عن هذا المندوب المساعد الذي يدعى مونييه ، انه كان عاملاً

ميكانيكياً في باريس من قبل ورقيبا في الرماة اثناء الحرب. فاجأني مظهره وهو على عتبة بيته المشابه لبيوت المستعمرات الشديد البساطة عند أسفل الخرشوم : كنت افترضه كبير السن فاذا به لا يبدو قد تجاوز الخامسة والثلاثين . انه فتى طويل القامة حليق الوجه متين البنية ، تشكل شفته العليا الشديدة القرب من انفه الدقيق ، وعيناه الصغيرتان الحادتان وخصلات مجنونة من شعره ، صورة مبهمة لرأس ارنب مضحك ، ودود ، مكثار ، واضح الاغتبـــاط للتحدث بالفرنسية ، غارق في مقعده المصنوع من أسل الهنـد امام كأسين كبيرتين من شراب النعناع المنعش يغطيهما العرق ... عشر دقائق تمضي وها هوذا ينطلق :

« آه ! يا شيخ ، يا سلام ، انه منظر جميـــل : درواس اسرة اولد انجلند « يقصد معقل الانجليز » الدرواس الحقيقي الوحيد ، هونغ ـ كونغ نفسهـــا ، تتفسخ يقظى ، تفترسها الديدان ! لقد شهدت الشوارع هه ، طالما وصلت هذا الصباح ؟ ليس بالمنظر البشع ! بل انه جميل . لكنه لا شيء يا شيخ ، لا شيء اقول لك ! يجب ان ترى هذا من الداخل ليصبح عندئذ كلي الجمال .

– وماذا يرى المرء من الداخل ؟

– حسنا ، « مشاكل » كثيرة . الاسعار مثلاً . البيوت التي كانت تساوي خمسة آلاف دولار في العام الماضي ، يسألونك اليوم ألفا وخمسمائة دولار ثمنا لها اذا ما ارادوا بيعها .

« ان دائرة الامن تروي اراجيف كثيرة ، على غرار ما اشاعوا منذ حين انهم « عفطوا » هونغ . آه ! ها ! ها !

– أهو كذب ؟

– وأي كذب !

– لكن الناس كلهم في سايغون كانوا يظنون ...

– ايه ! الاراجيف ، ليست هي القليـــلة . ان هونغ في كانتون ، على خير حال .

– هل تعرف بورودين ؟

– اتصور كليمنصو على هـذه الشاكلة عندما كان له من العمر اربعون او خمسة واربعين عاما . كثير من الخبرة . الشيء الوحيد الذي يمكن ان يؤخذ عليه هو حبه المفرط للروسيين .

– غارين ؟

– لقد قام بعمل رائع في الآونة الاخيرة : لقد حوّل مضربي كانتون (الذين يعيشون من المنح التي توصل هو وبورودين الى حمل الحكومـة على صرفها لهم) الى عملاء دعائيين نشيطين . جيش !.. لكنه اخذ وجهه يشابه وجه الجثث ، غارين ! حمى مرزغية ودوسنتاريا (زحار) ماذا يدريني بعد ؟

« مزيد من النعناع ، هم ؟ يطيب للمرء الجلوس على اريكة في مثل هـذه الساعة ... آه ! خذ الاوراق ، بهذا تكون واثقا من انك لن تنساها . فكرة طيبـة تلك التي خطرت على بالهم ، اولئك الانجليز ، ان يؤمنوا الاتصال بين هونغ كونغ وكانتون بواسطة بحارة الاسطول الحربي ! سوف يحضر كلين بعـد حين؛ ستمضيان معا . ما كان عليه ان يغادر هنا قبل بضعة ايام، لكنه اكتُشف، لذلك وجب ان ينسحب بسرعـة ، اذا آمنا بالمعلومات التي اقتبست من دائرة الامن . انا شخصيا لم يعد لي طويل مقام دون شك ...

– هل انت واثق من انني لن افتش هذا المساء عند مغادرتي .

– ليس من داع : انت في حالة عبور ، وهم يعرفون ان اوراقك لا غبـار عليها . كما يعرفون كذلك ان التفتيش وعدمه سيان. بالطبع ، اتخذ احتياطاتك على كل حال . يجب ان يسجنوك اذا ما أرادوا الوصول الى نتائج ، وليس من خطر بعد من هذه الناحية . نفيٌ على أبعد حد .

– هذا مثير ...

– كلا، بل انه سهل بسيط. انهم يفضلون مخابراتهم « الانتيليجنس سرفيس» والتدخل المكتوم عند الحاجة . ثم ان موقفهم خاص جداً : انهم ليسوا في حالة حرب مع كانتون من الوجهة القانونية .

« قد يحاولون الآن ايجاد سبب ما ، لكنهم لا يتمسكون بشدة بالاحتفاظ

بكما ، كلين وانت : انهم يجدونكما اقرب الى الشبهة ...

« قل لي ، ألا تعرفه ، كلين . كلا ، طالما وصلت لتوك ...

ولقد قيلت هذه الجملة بلهجة جعلتني أسأل :

« ماذا تأخذ عليه !

– انه غريب بعض الشيء ... لكنه كمحترف ، جيد حقا. لقد شهدته منذ قليل وهو يعمل . حسنا ، يمكنك ان تثق بقولي : انه يعرف تماما كيف يشن اضرابات متوالية !

« على ذكر العمل ، اردت ان اقول لك منذ حين ، ان احدى الحالات التي أظهر فيـــها غارين انه على مستوى الاحداث حقاً ، هي عندما نظم مدرسة المستجدين . هنا ، ليس في الامر مزاح . انني أعجب . ان تصنع جنديا من صيني ، ليس بالأمر اليسير . وأصعب من ذلك ان تصنعه من صيني غني . لقد توصل الى ضم حوالي ألف رجل، ما يكفي لتكوين نواة جيش صغير . وسيكون العدد عشرة اضعافه في غضون عام ، وحينئذ لست ارى تماما اي جيش صيني يمكن ان يجعلوه يتصدى لهم ... أهو جيش تشانغ ـ تسو ـ لينغ ، محتمل ... ولكن ليس أكيداً . اما الانجليز ، فانهم اذا ما ارادوا اللعب بلعبـــة الحملة التأديبية ، (هـــذا اذا فرضنا جدلاً ان الرفاق هناك كانوا من الميوعة بحيث يمكنونهم من الذهاب) ، فلسوف نجد ما يسلينا ... ان نجمعهم ، المستجدين ، لم يكن امراً يذكر : لقد اعطاهم ألقابا وشارات وفرض احترامهم . ثم ان هذا امر ممكن الوقوع آخر المطاف . لكنه عرّفهم على وجود الرذيلة غير الشائعـة في الصين، التي تدعى الشجاعة. انني انحني امامه : ما كنت قادراً على النجاح، انا لو كنت مكانه . انا اعرف تمـــاما انه حصل على عون كبير من جانب غالنّن وبصورة خاصة من جانب قائد المدرسة ، تشانغ كاي تشك . انه هو ، تشانغ ، الذي جنّد مع غارين الاطر « الكادرات » الجدية الاولى . لقد فعل هـــذا ، ماذا ! كما صنع الانجليز هذه المدينة : رجلاً بعد رجل ، شجاعة بشجاعـــة ، ملتمسا ، متطلبا ، محركا . ولم يكن الامر مضحكا مسليا ... حاول ايجـــاد

قردة شنيعين ذوي أظافر الاصابع الصغرى بمثل هذا الطول ، ولكي تتوصل الى انتزاع اطفالهم منهم ... انني اتصور الموقف من هنا !.. كان الذي ساعده، ارسال احد ابناء نائب الملك السابق الى فامبوا . ثم اسرته كلها على ما أظن .. اخيراً ، انه غاية في الجودة . ثم ان تضع في رؤوس الناس ان المستجدين ليسوا جنوداً بل خداما للثورة . انه كذلك جيد جداً . لقد شهدنا النتائج في شامين في الخامس والعشرين .

– لم تكن لامعة بالقدر الكافي ..

– الأنهم لم يحتلوا شامين ؟ هل تظن انهم كانوا يريدون احتلالها ؟

– هل لديك معلومات جدية حول هذا الموضوع !

– ستحصل على معلومات هناك . اعتقد ان ذلك كان يستهدف تشينغ-داي بصورة خاصة . هذا ، لقد باتت الضرورة متزايدة الى وضعه تجاه امر واقع . اخيراً ، هذا يحتمل النقاش . اما الذي لا جدال فيه ، فهو انه عندما اخذت الرشاشات تطلق نيرانها على رجالنا، أخلت الجماهير المكان فراراً كالعادة. لكن ما يقرب من خمسين شخصا انقضوا عليها : المستجدون. ولقد عثر عليهم على بعد ثلاثين متراً من الرشاشات – على الارض كما ينتظر ان يكون . ان لدي فكرة غامضة توحي بأن شيئاً ما قد تبدل في الصين ، ذلك اليوم .

– لماذا يُتوقع ان يكون هجوم شامين موجهاً ضد تشانغ داي !

– قلت : يحتمل . لدي احساس باننا لم نعد على خير ما يرام معاً . وانني احذر صديقه الحاكم وو – هون – مين بصورة خاصة .

– لقد كان جيرار قلقاً من ..

– هل لا تزال شعبيته على كبرها ؟

– يبدو انها تناقصت كثيراً خلال هذه الايام الاخيرة ..

– ولكن ما هي وظيفته !

– ليست له وظيفة في الدولة . لكنه رئيس لعدد من الجمعيات السرية التي تشكل الجانب الأكبر من الجناح اليمين في الكيومنتانغ . يا شيخ ، عندما أمر

غاندي الذي لم تكن له وظيفة ، « بالهارتال » وقال للهندوكيين ان يقوموا بالاضراب ، ايه ، لقد تركوا جميعاً عملهم اول مرة رغم وصول الامير دوغال ، فاجتاز الامير كالكوتا وكأنها مدرسة الصم البكم. ولقد فقد كثير من الهندوكيين اعمالهم فيا بعد وماتوا على لون ما من الجوع ، بالضرورة . ولكن ولو ! هنا ، القوى المعنوية ، شيء على مثل حقيقة هذه المنصة او هذه الاريكة وثبوتها .

ـ لكن غاندي كان قديساً .

ـ محتمل : انهم لا يعرفون عن ذلك شيئاً . ان غاندي اسطورة ، تلك هي الحقيقة . تشينغ ـ داي كذلك . لا يجب البحث عن اناس كهؤلاء في اوروبا .

ـ والحكومة !

ـ حكومة كانتون !

ـ نعم .

ـ اشبه بكفة ميزان تتأرجح ، محـاولة ان لا تسقط من غارين وبورودين اللذين يمسكان بالشرطة والنقابات الى تشينغ ـ داي الذي لا يمسك بشيء ، لكنه ليس أقل منهما وجوداً .. الفوضى يا شيخ ، هي عندما تكون الحكومة ضعيفة وليس عندما لا تكون هناك حكومة . فأولاً ، هناك حكومة دائماً ؛ وعندما لا تكون الامور على ما يرام ، تكون هناك عدة حكومات ، هـذا كل شيء . وهذه الحكومة ، يريد غارين ان يورطها حتى الاذنين : يريد ان يجعلهـا تعلن مرسومه المقدس. طبيعي ان هذا يلقي الهلع في نفوسهم، الانجليز ! هونغ-كونغ، دون اية سفينة ترسو فيها، هونغ ـ كونغ المحظورة على السفن الذاهبة الى الصين، مرفأ مقضي عليه ، نافق ! فكر : عندما دار البحث حول هذا، طلبوا من فورهم التدخل العسكري ، هنا . يا لله !.. لو حدث هذا لكان ماكراً ، غارين . لكن الامر ترسخ .. ترسخ ..

ـ لماذا ؟

ـ لأن .. يصعب الشرح . الحكومة ، فاهم ، تريد من صميمها ان تبقى بجانبنا ، بل فوقنا اذا امكن . وهي تخشى ان تُلتهم اذا سارت معنا شوطـاً

بعيداً ، سواء من قبل الانجليز او من قبلنا . فاذا لم نقاتل الا ضد هونغ-كونغ، ولكن الداخل ! الداخل ! من هنا يأملون في النيل منا .. يجب امعان النظر في هذا [1] .. »

شربنا اقداح النعناع في سكون نادر تحت المدار لا تعكره حتى المراوح الكهربائية المتوقفة. سكون لا تعكره صرخات ملحنة يطلقها الباعة المتجولون، ولا صواريخ صينية . لا طيور ولا صراصير . وجاءت ريح خفيفة جداً من الخليج الصغير تحني بتوان الحصائر الممدودة فوق النوافذ لتكشف عن مثلث من الجدار الابيض المغطى بالضباب النائمة ، حاملة رائحة الطريق التي تكوي الحرارة قارها. وترتفع من البحر احياناً صافرة بعيدة، منفردة وحيدة كأنها مكتومة..

حوالي الخامسة ، وصل كلين بادي الاعياء وتهاوى بكل جسمه على مقعد اخذ أسَله يصر تحت ثقل وزنه ، ووضع يديه على ركبتيه . كان طويل القامة عريض الكتفين، فوجئت بوجهه ذي الطابع الفريد : ان المرء ليصادف مثل هذا الطراز في انجلترا ، ولكن نادراً ما يلقاه في المانيا . ففي هذه العيون الصافية التي يعلوها حاجب كثيف ، وفي هذا الانف المضغوط وهذا الخط الرهيب لفمه الهابط المرتخي الذي تزيده التجاعيد العميقة طولاً بدءاً من الأنف وحتى تلتقي بالذقن ، في هذا الوجه العريض المسطح وهذا العنق المكتنز ، امارات الملاكم والدرواس الشرس والجزار . اما بشرته ، فكانت شديدة الاحمرار في اوروبا ولا ريب ، لأن خديه لا يزالان يحملان علامات النمش الصغيرة . اما هنا ، فهي سمراء كبشرة كل الاوروبيين . تحدث بادىء الامر بالفرنسية مقرونة بلكنة المانيا الشمالية ، قوية واضحة تعطي صوته الأبح قليلاً رنة غردة شبه بلجيكية . لكنه يعبر عن دخيلته بكثير من العناء بسبب ارهاقه الشديد ، لذلك سرعان ما حزم امره على التحدث بالألمانية . وجعل مونييه من حين لآخر يلخص حديثهما بالفرنسية .

---

١ ـ المتكلم هو المسؤول عن هذه الركاكة في الاسلوب والبلبلة في الافكار وليس المترجم !
المترجم

ان الاضراب العام في كانتون ، الهادف الى تدعيم سلطة اليسار واضعاف نفوذ المعتدلين وبنفس الوقت الى النيل من المصدر الرئيسي لثروة هونغ كونغ في كانتون نفسها في اشخاص التجار الاغنياء المعادين للكيومنتانغ الذين يتعاملون مع الانجليز ، مستمر منذ خمسة عشر يوماً . وان بورودين وغارين ملزمان باعالة حوالي خمسين ألف رجل من مخصصات الاضراب ، أي من الضرائب المستوفاة من كانتون والاموال التي يرسلها العدد الكبير من صينيي « المستعمرات » الثوريين . وأمر الاضراب العام في هونغ كونغ الذي يوقف عمل اكثر من مائة ألف عامل ، يلزم الحكومة الكانتونية بمنح مرتبات اضراب لعدد من العمال يبلغ حداً يجعل الامكانات المرصودة لهذه الرواتب تستنفد في غضون ايام قلائل. بل ان المنح قد قطعت الآن عن العمال العاديين . والحال ، ان شرطة الشوارع التي يؤمنها متطوعون مسلحون بالرشاشات في هذه المدينة التي عجزت الشرطة السرية الانجليزية حتى الآن عن تحطيم المنظمات الكانتونية فيها ،أقوى من ان تسمح بنجاح الاضطراب. لذلك فان حركات العنف التي وقعت في الايام الاخيرة قد انحدرت الى مجرد مشادات . وعليه ، لا بد وان يعود العمال الى اعمالهم وهو ما ينتظره الانجليز .

ان غارين ، الذي يضطلع حالياً بالادارة العامة للدعاية ، لا يجهل مدى خطورة موقف بورودين ، ولا المدى الذي يتعرض له هذا الاضراب العارم ، رغم قوته الذي تذهل كل البيض في الشرق الاقصى ، لخطر الانهيار . ان كليهما لا يستطيعان العمل الا بوصفهما مستشارين وهما يواجهان المعارضة الجازمة من جانب اللجنة الملكية لاقرار الاجراءات التي كانا يعتمدان عليها. ويقول كلين ان تشينغ - داي يستخدم كل نفوذه ليمنعهما من العمل . ومن جهة اخرى فان الحركة الفوضوية تنمو على أخطر وجه - الأمر الذي يسهل التنبؤ به - اذ قامت سلسلة من الاعتداءات الارهابية في كانتون نفسها ، واخيراً ، فان عدو الكيومنتانغ القديم ، الجنرال تشينغ - تيونغ - مينغ ، (بفضل المعونات الانجليزية) ، آخذ في تجهيز جيش جديد يمشي به على المدينة .

أبحرت سفينتنا .

ما عدت أرى الآن من الجزيرة سوى شبح غرست فيه اضواء صغيرة لا تحصى، آخذة في التضاؤل ببطء ، اسود على صفحة السماء الواهنة . واشكال الدعاية الضخمة مقتدة فوق المنازل ، دعاية اكبر الشركات الانجليزية التي كانت منذ شهر مضى تسود المدينة بكل كراتها المضيئة . لم تعد الكهرباء تشع فيهـا بعد ان اصبحت ثمينة عزيزة ، لذلك فقد راحت ألوانها المرقشة تختفي في المساء.وفجأة، حل منعطف فجائي حملها جانباً عارياً من ساحل الصين الجبلي،صلصالياً تخترمه اعشاب قصيرة راحت بقعها تختفي في الليل المفعم بالبعوض كما كان الحال منـذ ثلاثة آلاف عام . وحل الظلام محل هـذه الجزيرة التي تنخرها سرفات ذكية تترك لها مظهرها الملكي دون ان تسمح لها بعد اليوم بان ترفع في السماء من رموز ثرواتها الخابية غير شارات كبيرة سوداء ...

★

الصمت ، الصمت المطلق والنجوم . مرت سفن شراعية صغيرة تحتنا قليلاً ، يدفعها التيار الذي نصعده ، دون اي صوت ، دون اي وجه . لم يعد هنـاك أي شيء أرضي في هذه الجبال الغامضة التي تحيط بنا ، في هـذه الامواه التي لا تضج ولا تصطفق ، في هذا النهر الكبير الميت الذي يغوص في الليل كالأعمى، أي شيء انساني في هذه الزوارق التي نمر بها ، اللهم الا فوانيس تلمع بوهن شديد في المؤخرة ، فلا تكاد تشع ...

« .. الرائحة ليست ذاتها .. »

لقـد هبط الليل بكليته . كلين الى جانبي . انه يتحدث الفرنسية بصوت خفيض تقريباً :

« ليست ذاتها .. هل سافرت خلال الليل على الانهار ؟ أعني في اوروبا ؟

– نعم ...

– كم هو مختلف ، أليس كـذلك ، كم هو مختلف !.. ان هدأة الليل عندنا

سلام .. هنا ، تسمع طلقات الرشاشات ، هم ! »

صحيح . انه ليل تهادن ، يحدس المرء ان هذا السكون مليء بالأسلحة. اراني كلين نيراناً مرتعشة لا تكاد تبصر :

« انهم رجالنا .. »

ما يزال يتحدث بصوت منخفض وبلهجة المسارة .

« لا يشاهد شيء هنا : لقد كفوا عن الانارة..انظر ، على المقعد،المباسطة.

وراءنا ، على السطح ، كان عشرة من الاوروبيين الشبان،الذين تملك شركاتهم فروعاً لها في شامين ، والذين يقصدونها لمساعدة المتطوعين ، جالسين على نصف دائرة حول امرأتين شابتين مرسلتين كما قيل ، من قبل احدى الصحف (او من دائرة الامن ؟ ...) يتبارون في رواية الفكاهات : « ... لقـــد طلب من موسكو نعشاً من الكريستال شبيهاً بنعش لينين ، لكن الروسيين أرسلوا نعشاً من الزجاج ... (المقصود هنا سُن ـ يات ـ سن ولا ريب) . ومرة اخرى.. »

هز كلين كتفيه :

« هؤلاء هم مجرد حمقى فحسب ... »

وضع يده على ذراعي ونظر الي :

« اثناء « كومونة » باريس، فاهم ، اوقف احد الكبـــار . عندئذ صرخ : « لكنني ايهـا السادة لم اتدخل في السياسة عمري ! فأجابه شخص حذق : — وهذا هو السبب ! » وحطم رأسه .

— وهذا يعني ؟

— ليس على اشخاص بعينهم ان يتألموا دائماً . اذكر احد الاعياد في الماضي، حينما كنت انظر الى ... مخلوقات تشبه هؤلاء . آه ! بضع رصاصات مسدس لتحطيم هذا الـ ... لست أحسن الافصاح ، هذه الابتسامة ، ايه ! ان مظهر كل هذه السحنات يدل على ان اصحابها لم يبيتوا قط على الطوى ! نعم ، ان نُفهم هؤلاء الاشخاص ان هناك شيئاً موجوداً اسمه الحياة البشرية !انه نادر ،الرجل.. (ولفظها بالألمانية) ، رجل .. ايه ! »

أمسكت عن الرد . هل يتكلم بدافع من العطف ام من الحاجة ؟ ان صوته الخفيض عديم الرنة ومصاحبة البعوض الناعمة تجعله أبحاً تقريباً . ويداه ترتعدان : لم ينم منذ ثلاثة ايام . انه نصف ثمل من التعب .

والى الوراء ، يلعب المسافرون الصينيون ويدخنون في صمت ، يفصلهم عنا حاجز يحرسه جنديان من الهندوكيين ذوي عمائم ، والبنادق تحت اذرعهم .

« هل تدري في سجن الاشغال الشاقة كيف تُحتمل المحن الأكثر .. فظاعة؟ او الأكثر دناءة ؟.. كنت افكر باستمرار في أنني قد أسمم المدينة . هـــذا ، كنت قادراً على فعله . كنت مستطيعاً بلوغ خزانات المياه، بعد التحرير. و كنت اعلم بأنني كنت مستطيعاً الحصول على كميات كبيرة من السيانور .. عن طريق صديق .. كهربائي .. عندما كنت اشعر بالألم المبرح ، كنت افكر في الوسائل التي سأستعملها ، كنت أتصور المسألة ... بعدئذ ، كنت أحس بالارتياح . ان المحكوم عليـــه والمصاب بالصرع والمصاب بالزهري والمشوه : هؤلاء ليسوا كالآخرين . اولئك الذين لا يستطيعون تقبل ... »

اجفل من بكرة سقطت على السطح بصوت مدوٍ . ثم استعـــاد تنفسه واستأنف بمرارة :

« انني شديد التوفز هذا المساء ... لشد ما انا كليل !..

« ان ذكرى مثل هذه الامور باقية . هناك في معظم الاحيـــان رجل في صميم البؤس ... يجب المحافظة على هذا الرجل ، بعد ان يُهزم البؤس ... ان من الصعب ...

« الثورة في نظرهم ، كلهم ، ما هي ؟ اثارة الثورة ـ مع كل اهميتها ! ـ ما هي ! سأقول لك : لا يدرون . لكنها اولاً بسبب البؤس المفرط الموجود ، ليس نقص المال فحسب ، بل ... دائماً ، لأن هناك اشخاصاً أغنياء يعيشون بينما لا يعيش الآخرون ... » .

ازداد صوته صلابة : كان متكئاً بمرفقيه باستقرار الى المترسة التي كانت لا تزال دافئة ، فرافق نهاية جملته بحركة الى الأمام من كتفيه ، كما كان يفعل سواه

لو وجه لكمة بقبضته :

« هنا ، اختلف الأمر ! عندما اراد التجار المتطوعون اعادة الحالة القديمة ، ظل حيهم يحترق ثلاثة ايام. كانت النساء ذوات الاقدام الصغيرة يجرين كالبطارق»

توقف هنيهة ضائع النظرة ، ثم قال :

« وكل هـذا ، متماثل الغباء ابداً ... الاموات ، اموات ميونيخ ، اموات اوديا ... كثيرون آخرون ... دائماً متماثل الكراهة ... »

كان يلفظها « ك ... ك ... ر اهة » بكثير من الاشمئزاز .

« انهم متناثرون هكــــذا ، كالأرانب او كما تراهم في الصور . انه ليس مأساتياً ، كلا ، بل « ك كريها » ... خصوصاً عندما يحملون شواربهم. يتوجب ان يحدث المرء نفسه بقوله : هؤلاء رجال حقيقيون مقتولون ... لكن المرء لا يصدق ... »

وصمت من جديد ، مركزاً جسمه كله على المسندة ، منهـاراً . والبعوض والحشرات آخذة بالتزايد حول اضواء السطح المحجبة . يحدس المرء الاجرف ونهر الظلال الذي لا تنعكس على سطحه غير مصابيحنا الكهربائية ، ملتصقـة بالسفينة ، دون ان يراها . وهنا وهناك ، اخذت بعض الاشكال المرتفعة الآن تلطخ بابهام السماء الداجية : شباك الصيادين الممدودة ، ولعل ...

« كلين !

– ماذا ! (بالألمانية اولاً ثم بالفرنسية) .

– لماذا لا تهجع !

– مرهق من التعب . الطقس حار جداً في الاسفل ... »

اتيت بكرسي هزاز نصبته الى جانبه ، فاستلقى عليه ببطء دون ان ينبس بكلمة ، وأحنى رأسه على كتفه ثم استقر دون حراك وقد استولى عليه النوم او الذهول . كان الجميع نياماً ، باستثناء الضابط المناوب والحراس الهندوكيين وانا ، الصينيون فوق صناديقهم الى الجانب الآخر من الحاجز المشبك والبيض فوق الكراسي الهزازة او في قمراتهم . لم يعـــد يسمع ، اذا ما انخفض صوت

الآلات ، غير النائمين وهم يغطون وصيني عجوز يسعل ويسعل ، وقد استبدت به نوبة سعال لا نهـــاية لها ، لأن الخدم أشعلوا في كل مكان عيدان البخور التي تطرد البعوض .

أويت الى غرفتي . لكن خبال سوء النوم تابعني: صداع واعياء ورعشات.. اغتسلت بمـــاء المغسلة (بشيء من العناء ؛ فالصنابير صغيرة) وأدرت المروحة وفتحت النافذة الصغيرة .

★

جلست فوق فراشي الصغير متفرغاً ، وأخرجت من جيوبي الاوراق التي فيها ، ورقة تلو الاخرى . دعايات لصيدليات استوائية ، رسائل قديمة ، ورق أبيض يزينه علم صغير مثلث الالوان رمز شركة الميساجري ماريتيم ... كل هذا ، مزقته ارباً بعناـاية الثمل ودفعت به عن طريق النافذة الصغيرة الى النهر . وفي جيب اخرى ، رسائل قديمة من ذلك الذي يدعونه غارين ، ما أردت تركها في حقيبتي ، كاجراء احترازي ... وهذه ! انها مجموعة الاوراق التي عهد بهـــا الي مونييه . لنرَ . ان فيهـــا اشياء كثيرة ... ، ولكن ، هاتان ورقتان وضعهما مونييه على حدة في المجموعة نفسها : الاولى صورة عن مذكرة للمخابرات السرية البريطانية « الانتيليجنس » تتعلق بتشينغ ـ داي وعليهـــا ملاحظات رجال مخابراتنا. والثانية واحدة من بطاقات دائرة الأمن في هونغ كونغ وتتعلق بغارين.

وبعـد ان أغلقت الباب بالمفتاح وأحكمت وضع الرتاج ، اخذت من جيب قميصي المغلف الضخم الذي أعطانيه مونييه . كانت الوثيقة التي بحثت عنها هي الاخيرة . انها طويلة ومكتوبة بالرموز الاصطلاحية . وفي أعلى الصفحة الاولى عبارة : تنقل على عجل . اما مفتاح الرموز فكان معها .

رحت اترجم الوثيقـــة يدفعني الفضول وشيء من القلق . ما هو اليوم ، الرجل الذي كنت صديقه طيلة سنين ؟ لم أره منذ خمسة اعوام . ولم يمض يوم خلال هـــذه الرحلة ، دون ان يفرضه على ذاكرتي ، سواء بان يحدثوني عنه أو لأن نشاطه على جانب كبير من الاثر في البرقيـات التي كنا نتلقاها ... رحت

التخيله ، كما شاهدته في مرسيليا ، ابان لقائنا الاول ، ولكن بوجه مؤلف من مجموعة اوجهه المتعاقبة : عينان كبيرتان رماديتان ، قاسيتان مجردتان من الاهداب تقريباً ، وانف دقيق ومنحن قليلاً (كانت امه يهودية) ، وعلى الاخص ، تانك الخدتان الدقيقتان البينتان المحفورتان في خديه ، اللتان تهدلان اطراف شفاهه الرقيقة ، كما يشاهد في الكثير من التماثيل النصفية الرومانية . وليست هذه السمات الحادة والعميقة معاً هي التي تبعث الحياة في ذلك الوجه ، بل الفم ذو الشفتين الصلبتين ، الشفتين المتوترتين المرتبطتين بحركات فكه العريض قليلاً ، الفم الصارم العصبي ...

ان الجمل التي اترجمها وانا على تلك الحالة من التعب، ترتب ذكرياتي فتحتشد على اعقابها . ويهيمن الصوت . ان بي هذه الليلة شيئاً من السكران الذي يتابع حلمه ...

بيير غاران ، ، مدعو غارين أوهارين ، مولود في جنيف في الخامس من تشرين الثاني عام ١٨٩٢ ،من موريس غاران ذي التبعية السويسرية وصوفيا الكسندروفنا ميرسكي ، الروسية ، زوجته .

لقد ولد عام ١٨٩٤ ... هل تراه هرم ؟

فوضوي ممارس ، محكوم لاشتراكه في قضية فوضوية في باريس عام ١٩١٤ .

كلا . لم يكن قط فوضوياً ممارساً . في العام ١٩١٤ ، – في العشرين من عمره – عندما كان لا يزال متأثراً بالدراسات الأدبية التي كان قد فرغ لتوه منها، والتي لم يتبق في نفسه منها غير وحي الكينونات الكبرى المتناقضة (« اي كتاب اجدر بالتدبيج باستثناء المذكرات ؟ ») ، كان غير آبه بالأساليب ، معتزماً اختيار الاسلوب الذي ستفرضه الظروف عليه . كان ما يبحث عنه بين الفوضويين والاشتراكيين المتطرفين ، رغم وفرة عدد مخبري الشرطة لدى

الاولين ، الأمل في حلول حقبة اضطرابات . لقد سمعته مراراً ، بعد عودته من بعض الاجتماعات (حيث كان يذهب – بصفاء قلب – وعلى رأسه قبعة باركلي ذات الحافة الامامية) ، يتحدث بسخرية محتقرة عن الرجال الذين صادفهم منذ حين ، الذين كانوا يزعمون انهم انما يعملون لسعادة الانسانية . « هؤلاء البلهاء يريدون ان يكونوا على حق . ولكن ، وعلى سبيل المصادفة ، هناك حجة واحدة ليست تحريفاً ساخراً لحقيقة : هي ان يستعمل المرء قوته على افضل وسيلة ناجعة » . فالفكرة اذن كانت حينذاك مجرد وهم ، ترتبط بتطور تخيله الذي كان منصرفاً بكليته الى مفهوم العدالة المطلق .

كانوا يظنونه طماعاً على وجه الاجمال . غير ان المطمع الوحيد الحقيقي كان ذاك الذي يتحول لدى من يستبد به الى صورة افعال واجبة الانجاز . كان لا يزال عاجزاً عن اشتهاء الفتوح المتعاقبة والتحضير لها وخلط حياته بها . لم يكن طبعه وكذلك ذكاؤه ، متأهبين لاعداد الخطط المركبة اللازمة . لكنه كان يحس في اعماقه بالحاجة الى القوة ، احساساً دائباً وعنيداً .

قال لي ذات يوم : « لا تصنع الروح الزعيم بقدر ما يصنعه الفتح » . ثم اضاف بسخرية : « لسوء الحظ ! » . وبعد بضعة ايام ، وكان يقرأ المذكرات اليومية حينذاك : « ان الفتح بصورة خاصة هو الذي يبقى على روح الزعيم . لقد بلغ الأمر بنابوليون في منفاه في سانت هيلين ان قال : « على ذلك ، يا لها من رواية ، حياتي ! » ... فالعبقر ايضاً يتعفن ! ..

كان يدرك ان الالهام الذي يحفزه ، ليس ذلك الالهام الذي يلتمع فترة بين كثير من امثاله ، في عقل اليافعين ، طالما كان يدفعه الى اغفال حياته ويجعله يتقبل كل الاخطار التي يفرضها . القوة ، لم يكن يتمنى مالاً ولا اعتباراً ولا احتراما ، لا شيء غير القوة نفسها . فاذا ما حلم بها ، وقد استولت عليه حاجة صبوية الى التخيل ، حلم بشكل حسيّ تقريبا . لا « مشاكل » بعد ، بل لون من التشنج ، من العزيمة المتوترة والترقب . كانت الصورة المضحكة للحيوان

المستجمع نفسه على وشك الانقضاض ، تلازمه وتلاحقه ، فينتهي الى اعتبار ان ممارسة القوة ضرب من الانفراج ، كالانعتاق .

كان يزمع اقتحام المعارك . انه شجاع يعلم ان كل خسارة يحددها الموت الذي لم يكن شبابه الغض يسمح له بان يحفل به الا قليلاً . اما الربح المنتظر، فلم يكن يتصوره بعد على صورة واضحة المعالم . وتدريجياً ، حلت الارادة المشرقة محل آمال الشباب المشوشة ، دون ان تطغى رغم ذلك على طبيعة لا يزال طابعها العنف ، في الرعونة التي تعطيها في سن الواحدة والعشرين ، معرفة المجرد الوحيدة .

لكنه لم يلبث ان احتك بالحياة بصورة خشنة . فذات صباح ، في لوزان ، تلقيت رسالة اطلعني فيها احد الرفاق على ان بيير متهم بقضية اجهاض . وبعد يومين ، تلقيت رسالة منه وجدت فيها بعض التفاصيل .

واذا كانت الدعاية لصالح المالطوسيانية [1] نشيطة في المجتمعات الفوضوية ، فان القابلات اللاتي يوافقن على القيام بعملية اجهاض بدافع من قناعتهن كن قليلات قلة مقترة ، فكان الاتفاق هو الذي يتدخل: كن يقمن بالاجهاض «لخدمة القضية » لكنهن يقتضينك الثمن . ولقد اعطى بيير مرات عديدة مبالغ لم تكن الفتيات الفقيرات وحدهن قادرات على ايجادها بمفردهن ، بدافع وسط بين العقيدة والغرور . كان يتصرف بالثروة التي خلفتها له امه ، الأمر الذي اغفله تقرير الشرطة ، فكان معروفاً انه يكفي ان تلجأ اليه : كانوا يلتمسون عونه في معظم الاحيان . ولقد اوقف عدد من القابلات على اثر اخبار فلوحق بتهمة الاشتراك في الجرم .

---

١) نسبة الى مالطوس ، واسمه الكامل توماس روبير مالطوس ، اقتصادي انجليزي صاحب « بحث في مبدأ السكان » الذي يمثل فيه الزيادة الدائبة للسكان في العالم كخطر على موارد العالم الحياتية ويبشر بالامتناع عن الزواج . (١٧٦٦ - ١٨٣٤) ، والمقصود في النص (خفض الانتاج التلقائي) .

المترجم

كان الذهول اول احساس له ازاء التهمة . لم يكن يجهل عدم شرعية ما يفعل ، لكن الصورة الغريبة لحكم جنائي ينطبق على مثل تلك الافعال ، جعل الدنيا تسودّ في عينيه . لم يكن قادراً من جهة اخرى ، على ان يتصور ما سيكون عليه حكم من هذا النوع . كنت اراه غالباً في ذلك الحين ، اذ اطلقوا سراحه بالكفالة . لم تكن المقابلات التي تجري له مع المتهمات تثير اهتمامه : فهو لم يكن لينكر شيئاً . اما الاستنطاق ، وقد قام به قاض ملتح لامبال ، همه ان يحيل الوقائع الى صورة رمزية قانونية ، فقد بدا له نضالاً مع دمية ذات جدلية سيئة .

وذات يوم قال لذلك القاضي الذي كان قد طرح عليه احد الاسئلة : «وماذا يهم ؟ فأجاب القاضي – ايه ! انه مهم لتطبيق العقوبة ... » ولقد شوشه هذا الجواب . لم تكن فكرة حكم حقيقي وقد ترتبت بعد في ذهنه . لذلك ، وعلى الرغم من شجاعته واحتقـاره لاولئك الذين يقاضونه ، فقد انصرف الى التماس الوساطة معهم لصالحه من كل من استطاع الوصول اليهم : فأن يقامر بحياته على هذه الورقة القذرة المضحكة التي لم يخترها ، أمر بدا له غير محتمل .

ولقد استبقتني المشاغل في لوزان فلم احضر المحاكمات .

كان ، خلال فترة المحاكمات كلها ، يحس بانه ازاء مشهد غير واقعي ، ليس ازاء حلم ، بـل تمثيلية مضحكة « كوميديا » غريبة ، دنيئة نوعاً ، تجري في كوكب آخر . غير ان المسرح وحده ، اضافة الى محكمة الجنايات ، كان قادراً على اعطاء احساس متوافق . أدهشه نص القسم المطلوب اداؤه من قبل المحلفين ، الذي قرأه رئيس المحكمة بصوت معلم المدرسة المتعب ، للوقع الذي أحدثه في نفوس اولئك التجار الاثني عشر الوديعين الذين تأثروا فجأة فبانت على وجوههم الرغبة في ان يكونوا عادلين حقاً وان لا يخطئوا ، فراحوا يعدون انفسهم للحكم بدقة . اما فكرة انهم قد لا يفقهون شيئاً من الوقائع التي سيحكمون عليها ، فانها لم تقلقهم مطلقاً . والثقة التي كان بعض الشهود يدلون بها شهاداتهم والتردد لدى البعض الآخر وموقف الرئيس عندما كان يسأل (كموقف التقني في اجتماع يضم

جهلاء) والعداء الذي كان تنبض به لهجته في حديثه مع بعض من شهود الدفاع ، كل هذه الاشياء كانت تدل بيير على ضعف العلاقة القائمـــة بين الوقائع موضوع القضية وبين هذه الحفلة . ثار انتباهه بادىء الأمر الى الحد الاقصى : كانت طريقة الدفاع تستحوز على لبه . لكنه سرعان ما ملّ ، فكان ، خلال سماع الشهود الاخيرين ، يفكر باسمـاً : « ان تَحكـُم ، هو دون ادنى ريب ، ان لا تفهم ، طالما اننا اذا فهمنا عجزنا عن اصدار الحكم » . ولقد بدت له الجهود التي بذلها الرئيس والمحامي العام لحمل المحلفين على استيعاب مفهوم الجريمة بالعبارة الشائعـة المألوفة لديهم ، وتوالي هذه الاحداث ، جديرة بالتحريف الساخر لدرجة جعلته يضحك فترة ما . لكن العدالة في تلك القاعة كانت على جانب كبير من القوة ، والقضاة ورجال الدرك والجمهور المحتشد كانوا متحدين في احساس واحد لم يترك اي مكان للسخط والحفيظة . فلما نسي بسمته ، عاد بيير ليجد ذلك الاحساس الجارح بالعجز والاشمئزاز والاحتقار الذي يشعر به الانسان امام جمهرة من المتعصبين ، امام كل بوادر الخرق البشري .

كان دوره الثانوي يثيره . خيل اليه انه غدا ممثلاً مدفوعاً بحاجـة ما ، في فاجعة سيكولوجية خاطئة بشكل خارق ، ومقبولة من جمهور أبله . لذلك فقد راح ينتظر نهـاية المسرحية التي ستحرره من هذه السخرية ، بنفاذ صبر ممتزج بخضوع ، متقزز النفس متضجراً وقد فقد حتى الرغبة في ان يقول لهؤلاء الناس انهم مخطئون .

لم تكن سمة هذه المحاكمات تتسلط عليه الا عندما كان يجد نفسه وحيداً في زنزانته (وقد احتجز قبل عشية المحاكمات) . هنا فقط ، كان يدرك ان المسألة متعلقة بحكم وان حريته معرضة للخطر ، وان كل هذه المهزلة قد تنتهي بالحكم عليه لمدة غير محدودة ، ليعيش هذه الحياة المهينة كالسرقة . بات السجن قليـل الأثر فيه بعد ان خبره ، لكن تخيـُّل امضاء وقت طويل على هذا النحو ، مهما كانت الملطفات التي يأمل في ان يضفيها على مصيره ، لم يكن ليمر دون ان يثير

فيه قلقاً تزيد حدته بمقدار زيادة احساسه بالعجز حياله .

« حُكم بالسجن مدة ستة اشهر » .

وردتني برقية من بيير تقول انه منح وقف التنفيذ .

ها هي ذي الرسالة التي بعث بها الي :

« انا لا أرى المجتمع رديئاً او قابلاً للتحسن بل اراه غير معقول . وهذا امر مختلف كل الاختلاف . واذا فعلت كل ما وسعني فعله ليبرئني اولئك المخبولون او لأبقى حراً على الاقل، فما ذلك الا لأن عندي فكرة عن مصيري ـ عن مصيري وليس عن نفسي ـ لا تتقبل السجن من اجل هذا السبب الغريب المضحك .

« مناف للعقل ! ولا اريد مطلقاً ان اقول : مخالف للصواب . أن يحوّل هذا المجتمع ، امر لا يهمني . فليس انعدام العدالة فيه ما يحز في نفسي ، بل شيء أكثر عمقاً ، ألا وهو استحالة رضائي بأي شكل من أشكال المجتمع ، ايا كان ، فانا غير اجتماعي كما انا غير مؤمن « ملحد » وبنفس الشكل . فلو كنت رجل علم لما كان لذلك اية قيمة . لكنني اعرف انني سأجد النظام الاجتماعي الى جانبي طوال حياتي وهو ما لن استطيع قبوله دون ان اتراجع عن كل ذاتي » .

وبعد قليل من الزمن : « هناك نزعة اقوى من النزعات الاخرى ، نزعة تنعدم امامها قيمة الاشياء التي ستكتسب عنوة . نزعة يائسة ـ هي أقوي دعائم القوة » .

« أُرسل الى الفرقة الاجنبية في الجيش الفرنسي في آب ١٩١٤ وفر من الجيش بنهاية العام ١٩١٥ »

خطأ . لم يرسل الى الفرقة الاجنبية بل دخل فيها . بدا له شهود الحرب كمتفرج امراً لا يحتمل . اما سبب الحرب ، السبب البعيد ، فلم يكن ليأبه له . بدا له ان دخول القطعات الألمانية بلجيكا يشهد بالاتجاه الواضح للحرب . واذا كان قد اختار الفرقة الاجنبية ، فللسهولة التي استطاع ان يُقبل فيها فحسب . كان يتوقع المعارك من الحرب : فوجد فيها جمود ملايين الرجال السلبيين ، في

خضم اللجب . لذلك اصبحت النية على ترك الجيش التي ظلت تحتدم زمناً في خاطره ، عزماً وتصميماً ، ذات يوم ، حينما وزعت عليهم اسلحة جديدة لـ «تنظيف» الخنادق. كان رجال الفرقة الاجنبية حتى ذلك الوقت قد تلقوا في حينه خناجر قصيرة اعتُقد حينذاك انها ما تزال تصلح لتكون سلاحاً حربياً . اما ذلك اليوم ، فقد تلقوا سكاكين جديدة ذات مقابض من الخشب الكستنائي ونصالاً عريضة ، تشبه سكاكين المطبخ بكل خسة وهول ...

ولست ادري كيف توصل الى الذهاب والوصول الى سويسرا. لكنه تصرف هذه المرة بكثير من الحكمة حتى ادرج اسمه في قائمة المفقودين . (وهذا ما يجعلني ادهش لعبارة الفرار من الجيش الواردة في البيان الانجليزي . صحيح انه لا يجد اليوم اي سبب لابقاء هروبه طي الكتمان ..)

فقد ثروته في عديد من المضاربات المالية

لقد كان مقامراً أبداً .

أدار في زيوريخ بفضل المامه باللغات الاجنبية داراً تصدر نشرات تدعو الى السلام ، وجد نفسه فيها على اتصال بثوريين روسيين .

كان ، وهو ابن سويسري وروسية ، يتكلم الألمانية والفرنسية والروسية والانجليزية التي تعلمها في الكلية . لم يقم بادارة دار النشر بل مصلحة الترجمة في شركة لم تكن منشوراتها سلمية من حيث المبدأ .

ولقد اتيحت له ـ كما جاء في مذكرة الشرطة ـ فرصة الاختلاط ببعض الشبان من جماعة البولشفيك ، سرعان ما فهم هذه المرة انه ليس امام مبشرين بل تقنيين . لم تكن الجماعة ترحب بأي كان، غير ان ذكرى محاكمته التي لم تكن قد نُسيت بعد في هذا الوسط ، سمحت له بان لا ينظر اليه كمتطفل عليها . ولما لم يكن مرتبطاً بنشاطها (لم يشأ الانضمام للحزب يقيناً منه انه لن يصمد امام الانضباط واعتقاداً بأنه لن تقوم ثورة قريبة) فقد كانت له مع اعضائها علاقات

صداقـة فحسب . كان الشبان يثيرون اهتمامه اكثر من الرؤساء الذين لم يكن يعرف منهم غير خطاباتهم ، تلك الخطابات التي تلقى بلهجة الحديث العادي ، في بعض المقاهي الصغيرة ، العابقة بالدخان ، امام حفنة من الرفاق المسترخين على الموائد ، الذين تعبر وجوههم وحدها عن الانتباه . لم ير لينين قط . واذا كان فن التمرد والميل اليه عند البولشفيك قـد استهوياه ، فان المفردات المذهبية والمعتقد بصورة خاصة ، كانت توغر صدره . والواقع انه كان من اولئك الذين يرون ان الروح الثورية لا تنبع الا من الثورة الناشئة ، اولئك الذين يرون ان الثورة هي قبل كل شيء واقع الامور .

فلما جاءت الثورة الروسية شدّه . غادر رفاقه زيوريخ ، الواحـد تلو الآخر ، واعدينه باعطائه وسائل المجيء الى روسيا . وكان الذهاب اليها في رأيه ضرورة وعدلاً بآن واحد ، لذلك كان يشيع كل مغادر من رفاقه دون رغبة ولكن باحساس مبهم ، احساس المسلوب .

لقد تمنى الارتحال الى روسيا ، تمناه بشغف منذ ثورة تشرين الاول . فكتب مراراً . لكن رؤساء الحزب كانوا منهمكين بمشاغل اخرى غير الرد على رسائل من سويسرا او الاستعانة بالهواة . فكان يتألم لذلك بغيظ حزين . ولقـد كتب الي يقول : « الله يعلم انني شاهدت رجالاً مدنفين ، رجالاً مهووسين بفكرة ، رجالاً متعلقين باطفالهم ، بمالهم ، بخليلاتهم ، بأملهم نفسه ، تعلقهم بأعضائهم ، مسمَّمين ، موسوسين ، ناسين كل شيء ، مدافعين عن موضوع هواهم او جارين وراءه !.. لو قلت انني اريد مليونا لقيـل انني رجل طماع ، ولو قلت مائة مليون لقيل اني خيـالي ، وقد يكون صحيحاً . اما اذا قلت انني اعتبر شبابي كالورقة التي اقامر عليها ، لبدا على الناس انهم ينظرون الى فريسة اوهام بائس . وانني اقامر اليوم ،صدقني، كما يستطيع شخص مسكين ان يقامر في مونت كارلو على اللعبة التي سيقضي على نفسه بعدها ان خسر . ولو استطعت الغش لغششت . وان يكون للمرء قلب رجل ثم ان لا يفطن الى انه يشرح الأمر لامرأة لا تأبه

له ، امر طبيعي : فقد يخطىء المرء هنا بالقدر الذي يُقدّر . ولكن لا يمكن ان ينخدع المرء في مقامرة الحياة . فالأمر يبدو سهلاً . وتحديد فكرة حازمة عن مصير ، أمر أقل حكمة من تحديد فكرة عن متاعبه اليومية وآمـــاله او عن احلامه .. وما أسعى اليه ، سأعرف كيف اوجه بحثي عنه : ان استعيد فقط ثمن الرحلة الاولى الذي بددته بكل غباء !.. » .

« ارسل الى كانتون في نهاية العام ١٩١٨ من قبل الدولية »

غباء . كان قد تعرف في المدرسة العليا على واحد من رفاقي ، لامبير ، اكبر منا سناً ، كان ذووه من الموظفين الفرنسيين ، اصدقاء ذويّ التجار في هايفونغ. ولقد قامت مربية كانتونية بتربية لامبير ، ككل الاولاد الاوروبيين في هـذه المدينة تقريباً ، فكان مثلي يتكلم هذه اللهجة . وفي مطلع عام ١٩١٤ ، عاد الى تونكين . لكنه نفر بسرعة من حياة المستعمرات فمضى الى الصين حيث اصبح واحداً من اعوان سُن ـ يات ـ سن ، ولم يلتحق بقطعته عند اعلان الحرب . وظل دائب الاتصال ببيير بالمراسلة ، فكان يعده منـــذ أمد طويل بان ييسر له سبيل المجيء الى كانتون . وعلى الرغم من ان بيير لم يكن عظيم الاطمئنان لقيمة هذا الوعد ، فانه راح يدرس الأحرف الصينية بشيء من خمود الهمة . وذات يوم من حزيران ١٩١٨ ، تلقى رسالة كتب له لامبير فيها : « اذا كنت معتزماً ترك اوروبا ، ابلغني ذلك . فانني مستطيع ان اجعلهم يستدعونك لقاء ثمانمائة دولار في الشهر » . أجاب على الرسالة فوراً . وفي نهاية تشرين الثاني ، بعد ان وقّعت الهدنة وتلقى رسالة جديدة فيها تحويل على مصرف في مرسيليا بمبلغ يزيد قليلاً على اجرة السفر .

وكنت املك حينذاك بعض المال فرافقته الى مرسيليا .

يوم من الجولان المتكاسل البطيء عبر المدينة . جو منطقـة المتوسط حيث يبدو كل عمل مقبول، وشوارع تنيرها شمس الخريف الشاحبة، تلطخها المعاطف الزرقاء للجنود الذين لم يسرحوا بعد .. لقد تغيرت تقاطيع وجهه قليلاً : ان

آثار الحرب تبدو بصورة خاصة على الخدين اللذين اصبحا الآن ضامرين ممدودين تخددهما غضون صغيرة قائمة تزيد في ألـق العينين الرماديتين القاسي وفي منحنى الفم الدقيق وعمق الخُدُّتين اللتين تمددانه .

لبثنا نمشي فترة طويلة ونتحدث . كان احساس واحد يطغى عليه ، نفـاذ الصبر . وعلى الرغم من ستره فقد كان ينسل الى كل حركاته ويتوضح لاارادياً في وقع كلماته المرتج .

سأل فجأة : « هل تدرك حقاً ما يمكن ان يكون الندم ؟ »

توقفت حائراً .

« ندم حقيقي وليس احساس الكتاب او المسرح : احساس ضد الذات — ضد ذاتك في وقت آخر .

« احساس لا يولد الا من فعل خطير ـ والافعال الخطيرة لا تؤتى عفواً ..

— هذا يتوقف ..

— كلا . بالنسبة لرجل انتهى من تجارب المراهقة ، ان يعـاني من وخز الضمير ، معناه انه لم يعرف كيف يستفيد من تعليم ما .. »

واذ حقق دهشتي فجأة قال :

— « اقول لك ذلك بخصوص الروسيين » .

ذلك اننا كنا قد مررنا لتونا امام واجهة مكتبة مخصصة لروائيين روسيين .

« هناك شائبة فيما كتبوا ، وهذه الشائبة شبيهة بالندم الى حد ما . ان خطيئة هؤلاء الكتاب جميعهم انهم لم يقتلوا احداً . فاذا كان اشخاص رواياتهم يتألمون بعد ان قتلوا فمعنى ذلك ان العالم لم يتغير بالنسبة اليهم تقريبـاً . اقول : تقريباً . اما في الواقع ، فاعتقد انهم سيرون العالم يتحول كلياً ، يبدل آفـاقه ويصبح ليس عالم الرجل الذي « ارتكب جريمة » بـل عالم رجل قتل . ان هذا العالم الذين لا يتبدل، — ولنقل : لا يتبدل بما فيه الكفاية اذا شئت- لا استطيع الاعتقاد بصحته . فليس هناك جريمة بالنسبة لقاتل بل هناك قتل فحسب ، هذا اذا كان مشرق الذهن طبعاً .

– أنها فكرة متناهية الابعاد اذا بسطناها قليلاً ... »

وبعد صمت استأنف قائلاً :

« مهما بلغ الانسان من الافراط في التبرم من ذاته فانه لا يكون بمقدار ما يقول. أن يرتبط الانسان بفعل عظيم ما فلا يتخلى عنه بل يصيبه الهوس فيتسمم به ، قد يعني ... »

لكنه هز كتفيه وترك عبارته دون نهاية .

– « مما يؤسف له انك غير مؤمن ، والا لكنت مبشراً مقبولاً ...

– كلا ! اولاً ، لا تخزيني الاشياء التي اسميها دنايا . انها جزء من الانسان . انا اتقبلها كما اتقبل ان احس بالبرد في الشتاء . لا اريد ان اخضعها لقانون . ثم انني كنت سأصبح مبشراً سيئاً لسبب آخر : هو انني لا احب بني الانسان . بل انني لا احب الفقراء انفسهم ، الشعب ، اولئك الذين سأمضي للقتال من اجلهم ...

– انت تفضلهم على سواهم ، فالأمر سيان .

– أبد الدهر !

– كيف ، أبد الدهر ؟ انت لا تفضلهم ام ان ذلك ليس سواء ؟ ...

– افضلهم . ولكن لانهم المهزومون فحسب . نعم ، ان فيهم اجمالاً حدباً اكبر وانسانية اكثر من الآخرين : وتلك فضائل المهزومين... اما ما هو مؤكد، فان اشمئزازي الحقود على البورجوازية التي انا سليلها . اما الآخرون ، فانني واثق من انهم سيصبحون أدنياء فور ما ننتصر معاً ... ان نضالنا مشترك وهذا اكثر وضوحاً بالطبع ...

– « اذن ، لمَ تذهب ؟ »

كان هو الذي توقف هذه المرة .

– « ترى هل اصبحت غبياً ؟ »

– كان سيدهشني ذلك : لو صرت ما تقول لوضح ذلك .

– انني ارتحل لانني لا ارغب في ان اعود الى مثل ذلك الموقف الاخرق

امام محكمة ، ولسبب جدي هذه المرة . ان حياتي لا تعنيني . هذا واضح، جلي وجازم . اريد – هل تسمع ؟ لوناً معيناً من السلطان : فاما ان احصل عليه واما حيفاً علي .

– حيفاً عليك اذا فشلت .

– اذا فشلت فساعيد الكرة . هنا او في مكان آخر . اما اذا قتلت ، فستنحل المشكلة » .

كانت حوائجه قد نقلت الى السفينة . شددنا على يدينا بقوة ثم مضى الى المقصف حيث راح يقرأ منفرداً ، دون ان يوفق في حمل النادل على خدمته. وعلى رصيف الميناء ، بعض المتسولات الايطاليات الشابات يغنين ، فظلت اغنياتهن ترافقني بينما كنت ابتعد ، مع رائحة البرنيق من السفينة الحديثة الطلاء .

استخدمه سن ـ يات – سن بصفة « مستشار قضائي » بمرتب قدره ثمانمائة دولار شهرياً ، وكلفه ، بعد رفضنا تقديم التقنيين لحكومة كانتون ، باعادة تنظيم الدعاية وادارتها (وهو مركزه الحالي) .

عندما وصل الى كانتون ، علم في الواقع بسرور بالغ انه سيتقاضى ثمانمائة دولار مكسيكي كل شهر . لكنه فهم بعد ثلاثة اشهر ، ان دفع مرتبات المدنيين والعسكريين التابعين لحكومة سن – يات – سن ، امر غير مضمون : فكان كل انسان يعيش من اختلاس اموال الدولة أو من « التطبيقات ». واذ أعطى عدداً من بطاقات عملاء الدعاية السريين لعدد من مستوردي الافيون ، الأمر الذي جعلهم في منجاة من مضايقات مختلف دوائر الشرطة ، ربح في غضون سبعة اشهر ما يقرب من مائة الف فرنك ذهبا ، مما اتاح له صيانة نفسه ضد كل صعوبة مالية غير منتظرة . وبعد ثلاثة اشهر ، غادر لامبير كانتون تاركاً له ادارة الدعاية التي لم تكن حينذاك اكثر من معالم مشوشة .

ولما لم يعد يمضّه تذبذب مركزه الذي اصبح متيناً، فقد اراد بيير ان يطور الدعاية ليجعل من هذا المكتب الشبيه بالمسرحية الهزلية سلاحاً ماضياً . اقام

رقابة صارمة على الاموال المودعة في عهدته وطالب مرؤوسيه بالولاء والأمانة : مما اضطره الى استبدال غيرهم بهم . لكن الموظفين الجدد ، رغم وعود سن – يات – سن الذي كان يتابع مجهوده برغبة متلهفة ، لم يتلقوا اجورهم، مما اضطر بيير الى الانصراف كل يوم ، وطيلة اشهر ، الى ايجاد الوسائل التي تؤمن دفـــع مرتبات موظفيه . ولقد الحق الشرطة السياسية بمديرية الدعاية، بذلك حصل على الاشراف على الشرطات المدنية والسرية . ولقد استطاع ، برغم المراسيم وبكثير من الاستهانة بها ، ان يضمن بقاء دائرة الدعاية عن طريـــق الرسوم السرية التي فرضها على مستوردي الافيون واصحاب دور الميسر والدعارة . لهـذا السبب جاء في مذكرة الشرطة عنه :

شخص نشيط ولكن لااخلاقي .

(تعجبني الاخلاقية) .

عرف كيف ينتقي مساعدين ماهرين ، جميعهم في خدمة الدولية .

لكن الحقيقة اكثر تعقيداً . ذلك انه اذ علم ان الاداة التي طالما حلم بها ، باتت تتكون بين يديه ، فقد بذل جهوداً جبارة ليصونها من الانهيار . لم يكن ليجهل ان سُن ، رغم مجاملته ، لن يتردد في هجره اذا اقتضى الحال، لذلك فقد عمل بأقل ما يمكن من العنف ، ولكن باصرار وعنـاد . أحاط نفسه بعدد من شباب الكيومنتانغ ، غير حاذقين ولكن متعصبين ، توصل الى تثقيفهم،يساعده في ذلك عدد دائم التزايد من العملاء الروسيين الذين طردتهم الفاقة من سيبيريا او من الصين الشمالية . وقبل لقاء ُسن ـ يات ـ سن وبورودين في شنغهاي،كانت دولية موسكو قد استشفت افكار بيير مذكرة اياه بمداولات زيوريخ ،فوجدته عازماً مصمماً على خدمتها : فهي وحدها كانت في رأيه تملك الوسائل اللازمـة لاعطاء اقليم كانتون التنظيم الثوري الذي يتمناه ، ولاحلال الارادة الثابتة محل الميوعات الصينية . لذلك فقـــد استخدم نفوذه القليل لدى سن ـ يات ـ سن ليقربه من روسيا فوجد نفسه بذلك مساعد بورودين بشكل طبيعي للغـاية ، عندما انتقل هذا الى كانتون .

وخلال الاشهر الاولى التي أعقبت وصول بورودين ، فهمت من لهجة رسائل بيير ان عملاً جباراً كان ـ اخيراً ـ في طور الاعداد ، ثم أصبحت رسائله اكثر ندرة حتى انني علمت بمزيد من الدهشة ان« حكومة كانتون الصغيرة المضحكة» دخلت في صراع مع انجلترا وانها تحلم في اعادة تكوين وحدة الصين .

وعندما أتاح لي بيير بعد افلاسي ، امكانية المجيء الى كانتون ، كما أتاحها له لامبير قبل ست سنوات ، ما كنت اعرف صراع هونغ كونغ ضد كانتون الا عن طريق برقيات الشرق الاقصى . وكانت التعليمات الاولى هي التي تلقيتها في سيلان عن طريق مندوب الكيومنتانغ في كولومبو خلال فترة توقف السفينة للتموين . كان المطر ينهمر كما تنهمر الامطار الاستوائية ، وبينما كنت اصغي الى الكانتوني العجوز ، كانت السيارة التي تقلنا تمضي تحت غيوم منخفضة وزجاجها الامامي الغائم ، يصدم عابراً باصطفـــاق السعوف السائحة . كان علي ان ابذل جهداً لاقنع نفسي بان الاقوال التي اسمعهـــا تعبر عن حقائق ونضالات وقتلى وقلق.. وعندما عدت الى السفينة، الى المقصف، وانا ما زلت مندهشاً من اقوال الصيني ، استبد بي الفضول لاعادة قراءة رسائل بيير الاخيرة ، وقد اخذ دوره كرئيس يصبح حقيقة بالنسبة الي . وهـــذه الرسائل التي هي هنا فوق سريري مفتوحة ، تدخل الآن الى هـــذه القمرة البيضاء ، الى جانب صورة صديقي المشوشة ، عدداً كبيراً من الذكريات الواضحة او المفككة ، محيطاً يدقه مطر مدرار ويحف به خط طويل من نجود سيلان المرتفعة التي تعلوها الغيوم الساكنة المائلة الى السواد ..

« انت تعلم مقدار ما أتمنى ان تأتي. ولكن لا تأت وفيك الظن بأنك واجد هنا الحياة التي ترضي الامـل الذي كنت اغذيه عندما غادرتك . ان القوة التي حلمت بها والتي املكها اليوم ، لا يُحصل عليهـــا الا بالدأب الخشن والنشاط المواظب ، بالارادة الدائمة ان نضيف الى ما في ايدينا ، الرجل او العنصر الذي

ينقصنا . ولعلك ستدهش اذ تراني اكتب لك على هذا النحو، انا، ان هذا الدأب الذي كان ينقصني ، وجدته هنا لدى مساعديّ واعتقد انني اكتسبته . ان قوتي ناجمة عن الاغفال الكامل لأي تردد وجداني ، وقد وضعته في خدمة اي شيء غير مصلحتي المباشرة .. » .

ولقد شهدت كل يوم ، وانا اقترب من كانتون ، البرقيات التي تعلَن ، والتي استعاض بها عن رسائله على خير وجه ..

ان مذكرة الشرطة هذه ناقصة بشكل غريب. وانني ارى في أسفل الصفحة اشارتي تعجب كبيرتين بالقلم الازرق. ترى هل هي مذكرة قديمة ؟ ان الايضاحات التي تقدمها الورقة الثانية من نوع آخر مختلف كل الاختلاف :

« يؤمن اليوم وجود الدعاية عن طريق المبالغ التي يحتزئها من مجموع ما يرسله صينيو المستعمرات ومن حصص النقابات. يبدو كبير الاثر في الحماس الذي لا ينكر، الذي تلقاه هنا فكرة الحرب ضد القطعات التي منحناها دعمنا . توصل الى جعل النقابات الزامية ، مستعيناً بتبشير لا يكل ينشره عملاؤه ، وذلك عندما طلب بورودين تشكيل نقابات قبل ان يحصل على فصائل الاضراب ، وهي تشكيلات لا ارى لزوماً للتأكيد بأهميتها . جعل من ادارات الشرطة العامة والسرية السبع ادارات للدعاية بنفس الوقت . أوجد « تشكيلاً للتعليم السياسي » ، هو مدرسة من الخطباء والدعائيين . ألحق بالمكتب السياسي وبالتالي بالدولية ، مفوضية العدل (وهنا ايضاً لا ضرورة للالحاف) ومفوضية المالية . واخيراً أصر على النقطة التالية : انه يبذل الجهد الآن ليعلن رسمياً المرسوم الذي جعلنا مشروعه وحده ، نطالب بالتدخل العسكري للمملكة المتحدة ، ألا وهو المرسوم الذي يحرم دخول مرفأ كانتون على كل سفينة تتوقف في مرفأ هونغ ـ كونغ ، وهو المرسوم الذي قيل عنه بجدارة انه سيدمر هونغ ـ كونغ بمثل ما يدمر السرطان الجسد . ان هذه الجملة معلنة في عديد من مكاتب الدعاية .

وتحت هذه العبارة ، ثلاثة اسطر بالقلم الاحمر مرّ القلم على كل منهـــا مرتين .

« وانني اسمح لنفسي بأن الفت انتباهكم بصورة خاصة الى ان هـذا الرجل مريض مرضاً خطيراً . ولسوف يرغم على مغادرة المنطقة الاستوائية عما قريب » .

اشك فيَ صحة ذلك .

٢

القدرات

تموز

صيحات ونداءات واحتجاجات وأوامر رجال الشرطة، ان ضوضاء الامس مساء تستأنف من جديد ، لكنها هذه المرة ضوضاء النزول من السفينة . لا يكاد أحد ينظر الى شامين ذات البيوت الصغيرة المحاطة بالاشجار . انهم ينظرون جميعاً الى الجسر المجاور الذي تحميه الخنادق والاسلاك الشائكة وبصورة خاصة الى سفن المدفعية الانجليزية والفرنسية القريبة جداً والتي تتجه مدافعها نحو كانتون . كان بانتظارنا ، كلين وانا ، زورق بخاري .

ها هي ذي الصين العجوز، الصين التي لا أوروبي فيها . اخذ الزورق يتقدم فوق مياه مصفرة محملة بالغضار ، كما لو كان يمخر قناة ، بين صفين متراصين من مراكب النقل الشراعية الصينية الصغيرة ، شبيهة بزوارق الجندول ، قبيحة بغمائمها المصنوع من الخيزران . والى الامام ، نساء كلهن مسنات تقريباً ، يطهين على حاملات مثلثة القوائم ، في عبق رائحة حادة من الدهن المحروق ، ووراءهن في معظم الاحيان ، يظهر قط أو قفص او قرد مكبل . والاطفال عراة وصفر ،

ينتقلون من مركب الى آخر ، نافضين هدب شعورهم الفريدة التي تشبه منفضة ريش مسطحة ، اكثر خفة وحيوية من القطط رغم بطونهم المكورة كالأجاص ، بطون اكلة الأرز . اما صغار الصغار فنائمون، في صرر من القماش الاسود معلقة الى ظهور الامهات . ويلعب ضياء الشمس الكاوية حول ذرى المراكب فيفصل في اعماقها بشدة البقع الزرقاء : الدراريع والسراويل النسائية عن الاطفال المتسلقين فوق السقوف ، البقع الصفراء . وعلى الرصيف ، المنظر الجانبي المسنن للبيوت الامريكية والبيوت الصينية ، ومن فوقها سماء لا لون لها من شدة الضياء ، وفي كل مكان ، فوق المراكب والبيوت والماء ، هذا الضياء نفسه الذي نتوغل فيه وكأنه ضباب متوهج ، الخفيف كالزبد .

بلغنا الرصيف . لم تلبث السيارة التي كانت تنتظرنا أن مضت بنا بسرعة كبيرة . كان السائق الذي يرتدي بزة الجيش ، دائم الاستعمال لجهاز التنبيه والجمهور ينكمش بتهافت وكأنه مدفوع بكاسحة ثلوج . لم يتح لي اكثر من استشفاف حشد ازرق وأبيض بخط عمودي مع اتجاه سيرنا ـ كثير من الرجال في جلابيب ـ تؤطره ابعاد من الستر المزينة بأحرف ضخمة سوداء ، يخرقه دائماً باعة متجولون وعمال عاديون يسيرون بخطى سريعة، واجسادهم منعطفة واكتافهم محنية تحت عود من الخيزران تتدلى الى طرفيه احمال ثقيلة . وبعد حين ، ظهرت الشوارع الضيقة ذات البلاط المصدع الذي تنتهي بالحشائش امام بناء محصن ذي زوايا او هيكل متداع ، عفن . ولقد ميزنا سيارة احد كبار موظفي الجمهورية تمر بنا بسرعة الريح، وعلى مرقاتيها جنديان، في يد كل منهما مسدسه البارابيللوم.

واذ تركنا حي المدينة التجاري ، دخلت السيارة شارعاً مشجر الجوانب على غرار شوارع المناطق الاستوائية ، على جانبيه بيوت تحيط بها الحدائق ، خالياً من المتنزهين ، لا يلطخ فيها وهج احديداب ارض الشارع ، الكامد المحرق ، الضارب الى البياض غير سدف بائع حساء لم يلبث ان اختفى في زقاق جانبي . تركني كلين ، وكان يقصد مقر بورودين، امام بيت مشيد على طراز المستعمرات،

ـ يظلل السقف الشرفات ـ يحيط به سياج من الحديد يشبه الاسيجة التي تزين بيوت الاصطياف المقامة في جوار باريس : بيت غارين .كان البـــاب الحديدي مدفوعاً ، فاجتزت حديقة صغيرة بلغت منها باباً آخر يحرسه جنديان كانتونيان يرتديان بزات من القماش الرمادي . اخذ احدهما بطاقتي واختفى فانتظرت وانا انظر الى الآخر بقبعته المسطحة ذات الحافة الامامية ومسدسه البارابيللوم الى نطاقه ، مذكراً بضباط القيصر . لكن قبعته كانت منبوذة الى مؤخرة رأسه وكان يحتذي أحذية خفيفة من قماش وحبال . وعاد الآخر ، ومعه الاذن بالصعود .

سلم صغير يؤدي الى طبقة وحيدة ، ثم حجرة واسعة جداً تتصل بباب مع حجرة اخرى كان بعض الرجال فيها يتحدثون بصوت مرتفع . ان هـذا الجزء من المدينة ساكن جداً فلا يكاد ُيسمع احياناً وراء اشجار النخيل البـاسقة التي تملأ سعفها النافذتين ، غير ابواق السيارات البعيدة . ولم يكن يحجب الباب غير ستار من الحصير فاستطعت تمييز الكلمات الانجليزية الصادرة من الغرفة الثانية . اشار الجندي الى الحصيرة بيده ومضى .

« ... ان يتنظم جيش تشينغ ـ تيونغ ـ مينغ ... »

واستمر رجل من الجانب الآخر للستار يتحدث في غير وضوح ..

« انا اقول ذلك منـذ اكثر من شهر ! ومن جهة اخرى ، ان بورو مصمم مثل عزمي . ان المرسوم وحده ، هل تسمع ، (انه صوت غارين الآن، واصداء قبضة تطرق المائدة ، تبرز هذه الكلمات) ، المرسوم وحده سيسمح لنا بتدمير هونغ ـ كونغ ! يجب ان تتخذ هذه الحكومة اللعينة قرارها بالانخراط ..

ـ ...

ـ شبح أو لا ، لتمش طالما اننا بحاجة اليها !

ـ ...

ـ هم ، هنا ، سوف يفكرون : انهم يعرفون كما أعرف تماماً ان هذا المرسوم سيقضي على مرفئهم كالـ .. »

جلبة خطى . اشخاص يدخلون ويخرجون .

« ماذا تقترح اللجان ؟ »

هناك من يحرك صفحات من الورق .

« ليس بالشيء المذكور .. (انه صوت جديد يتكلم) . حتى ان معظمها لا تقترح شيئاً ـ بالفعل . هاتان اثنتان تطلبان زيادة معونات الاضراب والابقاء على المنح المقررة لصغار الكادحين . وهذه تقترح اعدام العمال الاوائل الذين عادوا الى العمل ..

– كلا . ليس بعد .

– لم لا ؟ (صوت صيني وفيه رنة عداء) .

– لا يستعمل الموت كما تستعمل المكنسة ! »

لو ان بعضهم خرج في تلك اللحظة ، لبدوت أشبه بجاسوس . مع ذلك ، فانني لا استطيع ان أتمخط مثلاً او ان اصفر ! لندفع الحصيرة اذن ولندخل .

كان غارين في ثوب من الكاكي يرتديه الضباط يتحلق حول مكتب مع ثلاثة من الصينيين بسترات بيضاء . وبينما كان يجري التعارف غمغم احد الصينيين :

« هناك اشخاص يخافون من تلويث ايديهم بلمس المكانس ..

– كان كثير من الناس يجدون « لينين » قليل الثورية .

بذلك أجاب غارين وقد التفت نحو المتكلم بعنف ويده ما تزال فوق كتفي. ثم خاطبني قائلاً :

– (لم تجدد شبابك ..) هل جئت من هونغ ـ كونغ ؟ وحتى دون ان تنتظر جوابي ، لقد رأيت مونييه ، نعم . هل معك الاوراق ؟ »

انها في جيبي فأعطيتها له . وفي الوقت ذاته دخل احد الموظفين حاملاً مغلفاً منتفخاً ، ناوله غارين الى احد الصينيين الذي أوجز قائلاً :

« تقرير فصيلة كوالا لامبور . انها تلفت انتباهنا الى المصاعب التي تلاقيها في جمع الاموال .

سألني غارين :

– وفي الهند الصينية الفرنسية ؟

– انني احمل لكم ستة آلاف دولار جمعها جيرار . هو يقول ان الامور على خير ما يرام .

– حسناً ، تعال » .

أخذ بذراعي ثم أمسك بخوذته وخرجنا .

« سنذهب عند بورودين : ان المكان قريب » .

مشينا على طول الشارع المشجر ذي الارصفة من الحشائش الضاربة الى الحمرة ، الصامت المقفر . كانت الشمس تلبس الغبار الابيض بضياء فائض برغم على اغماض العينين تقريباً . سألني غارين عن سفري بسرعة ثم قرأ وهو يمشي تقرير مونييه ، وقد راح يميل الاوراق ليخفف من انعكاس الضوء . لقد شاخ قليلاً . لكن كل قسمة من قسماته تحت بطانة الخوذة الخضراء ، كانت تحمل طابع المرض : فالعينان تحيط بهما الدوائر المزرقة حتى منتصف الوجنتين ، والانف ازداد دقة . اما الخدتان اللتان تصلان بين ارنبة الانف ومواصل الشفتين فلم تعودا خدتي الامس العميقتين الواضحتين بل اصبحتا عريضتين أشبه بالثنيات بينما كان في كل عضلاته شيء يجمع بين المحموم والرخو، والشديد الاعياء معاً حتى انه اذا ما استثير ، توترت كلها وتغير تعبير وجهه تغيراً كلياً . وحول هذه الرأس التي تتقدم والعينان شاخصتان الى الورق ، كان الهواء ، كما هي العادة في مثل هذه الساعة ابداً، يرتعد امام الخضرة الكثيفة التي تتفرع منها سعف مغبرة . اردت ان اكلمه عن صحته ، لكنه أنهى قراءته وقال وهو يضغط التقرير الذي حوله الى ما يشبه الاسطوانة ، على ذقنه :

« اخذت الامور تسير سيراً رديئاً هناك ايضاً . ان روح الانصار أقل طيبة من ذي قبل وبعض الخدم يعودون الى مراقدهم . وهنا يجب الركون الى الشبان البلهاء الذين يخلطون بين العمل الثوري والحكم الثالث من الإلغاز الصيني ...

ـ يستحيل رصد اموال اكثر لمساعدات الاضراب، يستحيل ! ثم ان ذلك لن

يغير شيئاً من جهة اخرى . ان الاضرابات المريضة تعالج بالانتصارات .

– ألا يقترح مونييه شيئاً ؟

– هو يقول ان الروح العامة لم تصبح بعد رديئة : فالضعفاء ينهارون لأن انجلترا تهددهم عن طريق الشرطة السرية . ومن جهة اخرى ، انه يبلغنا « ان لجاننا الصينية هناك تقترح اختطاف مائتين او ثلاثمائة طفل من أبناء المذنبين والمشبوهين ، وان ينقل هؤلاء الاطفال الى هنا فنعاملهم معاملة جيدة ، لكننا لا نرجعهم الا الى ذويهم الذين يأتون الينا سعياًوراءهم. ومن الواضح انهم لن يعودوا الى هونغ – كونغ في الغد. وهو يضيف قوله : ان هذه الفترة هي على وجه الدقة فترة الاصطياف . سيحمل هذا الآخرين على التفكير . لن تقودنا بعيداً اجراءات من هذا النوع .. »

وصلنا . البيت شبيه ببيت غارين ، لكنه اصغر . وفي اللحظة التي هممنا فيها بالدخول ، توقف غارين وحيا تحية عسكرية شيخاً صينياً قصير القامة كان يخرج في تلك اللحظة ، فمد هذا يده نحونا فتقدمنا منه .

قال ببطء باللغة الفرنسية وبصوت ضعيف : « يا سيد غارين ، كنت هنا مستهدفاً مقابلتك . اعتقد ان مداولة بيننا تكون شيئاً حسناً . متى استطيع لقاءك ؟

– عندما يطيب لك يا سيد تشينغ داي . سأحضر اليك هذه ..

فأجاب وهو يقرع الهواء بيده وكأنه يريد تهدئة غارين :

– كلا ، كلا . سآمر ، سآمر . الساعة الخامسة ، هل يعجبك هذا ؟

– موافق ، سوف أنتظرك » .

ما ان سمعت هذا الاسم تلفظه الشفاه حتى نظرت اليه بعناية. كان وجهه ، كوجوه العديد من المثقفين الشيوخ ، يذكّر المرء برأس ميت ، وذلك بسبب بروز وجنتيه الذي لا يدع شيئاً واضحاً من وجهه غير بقعتين عميقتين داكنتين لمحجريه وأنف لا يكاد يلحظ والاسنان ، وخصوصاً اذا نظرنا الى هـذا الوجه عن بعد . اما عن قرب ، فان عينيه الممتدتين محتدمتان : اذ ان بسمته مرتبطة

بدمائة اقواله المفرطة وامتياز صوته ، وهذا كله يخفف من بشاعته ويبدل من طابعه . أدخل يديه في كميه كما يفعل الحبر ورافق كلماته بحركات خفيفة من كتفيه الى الامام . فكرت لحظة في كلين الذي يعبر هو الآخر عن مكنون نفسه بكل جسده ، فبدا لي تشينغ داي هذا اكثر رقة ايضاً واكبر سناً ، وأنفذ بصيرة . كان مرتدياً سروالاً ودراعة عسكرية ذات ياقة منشاة من الكتان الابيض شأن كل رؤساء الكيومنتانغ تقريباً . اما مقعده ذو العجلات — وهو يملك مقعداً خاصاً أسود اللون — فكان ينتظره . مضى اليه بخطى صغيرة فحمله المنطلق به بعدْو ٍ بطيء متعقل ، بينما كان هو ، غارقاً في مقعده ، يهز رأسه بخطورة وكأنه يزين الحجج التي يبسطها لنفسه بسكون ..

وبعد ان تبعناه بأبصارنا فترة ، دخلنا دون ان نعلن عن مقدمنا ، فاجتزنا الموظفين وعبرنا ردهة فارغة التقينا بعدها بحارس في زي من الكاكي تزينه ضفائر برتقالية اللون . (ترى هل كان ذلك دليل امتياز ؟) وامامنا لم تكن حصيرة هذه المرة بل كان باباً مغلقاً .

سأل غارين الحارس : « أهو وحده ؟ »

فأحنى الرجل رأسه ايجاباً . طرقنا الباب ودخلنا . ان حجرة المكتب واسعة ، تقسم الجدار الكلسي المائل الى الزرقة الى قسمين ، لوحة بالحجم الطبيعي لسن — يات — سن طولها متران . ومن وراء مكتب تغطيه الاوراق من كل نوع ، وقد رصفت بعناية وفصل بعضها عن البعض الآخر. كان بورودين ينظر الينا طارفاً بعينيه وهو في موضعه بعكس وجهة النور وقد بدت عليه دهشة قليلة (سببها وجودي ولا ريب) . نهض وتقدم نحونا ممدود اليد ، محدودب الظهر. عندئذ ميزت وجهه بالاجمال تحت شعره الكث المتماوج المرجل الى خلف الذي ما كنت ارى سواه عندما كان في موضعه منحنياً فوق مكتبه . ان له طابع الوحش الذكي الذي يسبغه عليه مجموع الشاربين المنحنيين والوجنتين البارزتين والعينين المكبوحتين . عله يكون في الاربعين .

كان موقفه طيلة الحديث الذي دار مع غارين عسكرياً بعض الشيء .قدمني غارين وأوجز بالروسية تقرير مونييه الذي تركه فوق المكتب ، فأخذ بورودين التقرير وصنفه على الفور ضمن رزمة من التقـــارير تعلوها لوحة اخرى محفورة لسن ـ يات ـ سن . بدا مهتماً على الاخص بتفصيل معين سجله وهو يفوه ببعض الكلمات . ثم راح الاثنان يتناقشان ، بالروسية دائماً ، بلهجة انفعال قلق .

وعدنا الى بيت غارين لتناول الطعام فكان يمشي خافض البصر مكتئباً .

« ـ أهناك ما لا يسر ؟

ـ اوه ! لقد الفت هذا ... »

امام بيته كان احد السعاة ينتظره ، فسلمه تقريراً أخـذ يقرأه وهو يرتقي درجات السلم ، ثم وقعه على طاولة من الخيزران في الشرفـــة وأعاده ، فمضى الساعي عدواً . ازداد قلق غارين ، فسألته من جديد متردداً :

« واذن ؟

ـ واذن .. اذن هذا » .

كانت اللهجة بليغة في الرد .

« هل الامور سيئة ؟

ـ بما فيه الكفاية . ان الاضرابات شيء جميل جداً لكنها لا تكفي . والآن يتوجب شيء آخر . يتوجب شيء آخر هو تطبيق المرسوم الذي يحرم على السفن الصينية الاقتراب من هونغ ـ كونغ وكذلك كل السفن الاجنبية التي تريد القاء مراسيها في كانتون . ان هذا المرسوم موقع منذ اكثر من شهر ، لكنه لم يعلن رسمياً . ان الانجليز يعلمون بان الاضراب لا يمكن ان يستمر الى الابـد ، وهم يتساءلون عما ننوي فعله . هل يعتمدون كثيراً على حملة تشينغ ـ تيونغ ـ مينغ؟ انهم يقدمون له الاسلحة والمدربين والمال .. عندما وقع هذا المرسوم ، أصابهم ذعر ، جماعة هونغ ـ كونغ ، بلغ من درجته انهم أبرقوا الى لندن باسم كل الهيئات النظامية ، طالبين التدخل المسلح . لكن المرسوم ظل في احد الادراج.

أنني اعرف ان تطبيقه يبرر الحرب . وماذا بعد ؟ انهم لن يستطيعوا الشروع بها ، هذه الحرب ! وستصبح هونغ كونغ اخيراً . . »

وبقبضة يده ، قام بحركة من يشد البرغي .

« اننا اذ نسحب من هونغ كونغ زبن الشركات الكانتونية وحدها ، نخفض عائدات المرفأ بمقدار الثلثين . الخراب .

– حسناً ؟

– ماذا حسناً ؟

– نعم ، ماذا تنتظرون ؟

– تشينغ داي . فلسنا الحكومة بعد . ان فعلاً من هذا النوع سيفشل اذا اعتزم هذا المخبول الهرم ان يفشله » .

اخذ يفكر .

« ان المرء ليكون نصف مطلع حتى ولو كان حسن الاستعلام . وددت ان اعرف ـ ان اعرف ـ عما اذا لم يكن له دخل فعلاً في كل ما يهيئه تانغ لنا مع الخنازير من المرتبة الثانية . .

– تانغ ؟

– انه جنرال ككثير من اشباهه . ان تانغ عديم الاهمية . انه يهيء انقلاباً : فهو يريد اعدامنا . هذا شأنه . اما هو ، فانه للصدفة لا قيمة له . انه مجرد حدث عرضي ضروري سيقع . اما ما يهم ، فهو من سنجد خلفه . انجلترا قبل كل شيء ، كما لا بد ان يكون . ان الصناديق الانجليزية في هذه اللحظة تفتح على رحبها امام كل الذين يزعمون الرغبة في دحرنا . فلا بد وان يكون قد تقاضى ثمناً طيباً عن كل رجل في ألويته . (وهونغ كونغ ـ وللأسف ـ ليست بعيدة ، الامر الذي سيسمح لتانغ وللآخرين بالانسحاب الى مكان امين عندما سيدحرون) وهناك ايضاً تشينغ داي ، « تشينغ داي الشريف » الذي رأيته منذ حين . انا واثق من ان تانغ ، اذا انتصر ، ـ ولن ينتصر ـ سيمنحه السلطة ، وان كان سيحكم باسمه . يمكن وضع تشينغ داي مكان لجنة السبعة ولا يمكن وضع

سواه ، فالجمعيات العامة والسرية ستقبل به ، هذا مؤكد . ولسوف يستعيض عن عملنا « بنداءات جميلة الى شعوب العالم » كذلك النداء الذي وجهه منذ حين والذي أجاب عليه غاندي وراسل. ما أجمله، عصر الورق! انني اتخيل المسألة من مكاني : تهاني ، خطب فخمة ومفخمة ، عودة السلع الانجليزية، رجال انجليز على رصيف الميناء يدخنون السيجار ، تدمير كل ما عملناه . ان هـذه المدن الصينية كلها رخوة ك «المدوسة» ، الحيوان البحري عادم الفقرات . اما الهيكل العظمي هنا ، فنحن . ولكن ، لكم من الوقت ؟ »

في اللحظة التي هممنا فيها بالجلوس الى المائدة ، وصل ساع جديد يحمل رسالة فض غارين الغلاف مستعملاً سكين المائدة ثم جلس امام طبقه وراح يقرأ .

« حسناً ، لا بأس . »

وذهب الحاجب .

« ان عدد الاوغاد الذين يمكن ايجادهم حول تشينغ داي لا يصدق العقل . امس الاول ، اقام الاشخاص الذين يتحدثون باسمه اجتماعاً عامـــاً في مـا يشبه الساحة ، قريباً من النهر . ولقد حضر الحفل ، وقوراً ومتعباً كما شاهدته منـــذ حين ، لا ليتكلم بالطبع . وياليتك كنت ، اذن لرأيت الخطباء الصارخـــين ، يعتلون الموائد ، فوق حشد مربع من الرؤوس الخامدة الحماس ، على خلفية مـن الصفائح الحديدية المموجة ومن قرون الاصنام وقطع التوتياء الملتوية . وحـوله ، على بعد قليل ، ليس بالكثير ، حلقة كبرى موقرة . ولقد هوجم من قبل بعض عناصر السوء . لكنه كان يصطحب عـــدداً من الاقوياء الاشداء دافعوا عنه . ولقد أوقف رئيس الشرطة على الفور المهاجمين والمدافعين . واليوم ، طلب المدافع الرئيسي عنه ـ وهذه افادته التي امامي ـ بمركز في الشرطة نفسها ، طلب هذا من المفتش الذي استجوبه. هذا جميل ، الايمان! اما الورقة الثانية فها هي ذي . . »

ومد يده بها الي. كانت نسخة من قائمة أعدها الجنرال تانغ: غارين، بورودين، نيكولاييف ، هونغ ، واسماء صينية : لاعدامهم قبل كل شيء .

تحدثنا عن تشينغ داي طيلة فترة الطعام ، لم يكن غارين يفكر في سواه . الخصم .

قال سن يات سن قبل ان يموت : « ان كلمة بورودين هي كلمتي » . لكن كلمة تشينغ داي ايضاً كلمته ، ولم يكن من الضروري ان يصرح بذلك .

لقد بدأ حياته العامة في الهند الصينية . ترى ماذا ذهب يعمل في شولون ؟ لم يكن في مدينة الارز من شيء يفتن هذا المثقف .. لقد كان هناك احد منظمي الكيومنتانغ ، بل وأفضل من منظم ، منعش. وكلما كانت حكومة الكوشنشين تتدخل ضد احد اعضاء الحزب ، سواء بتحريض من احد اثرياء المحتكرين او بدافع ذاتي من جانبها ، كان تشينغ داي يظهر ، ليقدم العمل او المال لأولئك الذين تعمل الحكومة او الشرطة على املاقهم وليسهل للمنفيين سبل العودة الى الصين مع أسرهم بعد ان يصرف لهم المبالغ اللازمة . ولما وجد اعضاء الحزب ان ابواب المشافي توصد في وجوههم ، توصل الى ايجاد مستشفى جديد .

كان حينذاك رئيس فصيلة شولون. ولما استحال عليه جمع المبالغ اللازمة عن طريق التبرعات ، لجأ الى المصارف الصينية التي رفضت منحه اي قرض. عندئذ قدم املاكه في هونغ كونغ ضمانة ـ وهي ثلثا ثروته ـ فقبلت المصارف وشرع في بناء المستشفى . وبعد ثلاثة اشهر ، وعلى اثر مناورة انتخابية ، سحبت منه رئاسة الحزب وفي الوقت ذاته أعلمه المتعهدون ان بعض التعديلات التي أدخلت على التصميم ترغمهم على زيادة السعر المقرر . ورفضت المصارف تقديم قروض جديدة ، اضف الى ذلك انها تلقت تهديدات من حكومة الكوشنشين التي كانت قادرة على نفي مدرائها خلال اربع وعشرين ساعة . لذلك فقد راحت تثير في وجهه المصاعب والعقبات لتسديد المبالغ المستلفة. وطرح تشينغ داي الاملاك الضامنة للقروض للبيع وقام المستشفى . ولكن اقتضى انهاؤه . وقامت حملة خفية ضده في صلب الكيومنتانغ تألم منها ، لكنه لم يتوقف . وبينما كان مندوبو الانتخابات بكنزاتهم البيضاء، يحدثون الصناع المخبولين في فترة القيلولة في المطاعم

الصينية الذين أخمدتهم الحرارة حديثاً سرياً عن « سلوكه الغريب » كان يطرح بيته العائلي في كانتون للبيع. وانتهى بناء المستشفى، ولكن بقيت هناك متطلبات كثيرة واجبة التحقيق. لذلك، وبعد ان استطلع رأي غروجان، بائع العاديات في بكين، تخلص من اسطواناته المنقوشة ومن قطع يشب سونغ الشهيرة التي يملكها. فماذا بقي له بعد ذلك ؟ ما لا يكاد يكفيه عيش الكفاف . انه الوحيد بين كل اعضاء الحزب المتنفذين الذي لا يملك سيارة . لذلك شهدته يمر في مقعد ذي عجلات . وقد يكون قرير العين لمشهد فقره الذي لا يسمح بنسيان كرمه .

والنبل ، لكي يكون حقيقياً ، لا يتفق مع المهارة . انه شاعر شأن لو-يت والجنرال هسو . لكنه هو الذي أقام المقاطعة ، دفاع بعض التجار الحاذقين ضد اليابانيين، وهي السلاح الدقيق الذي نعرفه اليوم. وهو الذي طبقها ضد الانجليز، وهو الذي ، بخبرته في التجارة الغربية ، (كتلميذ للآباء ، يقرأ ويتكلم ويكتب الفرنسية والانجليزية بطلاقة) وجه دعاية سن يات سن بمهارة لتوحي بالثقة الى الانجليز ، وهو الذي أخضع تحريمات الشراء لمصلحة الاستعلامات تاركاً دائماً لانجليز هونغ كونغ ما يكفي من الأمل ليكدسوا البضائع التي سيقلب لها الصينيون ظهر المجن فجأة في اللحظه المعينة .

لكن سلطته روحية قبل كل شيء . ولقد قال غارين انهم لا يخطئون اذ يتحدثون عن غاندي بصدده . ان نشاطه وان كان اكثر ضيقاً ، الا انه من طبيعة نشاط المهاتما ذاتها . انه أرفع من مستوى السياسة ، يؤثر في الروح ويمتاز بالتجرد . ان كلا الرجلين يتصرفان على نحو لخلق اسطورة تفتن الناس من ابناء عرقهما . ولكن ، اذا كان النشاطان متوازيين فان الاشخاص من جانبهم مختلفون . ان في صميم عمل غاندي الرغبة الأليمة الكلفة بتعليم الناس كيف يحيون ، اما لدى تشينغ داي ، فلا شيء من هذا . انه لا يريد ان يكون القدوة ولا الزعيم بل المستشار . حينما داهم الموت سن يات سن ، وهي اللحظة التي شهدها تشينغداي في اكثر ايام حياته بؤساً ولكن دون ان يتدخل في الاضطرابات

السياسية الصرفة تدخلاً يذكر ، سئل عما اذا كان يقبل ان يكون خلفاً للدكتاتور الراحل بوصفه رئيساً للحزب ، فرفض. لم يكن يخشى المسؤوليات ، الا ان دور الحَكَم كان يبدوله اكثر نبلاً واكثر مطابقة لطابعه من سواه. اضف الى ذلك انه كان يمتنع عن قبول منصب من شأنه ان يشغل كل نشاطه فيجعل منه شيئاً آخر غير الذي يريد ان يكونه : حارس الثورة . ان حياته كلها لون من الاجتماع الاخلاقي ، ورغبته في ان ينتصر عن طريق العدالة لا تعبر عن شيء آخر غير أقوى قوة يمكن ان يتزين بهـا الضعف العميق الذي لا برء منه ولا شفاء ، المنتشر انتشاراً كبيراً بين بني جلدته .

ولعل هذا الضعف هو الشيء الوحيد القادر على افهامنا موقف الحاضر . هل تراه يرغب حقاً وبشغف منذ سنين طويلة ان ينقـذ الصين الجنوبية من سيطرة اقتصاد انجلترا ؟ نعم.ولكن ان يدافع عن شعب من المضطهدين ـ صاحب قضية لا يتطرق الشك الى عدلها ـ ان يوجهه ، فقد ألف دوره بلا وعي فوجد نفسه ذات يوم ، يفضل هذا الدور على انتصار اولئك الذين يدافع عنهم . دون وعي ولا شك ، ولكن بقوة . انه أشد تعلقاً باحتجاجه منه راغباً في الانتصار، يتفق مع نفسيته ان يكون روح الشعب المضطهد والمعبّر عنه .

ليس له أولاد حتى ولا بنت . كان متزوجاً من قبل فماتت زوجته فتزوج من جديد.وبعد سنوات عدة ماتت زوجته هي الاخرى.لن يجد احداً بعد موته يحيي طقوس ذكرى ميلاده.وهو يحس بألم هادىء متأصل من جراء ذلك، ألم لا يجد سبيلاً للتخلص منه . وهو ملحد ، او يظن انه كذلك ، لكن هذه الوحدة في الحياة وفي الموت تمضه. اما تركة مجده فسيخلفها للصين الناهضة. يا للأسف!.. هو ، الذي كان غنياً ، سيموت فقيراً تقريباً وسوف تتبعثر عظمة هذه الميتة بين ملايين من الناس . الوحدة الاخيرة..هذا شيء يعرفه كل انسان ، وهذه الوحدة ايضاً تجعله اكثر ارتباطاً كل يوم بمصير الحزب .

قال غارين : « وجه نبيل لضحية تعنى بسيرة حياتها » . وان يحـاول هو

نفسه اشباع رغباته ، يوحي اليه باحساس الخيانة . واذ يسيطر عليه مزاجه بالاضافة الى العادة الملازمة القديمة والسن ، فقد نسي حتى امكان استخلاص التبعات المنطقية لموقفه . لذلك فان فكرة الشروع في نضال حاسم وادارته لا تفرض على ذهنه كما لا تفرض على كاثوليكي متحمس فكرة ان يصبح بابا . لقد أنهى غارين ذات يوم نقاشاً عن الدولية الثالثة بقوله : « الا ان الدولية الثالثة من جانبها قد صنعت الثورة » . فلم يجب تشينغ داي الا بحركة مبهمة ومحصورة بآن واحد من كلتا يديه المرفوعتين فوق صدره ، فقال غارين ، انه لم يفهم قط بعد الشقة التي تفصل بينهما بمثل القوة التي فهم بها حينذاك .

وقد يظنه المرء قادراً على العمل : لكنه لا يقدر الا على نوع خاص من العمل، ذلك الذي يتطلب انتصار الانسان على ذاته. وهو وان توصل الى تشييد مستشفى، فما ذلك الا لأن العقبات التي وجب عليه ان يتخطاها ، رغم اهميتها ، كانت عقبات ترجع ابداً الى تنزهه . وجب ان يجرد نفسه من ثروته ففعل ، ولعله فعل ذلك دون تنغص ، وهو فخور اذ يفكر ان قليلاً من الرجال فعلوا فعله . ان الفعل عنده ، كما هو لدى المسيحيين ، مرتبط بالاحسان . لكن الاحسان الذي هو مواساة لدى المسيحيين ، احساس بالتكافل لديه . فصينيو الحزب وحدهم هم الذين يقبلون في مستشفاه. ان عظمة حياته تتأتى من احتقاره لكل ما هو زمني، ذلك الاحتقار الذي يضفي على تصرفاته العامة طابعاً رائعاً. لكن هذا الاحتقار، لكي يكون مخلصاً ، لا مجال فيه قط لمعنى الاستفادة منه . وتشينغ داي المتجرد ، يزمع ان لا يترك مثل هذا التنزه النادر جداً في الصين مجهولاً من الناس. وهذا التنزه ، الذي بدا انسانياً بحتاً بادىء الامر ، اصبح بفضل مسرحية دقيقة ، مبرر وجوده : انه يبحث فيه عن دليل تفوقه على الرجال الآخرين . وتفانيه ليس الا تعبيراً عن كبرياء مشرقة لا عنف فيها ، كبرياء متوافقة مع رقة طبعه وثقافته كمتعلم .

ان هذا الشيخ الدمث ذي الحركات الصغيرة المحصة، مهووس ككل اولئك

الذين يؤثرون في الجماهير اثراً بليغاً . مهووس بتلك العدالة التي يظن انه مكلف بصونها، والتي اصبح لا يميزها الا قليلاً عن فكرته الخاصة في المسائل التي يفرضها عليه الدفاع عنها ، هوس الآخرين باللذات الشهوانية او بالطموح المفرط . لا يفكر الا فيها ، فالعالم موجود بدلالتها ، فهي أرقى احتياجات الانسان والإله الذي يجب ارضاؤه قبل كل شيء . وهو يثق بها ثقة طفل بتمثال الهة وثنية . كانت حاجته اليها من قبل حاجة عميقة انسانية وبسيطة . لكنها باتت تسيطر عليه اليوم سيطرة حجاب السعد على صاحبه . ولعلها حاجة قلبه الاولى ايضاً : لكنها كذلك شيء الهي معيذ لا يمكن محاولة شيء بدونها ولا يمكن اغفالها دون الخشية من لون الانتقام الغامض .. ولقد شاخت عظمتها معه حتى لم يعد يرى منها غير الجسد المهزول . يقول غارين انه اذ يسيطر عليه اله مشوه مختف خير اختفاء تحت رقته وابتسامته وافضاله السامية ، فانه يعيش خارج هذا العالم الثوري اليومي الذي نحن شديدو التمسك به ، في حلم المصاب بجنون التعصب لشيء ما (مونومانيا) الذي لا تزال تمر فيه حطام المجد ، وهذا الجنون يزيد من نفوذه وسلطته . لقد كان احساس العدالة عزيز الجانب في الصين دائماً ، لكنه كان شعوراً مدنفاً ومبهما بآن واحد . وحياة تشينغ داي التي اصبحت الآن اسطورية على نحو ما ، وشيخوخته، تجعلان منه رمزاً لذلك الشعور . فالصينيون يصرون على ان يروه محترماً اصرارهم على ان يلمسوا الاعتراف بخصائص عرقهم . فهو في الوقت الحاضر في حرز حريز . والحماس الذي خلقته الدعاية ووجهته ضد انجلترا لا يمكن ان يغير وجهته دون ان يفقد قوته . لا بد من ان يجرف كل شيء معه ، لكن الوقت لا يزال مبكراً بعد ...

تعاقبت التقارير خلال تناول الطعام ، فكان غارين يطلع طليها فور وصولها ويزداد قلقاً ، ثم يضعها عند قائمة مقعده ، بعضها فوق بعض .

ان عالم اصحاب المراكز السامية ، مهربي الافيون او المصورين ، المثقفين الذين اصبحوا تجار دراجات والمحامين من كلية باريس ورجال الفكر من كل نوع

المتعطشين للاحترام ، الذي يدور حول تشينغ داي، يعرف ان مندوبية الدولية والدعاية تبقيان وحدهما الحالة الراهنة وتدعمان وحدهما هذا الهجوم الجبار الذي ينذر انجلترا بالفشل ، وتقاومان وحدهما وبقوة عودة واقع الامور التي لم تحسنا المحافظة عليها ، عودة تلك الجمهورية من ذوي المناصب التي ترتكز على دعامتين هما النبالة القديمة والجديدة بين محـــام وطبيب ومهندس . لقد قال غارين منذ هنيهة : « الهيكل العظمي هو نحن » . ويبدو بحسب التقـارير ، ان الجميع قد التفوا حول هذا الجنرال تانغ الذي لم يحدثني عنه احد في كانتون من قبل والذي يمتاز عنهم بميزة الشجاعة ، باستثناء تشينغ داي على الارجح الذي قـد يستنكر الانقلاب العسكري . ولقد تلقى تانغ في الايام الاخيرة مبالغ جسيمة . والعملاء الانجليز عديدون في اطار تشينغ داي ... ولما اظهرت دهشتي من ان يستطاع الاعداد لمثل هذه الحركة دون علم الشيخ ، اجابني غـــارين وهو ينقر على المـائدة باصبعه : « انه لا يريد ان يعلم . لا يريد ان يُلزم مسوولیته الادبية لكنني اعتقد انه يريد ان يخمن ... »

★

الساعة الثانية

في الدعاية مع غارين في المكتب المخصص لي . على الجدار لوحة تحمل رسم سن يات سن واخرى رسم لينين مع منشورين ملونين : المنشور الاول يمثـــل صينياً قصيراً يغرس حربته في قفا جون بول الذي سقط ارضا رافعـاً « قوائمه » الاربعة بينما يتجاوز الافق روسي بقلنسوة من الفراء تحيط به اشعاعات كأنهـا شمس والثاني يمثل جندياً اوروبياً مسلحاً برشيش «يطلق النـــار على حشد من الصينيات والاطفـــال وايديهم مرفوعة . وكان على الاول بالارقام الاوروبية ١٩٢٥ والتعبير الصيني الذي يعني:اليوم. وعلى الثاني ١٩٠٠ وعبارة : في الماضي. ونافذة عريضة اسدلت عليها ستارة صفراء مشبعة بالشمس . وعلى الارض رزمة من الصحف الصينية التي جاء بها منذ هنيهة ساع صيني ، ليقتطع امناء هـــذه المصلحة كل الرسوم الكاريكاتورية منها ويصنفوها مع خلاصات عن المقـــالات

الرئيسية . وعلى المكتب من طراز لويس الخامس عشر المصادر ، صورة هزلية منسية ، نسخة ولا ريب ، يد تحمل على كل اصبع من اصابعها باحرف مطبوعة: روسيون ، طلاب ، نساء ، جنود ، فلاحون . وعلى راحتها : كيومنتانغ ، دعكها غارين بيده وألقاها في السلة (ترى هل اصبح متأنقاً هو الآخر؟) .والى الجدار خزانة لحفظ الاوراق وباب تتصل هذه الحجرة بواسطته بالحجرة التي يقيم فيها غارين ، مليئة هي الاخرى بهذا الضياء المتسلل الاصفر الحاد الذي ينفذ خلال الستر . ولكن ليس من منشورات على الجدار . اما الخزانة ، فيحل محلها صندوق حديدي . وعلى الباب حارس .

يجلس المفوض في الشرطة العامة ، نيكولاييف على مقعد وثير وبطنه الى الامام وساقاه متباعدتان . انه رجل عظيم البدانة ، لوجهه طابع الوداعة الذي يضفيه على ذوي البدانة الشقر انف خنِس قليلاً . انه يصغي الى غارين مطبق العينين ويداه متشابكتان فوق بطنه .

قال غارين: « لقد قرأت آخر الامر كل التقارير التي ارسلت اليك ؟

– حتى هذه الدقيقة نفسها ...

حسناً . في رأيك ، هل يسير تانغ ضدنا ؟

– دون تردد . هذه قائمة بالصينيين الذين يرغب في توقيفهم بصرف النظر عنك بالذات .

– هل تعتقد ان تشينغ داي على علم بالأمر ؟

– انهم يريدون استخدامه . هذا كل شيء ... »

كان الرجل البدين يفصح عن افكاره باللغة الفرنسية المشوبة بلكنة خفيفة جداً . ونبرة صوته – ليقال رغم وضوح اجاباته أنه يتحدث الى امرأة او يكاد يضيف عبارة ياعزيزي–وسكينة وجهه وعذوبة موقفه تذكر المرء بقسيس قديم.

« هل تملك رجالاً كثيرين جاهزين في الشرطة السرية ؟

– كلهم تقريباً ...

- حسناً : نصف الرجال الى المدينة ليعلنوا ان تانغ الذي يدفع الانجليز الاموال له ، يهيء انقلاباً يهدف الى قلب كانتون الى مستعمرة انجليزية . في الاوساط الشعبية بالطبع . وربع في مراكز المناوبة في النقابات : من خيرة الرجال ، هذا مهم جداً ، والباقي بين العاطلين عن العمل مع اعداد من «غازيت دو كانتون» ليدللوا بوضوح على ان اصدقاء تانغ طالبوا بالغاء تعويض الاحزاب الذي نداْب على صرفه .

- ان العاطلين عن العمل المسجلين هم ... بحدود ...

- دع الاضبارة وشأنها : هم ستة وعشرون الفاً .

- حسناً . سيكون لدينا عدد كاف من الرجال .

- أضف الى ذلك ، بعض العملاء المختارين لحضور اجتماعات الحزب هذا المساء ، للتنويه بان تانغ سوف يطرد. ليعلم ذلك وليضع الآن امله خارج الحزب. كل هذا بشكل مبهم ابهاماً كافياً .

- مفهوم .

- انت واثق تماماً من استحالة إلقاء القبض على تانغ أليس كذلك ؟

- نعم وللأسف !

- خسارة . لن يخسر شيئاً اذ ينتظر » .

ذهب الرجل البدين والمصنف تحت ابطه . وقرع غارين الجرس . حمل الحاجب رزمة من بطاقات الزيارة وضعها على الطاولة واخذ لفافة من علبة غارين المفتوحة .

« ادخل ممثلي النقابات » .

دخل سبعة من الصينيين ، الواحد تلو الآخر ـ سترات ذات ياقات مرفوعة وسراويل من الكتان الابيض ـ صامتين . شبان وكهول ، اتخذوا اماكن امام الطاولة على شكل نصف دائرة . جلس احدهم أو كاد على المكتب ، وكان اكبرهم سناً : انه المترجم ، وراحوا جميعاً يصغون الى غارين :

« يحتمل ان يحاول بعضهم القيام بانقلاب ضدنا خلال هذا الاسبوع . انكم تعرفون مثل ما اعرف آراء الجنرال تانغ واصدقائه ؟ لست بحاجة الى تذكيركم بعدد المرات التي اضطر فيها رفيقنا بورودين ان يتدخل لدى المجلس للابقاء على صرف اعانات الاضراب في كانتون. انكم تمثلون قبل كل شيء ، عمالنا العاطلين الذين بذلوا دون حساب خلال الاجتماعات النقابية الاخيرة ، ليعرّفوا الرفاق كلهم بمزاياكم . وانني عارف بان باستطاعتي الاعتماد عليكم . ومن جهة اخرى ، هذه هي القائمة باسماء الذين يجب توقيفهم منذ بدء الحركة بوصفهم مشبوهين في نظر تانغ وتشينغ داي واصدقائهما » .

قدم لهم القائمة فقرأوها لينظر بعد ذلك كل في وجوه الآخرين .

« انتم تعرفون اسماءكم ؟ واذن ، منذ اللحظة التي تخرجون فيها من هذا المكتب .. »

كان المترجم في نهاية كل جملة ، يترجم بصوت مكتوم ، فيجيب الآخرون بهمسة : شيء مضجر .

« . لا يجب ان تعودوا الى بيوتكم . سيبقى كل منكم في مركز المناوبة في النقابة وسينام هناك . اما انتم .. »

وأشار الى ثلاثة من الصينيين :

« .. الذين تقع مراكز المناوبة الخاصة بكم بعيدة جداً فيتعذر حمايتها ، فستذهبون فور خروجكم لتأتوا بالمحفوظات الى هنا . لقد امرت باعداد مكاتب لكم . سيعطي كل منكم مفارز الاضراب المسلحة تعليمات محددة . يجب ان نستطيع جمع كل رجالنا في غضون ساعة واحدة » .

وبينما كان يتكلم ، طوف علبة لفائفه على الموجودين فعادت الى الطاولة . أغلقها بصفقة خفيفة ونهض . وخرج الصينيون كما دخلوا ، الواحد تلو الآخر ، وهم يشدون على يده . ثم قرع الجرس .

قال للحاجب: « ليكتب هذا سبب زيارته » ورد اليه البطاقة. « وبالانتظار، ادخل لو ـ موي » .

كان هذا صينياً قصير القامة حليقاً ذا وجه تغطيه البثور ، اتخذ مكانه قبالة غارين ، باحترام ، خافض العينين .

« في اعلانات الاضراب في هونغ كونغ وهنـــا جرت خطب كثيرة لا نفع فيها . فاذا كان الرفاق يعتقدون انفسهم في مجلس نيابي فانهم مخطئون ! ولآخر مرة اقول ، يجب ان ترتكز هذه الخطابات على شيء واحد : اذا كان بيت رب العمل بعيداً او كان غير لائق فانهم يستطيعون دائماً ان يجدوا سيارته تحت ايديهم. اكرر ، للمرة الاخيرة ، على الخطباء ان يدلوا على ما يتصدون له . لا اريد ان أعود الى تكرار هذا الأمر مرة اخرى » .

انحنى الصيني القصير وانسحب . ودخل الحاجب حاملاً البطاقة التي ردها غارين منذ حين ، فقدمها اليه .

« من اجل مدرعات ؟ »

رفع غارين حاجبيه .

« ان هذا من اختصاص بورودين » .

كتب على البطاقة عنوان بورودين وبضع كلمات (تقديم ولا ريب)وطرق الباب مرتين .

« ادخل » .

دفع الباب اوروبي متين البنيـــة يلطخ وجهه شارب امريكي ، يرتدي البزة الكاكي المخصصة للضباط التي يلبس غارين مثلها .

« غارين ، عم صباحاً » .

انه يتكلم الفرنسية . لكنه روسي ايضاً .

« مرحبا يا جنرال » .

ــ حسناً ؟ هل حزم امره السيد تانغ ؟

– انت على اطلاع بالأمر ؟

– تقريباً . لقد قابلت بورو منذ حين . انه يتألم ، هذا الفتى المسكين ، في الحقيقة ! يقول الطبيب انه يخشى النوبة .

– اي طبيب ؟ ميروف ام الصيني ؟

– ميروف . وبعد ، تانغ ؟

– يومان او ثلاثة ايام اخرى ...

– أليس لديه اكثر من رجاله الألف ؟

– وما يستطيعون ايجاده باموالهم واموال الانجليز . بين ألف وخمسمائة وألف وثمانمائة اجمالاً . ما هو الوقت الذي يستلزمه وصول الجيش الأحمر الى هنـــا ؟ « الجيش الاحمر الكانتوني) في الحد الادنى ؟ ستة ايام ؟

– ثمانية . هل اهتمت الدعاية بهم ، بقوات تانغ ؟

– قليلاً . ان معظم الرجال من هونان او يونان .

– أسفاً . كم رشاش لديهم ؟

– حوالي عشرين .

– تستطيع الحصول على خمسمائة او ستمائة مستجد في المدينـة يا غارين ، ليس أكثر .

– سوف تطبقون بدوركم فور الشروع بالفعل .

– نحن متفقون : فور ما تستنفر قطعات تانغ ؛ ترسل انت المستجدين الذين تحت تصرفك مع فصيلة الرشاشات ومن ورائهم الشرطة . وسنأتي نحن من فوق .

– مفهوم » .

ومضى الرجل .

– « قل لي ، غارين ، أهذا رئيس الاركان العامة ؟

– نعم : غالـن .

– ما اشبهه بضابط من ضباط القيصر !

– كالآخرين .. »

صيني جديد ذو شعر ابيض قصير كالفرشاة .
اقترب حتى لامس المكتب برؤوس اصابعه وانتظر .
– « هل تمسك بزمام كل رجالك من العاطلين عن العمل ؟
– نعم يا سيدي .
– كم نستطيع جمعه منهم في مدى نصف ساعة ،
– بأية وسائل يا سيدي ؟
– بالوسائل السريعة . اغفل مسألة النقل .
– اكثر من عشرة آلاف .
– حسناً . اشكرك » .
وبدوره مضى الصيني ذو الشعر الابيض الجميل .
– « ما هو هذا ؟
– رئيس مكتب المساعدات . مثقف . احد كبار الموظفين السابقين وقد طرد . مشاكل .. »
استدعى الحاجب من جديد .
« أرسل كل الذين لا يزالون بالانتظار الى مفوض الشرطة العامة » .
لكن صينياً جديداً دخل من الباب الموارب هادئاً بعد ان قرع الباب اثناء مروره مرتين خافتتين . كان بديناً مثـــل نيكولاييف ، حليقاً ، ذا فم غليظ ووجه خال من القسمات . ابتسم ابتسامة عريضة كاشفاً عن اسنان مذهبـة بينما أمسكت اصابعه بسيجار ضخم . كان يتكلم الانجليزية :
– « هل وصلت سفينة فلاديفوستوك يا سيد غارين ؟
– هذا الصباح .
– ما هي كمية الغازولين ؟
– الف وخمسمائة ... (وأعقبها اسم مقياس صيني اجهله) .
– متى ستُسلـَّم هذه الكمية ؟
– غداً . الشيك هنا كالعادة .

ـ هل تريد ان اوقعه فوراً ؟

ـ كلا . كل شيء في حينه .

ـ اذن ، الى اللقاء يا سيد غارين . الى الغد .

ـ الى الغد » .

قال لي غارين بصوت منخفض بالفرنسية بينما كان الصيني يغادر المكتب :

– « انه يشتري المنتجات التي يرسلها الينا الاتحاد السوفياتي .ان الدولية غير غنية في هذه الآونة لذلك فـــان شحنات المواد الاولية ضرورية جداً. انهم على العموم يقومون بما في وسعهم : غازولين ، بترول ، اسلحة ، مدربين ... »

نهض متجهاً نحو الباب مستطلعاً . ما من احد . عاد الى مكتبه فجلس وفتح اضبارة : هونغ – كونغ . التقارير الاخيرة . اخذ ينـــاولني من حين الى آخر بعض الوثائق التي يريد تصنيفهـا على حدة . ولكي اخفف من الحرارة ، خفضت المقبض الذي يسيّر المروحة ، فلم تلبث الاوراق ان تطايرت . اوقف المروحة وعاد يرتب الاوراق المبعثرة مستمراً في تسطير خطوط بالقلم الأحمر تحت بعض الجمل . تقارير . تقارير . تقارير . وبينما كنت اعد موجزاً للتقـــارير التي اختارها ، خرج . تقارير ...

لن يستطيـع الاضراب الذي يشل هونغ كونغ البقاء على حالته الراهنة اكثر من ثلاثة ايام .

ولنفرض ان العمال الذين قطعت عنهم المعونات سينتظرون عشرة ايام قبل ان يعودوا الى العمل من جديد : ثلاثة عشر يوماً في المجموع . واذن ، اذا لم يجد بورودين سبيلاً جديداً للنشاط قبل خمسة عشر يوماً فان السفن الانجليزية ستكون في مرفأ كانتون . سوف تنهض هونغ كونغ من كبوتهـا : وسيذهب كل تعليم هذا الاضراب هباء . ان الضربة الموجهة لهونغ كونغ قاسية جداً . لقد خسرت المصارف، ولا تزال تخسر كل يوم مبالغ طائلة . اضف الى ذلك ان الصينيين رأوا رأي العين ان انجلترا ليست معصومة من الهجوم عليها . لكن معوناتنا ومعونات

المصارف الانجليزية تقوم بأود مدينة سكانها ثلاثمـــائة الف نسمة لا يشتغل منهم احد فمن الذين سينهك قبل الآخر في هـذه اللعبة ؟ نحن بالضرورة . ومن جهة ويلتشيثو ، يستعد جيش تشينغ – يونغ – مينغ لخوض المعركة ...

بقي تحريم الرسو في مرفأ هونغ كونغ الذي وجه الى قباطنة السفن الراغبين في دخول مرفأ كانتون . ولكن يجب ان يصدر مرسوم من اجل ذلك . وطالما ظل تشينغ داي يملك السلطة التي هي رهن مشيئته في هذه اللحظة، فان المرسوم لن يوقع .

هونغ كونغ : انجلترا . وراء جيش تشينغ تيونغ مينغ : انجلـــترا . وراء سحابة الجراد المحيط بتشينغ داي : انجلترا .

★

بضعة كتب موضوعه فوق المكتب : قاموس الآباء الصيني اللاتيني ، كتابان بالانجليزية عن الطب : الزحار والحمى المرزغية . وعندما عاد غارين سألته عمـا اذا كان حقيقة لا يعنى بنفسه طبياً .

– « بل نعم ! اعالج نفسي ! بالطبع ! انني لم اعالج نفسي جدياً ابداً لأنه كان لدي دائماً شيء آخر يشغلني . ولكن ليس لهذا اهمية كبرى : فلكي اشفى يجب ان اعود الى اوروبا . اعرف ذلك . سوف امكث هناك اقل مدة ممكنة . ولكن كيف تريدني ان اذهب في الوقت الحاضر » !

لم الح إلا قليلاً : ان هذا النقاش يثيره . وجاء الحاجب يحمل رسالة راح يقرؤها بانتباه . ثم قدمها الي قائلاً فقط : « ان الكلمات بالاحمر مكتوبة بيـــد نيكولاييف » .

كانت قائمة جديدة مشابهة لتلك التي تلقاها غارين قبل الغداء، لكنها اطول: بورودين ، غارين ، ا . شن ، سن – فو ، لياو – شونغ-هوي ، نيكولاييف ، سيميونوف ، هونغ ، وعديـــد من الصينيين الذين لا اعرفهم . ولقـــد اضاف

نيكولاييف بالقلم الاحمر في زاوية الكتاب : قائمة كاملة بالاشخاص الواجب توقيفهم واعدامهم فوراً. ثم اضاف تحتها بقلم الحبر وبكتابة سريعة : انهم بصدد حفر لوحات النداءات .

★

في الساعة الخامسة حمل الحاجب بطاقة جديدة . نهض غارين ومضى الى الباب ثم تنحى ليسمح بمرور تشينغ داي . دخل العجوز الصغير فجلس على المقعد ومد ساقيه وادخل يديه في اكمامه ونظر الى غارين الذي عاد الى وراء مكتبه ، نظرة فيها عطف ساخر . لكنه لزم الصمت .

– « كنت تريد رؤيتي ياسيد تشينغ داي » ؟

اومأ برأسه ان نعم واخرج يديه من كميه ببطء وقال بصوت ضعيف :

– « نعم ياسيد غارين ، نعم . لا اظن ان من الواجب سؤالك عما اذا كنت عالماً بالاعتداءات التي تتتابع هذه الأيام » .

تكلم ببطء شديد وعناية ، رافعاً سبابته .

– انني اقدر مواهبك تقديراً عظيماً لا يسمح لي بالتفكير بأنك تجهلها ، نظراً الى العلاقات الدائبة التي تلزمك وظيفتك على ابقائها مع السيد نيكولاييف . .

« ياسيد غارين ، ان هذه الاعتداءات تتوالى بافراط » .

اجاب غارين بحركة تعني : « وماذا استطيع ان افعل ؟ »

– « اننا متفاهمان ياسيد غارين ، متفاهمان ...

– ياسيد تشينغ داي ، انت تعرف الجنرال تانغ ، أليس كذلك ؟

– ان السيد الجنرال تانغ رجل وفي وعادل » .

ثم وضع يده اليمنى ببطء على المكتب وكأنه يبرز ما يقول :

– « انني ازمع الحصول من اللجنة المركزية على تدابير حازمة لقمع الاعتداءات واعتقد ان من المناسب تجريم الاشخاص المعروفين من الجميع ، كرؤساء لفرق

الارهابيين . ياسيد غارين ، وددت ان اعرف ماذا سيكون موقفك وماذا سيكون موقف اصدقائك حيال الاقتراحات التي سأقدمها » .

سحب يده لتغوص في كمه . اجاب غارين :

— « منذ بعض الوقت ، ويجب ان نعترف بذلك ياسيد تشينغ داي ، تعارضت التعليمات التي اعطيتها لأصدقائك تعارضاً عنيفاً .

— وبشيء من الازعاج ـ مع كل رغباتنا .

— لقد خدعوك ياسيد غارين . لا ريب ان لديك بعض المستشارين السيئين أم ترى استقيت معلوماتك بشكل خاطىء ؟ انني لم اعط اية تعليمات .

— لنقل توجيهات .

ـ حتى ولا توجيهات... لقد عرضت طريقتي في التفكير ، اعطيت رأيي... هذا كل شيء ... »

وزادت بسمته اشراقاً .

ـ « اظن انك لا تجد مانعاً في ذلك ؟

ـ انني اقدر رأيك تقديراً كبيراً ياسيدي . لكنني كنت احب ـ نحب ـ ان تحاط اللجنة به بشكل آخر ...

ـ ... غير عملائها من رجال الشرطة ياسيد غارين ؟ وانا كذلك . كانت اللجنة قادرة على ان ترسل الي احد اعضائها مثلاً ، شخصاً مؤهلاً . كانت قادرة على ذلك دون ريب . (وانحنى انحناءة خفيفة) والدليل اننا ها نحن اولاء معاً.

ـ منذ بضعة شهور لم تكن لجنتنا ترى نفسها ملزمة على انتدابي لمعرفة آرائك. كنت تطلعها عليها بنفسك ...

ـ المسألة اذن هي معرفة ما اذا كنت انا المكلف أم أنت ... انني ما عدت فتياً ياسيد غارين ، ولعلك تعترف بان حياتي ...

ـ ما من احد يفكر في الطعن في خلقك الذي نحترمه جميعنا : لسنا نجهل الدين الذي تدين لك به الصين . ولكن ... »

كان قد انحنى وابتسم ، فلما سمع : ولكن ، انتصب قلقاً ونظر الى غارين .

ـ « ... لكنك لا تجادل في قيمة عملي على ما يبدو لي ، مع ذلك فانك تحاول اضعافه » .

صمت تشينغ داي مؤملا ان يربك الصمت غارين فيستمر في الكلام . وبعد فترة حزم امره :

ـ « لعل من المؤمل في الواقع ان يصبح موقفنا اكثر وضوحاً ... ان مزايا بعض اعضاء اللجنة ،ومزاياك بصورة خاصة ياسيد غارين ، لامعة وسامية . لكنكم تعطون قوة كبيرة لروح يستحيل علينا تأييدها كلياً.أية أهمية تعلقونها على مدرسة وامبوا الحربية » ؟

باعد بين يديه شأن قسيس كاثوليكي يرثي لخطايا اتباعه المؤمنين .

ـ « انني لست مشبوهاً بالتعصب لتقاليد الصين القديمة . لقد ساهمت في تحطيمها . لكنني اعتقد ، واعتقد بحزم ، بل واقول : انني مؤمن بان حركة الحزب لن تكون جديرة بما نتوقع منها الا بشرط ان تستقر على اساس العدالة . هل تريد أن تهاجم » ؟

وبصوت اكثر ضعفاً :

ـ « كلا .. ليحتمل الامبرياليون كل مسؤولياتهم . ان بعض الاغتيالات الجديدة لبعض التعساء تعود بالنفع على قضية الجميع اكثر مما يعود به مستجدو وامبوا .

هذا يعني دفع حياتهم بخسة رخيصة » .

طرح رأسه الى الوراء لينظر الى غارين ، الامر الذي اعطاه مظهر معلم صيني عجوز يستقبح سؤال احد التلامذة . اظن انه غاضب ولكن لا يبدو شيء من غضبه ظاهراً . ما تزال يداه في كميه . ترى هل يفكر في تبادل اطلاق الرصاص في شامين ؟ اخيراً قال وكأنه يعرض خلاصة تأملاته :

ـ « اوه ! أقل من ان نرسلهم ليتعرضوا لرصاص بنادق متطوعي هونغ كونغ . الا ترى ذلك ؟

ـ لكن المسألة لا تنطرح هنا . انت تعلم مثلي ان الحرب لن تقع وان انجلترا لا تستطيع شنها ! ان كل يوم يدلل لكل الصينيين ـ ويسهم الحزب في ذلك ـ على سخف الخدعة الاوروبية وعلى عدمية القوة المرتكزة الى حراب معلقة على الجدر ومدافع مكمة .

ـ لست على مثل الثقة التي تبدو عليها . ان الحرب لن تستهجن من جانبكم.. انها ستبرهن للجميع على براعتك وهي مرموقة وعلى مزايا السيد بوروديـن التنظيمية ومزايا السيد الجنرال غالن الحربية » .

(ياالهول نبرة الاحتقار الخفي عند كلمة : الحربية ! ...)

ـ « ليس شيئاً رفيعاً وعادلاً اذن انقاذ الصين كاملة ؟

ـ انك جم الفصاحة ياسيد غاريـن ... لكننا لا نرى ذلـك على صورة متشابهة . انت تحب التجارب . وانت تستخدم لتنفيذها ، كيف اعبر عـن فكرتي ؟ ... ما تحتاج اليه . ولكن الامر يتعلق الآن اتفاقا بهـذه المدينة . هل اعترف لك ؟ انني افضل ان لا تُستعمل هـذه المدينة لهذه الغاية . انني احب قراءة القصص المفجعة واعرف كيف اعجب بها . لكنني لا احب تأمل المشهد في اسرتي . ولو انني استطعت الاعراب عن فكرتي بشكل شديد العنف وهو ما يتجاوزها ، واستعمال التعبير الذي تستعمله احيانا بصدد عرض آخـر ، لقلت انني لا استطيع ان ارى دون اسف ، مواطنيّ يتحـولون ... الى خنازير ...

ـ يبدو لي انه اذا كان هناك امة استُخدمت كموضوع تجارب في العالم اجمع فان تلك الأمة ليست في الصين بل روسيا .

ـ لا ريب ، لا ريب ... ولكن لعلها كانت بحاجة الى ذلك . وهذه الحاجة تقرها انت واصدقاؤك ، صحيح انه اذا مثل الخطر فلن تهربوا منه ... »

وانحنى .

ـ « هذا ليس ـ في رأيي ياسيد غارين ـ سببا كافيا للسعي اليها .

« اريد ـ اتمنى ـ ان يحاكم الصينيون جميعا في كل مـكان مـن الصين من قبل محاكم صينية وان يحميهم دركيون صينيون وان يملكوا حقيقة وليس مـن حيث المبدأ فحسب ، ارضا يكونون هم سادتها الشرعيون ، ولكن لا يحق لنا ان نهاجم انجلترا بشكل فعال ، بفعل من جانب الحكومة . لسنا في حرب . ان الصين هي الصين وباقي العالم هو باقي العالم .. »

لم يجب غارين وقد انتابه الارتباك ، استأنف تشينغ داي :

ـ « انني اعرف حق المعرفة ما يهدف اليه هذا الهجوم ... اعرف حـق المعرفة انه سيسهم في الابقاء على التعصب الذي جاء الى هنا معكم ... »

راح غارين ينظر اليه .

ـ « تعصب لا اجادل في قيمته ، لكنني لا استطيع تقبله ، لأسفي الكبير والشديد يا سيد غارين . ان المرء ليبني على الحقيقة وحدها .. »

وباعد بين يديه وكأنه يعتذر .

ــ « هل تعتقد يا سيد تشينغ داي ان انجلترا تهتم بالعدالة مثل اهتمامك ؟

ــ كلا .. لهذا سينتهي بنا الأمر الى هزمها .. دون تدابير عنف ، دون قتال . لن تنقضي خمس سنوات حتى يعجز اي انتاج انجليزي عن الدخول الى الصين » .

انه يفكر في غاندي .. أجاب غارين ببطء وهو يقرع الطاولة بطرف قلمه .

ــ « لو لم يتدخل غاندي ـ باسم العدالة هو الآخر ـ لتحطيم آخر هارتال ، لما بقي الانجليز في الهند حتى الآن .

ــ لو لم يتدخل غاندي يا سيد غارين ، لما كانت الهند التي تعطي العـالم اليوم أرفع درس يمكن سماعه اليوم ، غير منطقة آسيوية تشتعل الفتنة فيها ..

ــ لسنا هنا لنعطي أمثلة رائعة عن الهزائم !

ــ لتشكر من اجل هذا التشبيه الذي يشرفني اكثر مما يمكنك ظنه، والذي لا استحقه مع ذلك . ان غاندي يعرف كيف يفتدي اخطاء مواطنيه بآلامه الشخصية .

– وضربات السياط التي يتلقونها ثمن فضيلته .

– انك ذو حدة يا سيد غارين . لم تثور ؟ بين افكارك وافكاري ستختار الصين . .

– ان علينا نحن ان نجعل من الصين ما يجب ان تكونه ! ولكن هل نستطيع فعل ذلك اذا لم نكن على وفاق بيننا ، اذا علمتها انت كيف تحتقر اكثر ما هو ضرورة لها ، اذا كنت لا تريد ان تتقبل ان ما يتوجب قبل كل شيء هو ان تكون !

– لقد ملكت الصين ناصية المنتصرين عليها دائماً . ببطء ، هذا صحيح ، لكنها ملكتهم دائماً . .

« يا سيد غارين ، اذا وجب على الصين ان تكون غير صين العدالة ، الصين التي – بتواضع – عملت على اقامتها ، اذا وجب ان تكون شبيهة . . »

(فترة صمت . الاضمار : روسيا)

« فانني لا ارى ضرورة لوجودها . لتبق اذن ذكرى كبيره . ان تاريخ الصين ، رغم كل اساءات أسرة ماندشو ، جدير بالاحترام . .

– هل ترى اذن ان الصفحات ، التي نكتبها تعطي انطباع الانحطاط ؟

– ان خمسين قرناً من التاريخ لا تمضي دون صفحات كئيبة جداً يا سيد غارين ، لكنها ولا شك لن تكون قط اكثر كآبة من تلك التي تتحدث عنها . لكنني على اية حال ، لست انا من كتبها . . »

نهض في شيء من العناء واتجه نحو الباب بخطى صغيرة ، فصحبه غارين . حتى اذا ما اغلق الباب وراءه التفت نحوي قائلاً :

« يا للسماء ، رباه انقذنا من القديسين ! »

★

آخر التقارير : ضباط تانغ في المدينة . لا خوف هذه الليلة .

اخذ غارين يفسر الامر ونحن نتناول الطعام : « حتى على مستوى الافكار او بالحري الشهوات، لسنا معدومي القوة حيال تشينغ-داي. ان آسيا الحديثة كلها بصدد الاحساس بالحياة الفردية واكتشاف الموت . لقد فهم الفقراء ان شقاءهم لا أمل في زواله وانه ليس لهم ان يتوقعوا شيئاً من حياة جديدة. اخذ المجذومون الذين كفوا عن الايمان بالله يسممون عيون المياه . ان كل انسان متحرر من الحياة الصينية وطقوسها ومعتقداتها الغامضة ، ثائر على المسيحية ، ثوري جيد . وانك لترى ذلك على أروع صورة في مثل هونغ وكل ارهابييه تقريباً الذين ستتاح لك فرصة معرفتهم . ان فكرة امكان كل انسان القضاء على حياة البؤساء الجماعية والوصول الى تلك الحياة الفردية الخاصة التي يعتبرونها اثمن ما يملك الاغنياء ، تولد بنفس الوقت الذي يولد فيه الرعب من موت لا معنى له ، موت لا يفتدي شيئاً ولا يجزي . ان بعض المنظمات التي جاء بها بورودين ، تدين بنجاحها لهذه المشاعر ولا ريب . فهي التي تدفع العمال الى المطالبة بلجان اشراف منتخبة في معاملهم ، ليس بدافع الغرور بل لبلوغ الاحساس بوجود اكثر واقعية في انسانيته .. أليس مماثلاً الاحساس بامتلاك حياة خاصة مميزة بنظر الله ، الذي تتكون منه قوة المسيحية؟اما ان لا يكون هناك بعد يفصل مثل هذه الاحاسيس عن الحقد بل عن التعصب الحاقد ، فأمر أراه كل يوم .. اننا اذا أرينا عاملاً بسيطاً سيارة رب عمله كان لذلك في نفسه عدة آثار . اما اذا كانت ساق العامل البسيط مكسورة ... وفي الصين سيقان كثيرة مكسورة .. ان العسير هنا ، تحويل ميوعات الصينيين وارادتهم المذبذبة الى تصميم وعزم : لقد وجب الايحاء اليهم بالثقة بأنفسهم وعلى مراحل لكي لا تختفي تلك الثقة خلال ايام قلائل ، واطلاعهم على انتصاراتهم العديدة المتتالية ، قبل ان نجعلهم يحاربون عسكرياً. والنضال ضد هونغ كونغ الذي شرعنا به لاسباب عدة ، ممتاز لهذه الغاية . لقد كانت النتائج لامعة ونحن نزيد من روعتها ايضاً . ان هذا الدمار الذي يرونه يبهظ رمز انجلترا ، يريد كل منهم ان يسهم فيه . انهم يرون انفسهم منتصرين، ومنتصرين دون ان يضطروا الى احتمال صور الحرب التي ينفرون منها لأنها

لا تذكرهم الا بالهزائم . ففي رأيهم ، كما في رأينا ، ان اليوم هونغ كونغ وغداً هانكيو وبعد غـد شنغهاي وفيما بعد بكين .. ذلك هو الاندفاع الذي أعطاه هذا الصراع الذي عليه ان يدعم ـ وسيدعم ـ جيشنا ضد تشينغ تيونغ مينغ كما انه هو الذي سيدعم حملة الشمال . لذا فان انتصارنا ضرورة ، ولذا علينـا ان نمنع بكل الوسائل سقوط هـــذا الحماس الشعبي الذي هو في سبيله ليصبح قوة المأثرة البطولية ، كي لا يعود هباء باسم العدالة أو اية خرافات اخرى !

– قوة كهذه تتحطم بمثل هذه السهولة !

– تتحطم ، كلا . تتلاشى ، نعم . لم يقتض الامر من غاندي لتحطيم آخر هارتال اكثر من نبوءة جاءت في غير وقتها (لأن بعض الهنود كانوا قـد قتلوا بعض الانجليز ، آه ! يا للهول !.. ان الحماس لا يحتمل التردد ، وخصوصاً هنا . ان ما يجب ، هو ان يشعر كل انسان بان حياته مرتبطة بالثورة ، وانها ستفقـد قيمتها اذا نحن هزمنا ، فتصبح من جديد مزقاً .. »

وبعد صمت اضاف :

« اضف الى ذلك اقلية ذات عزم وجرأة .. »

بعد الغداء . ذهب يستطلع انباء بورودين : ان نوبة الحمى التي كان الطبيب يخشى وقوعها قد ظهرت فبات مندوب الدولية المستلقى على فراش المرض عاجزاً عن قراءة او مناقشة اي شيء . أقلق هذا المرض غارين فدفعنا هـذا القلق الى التحدث عنه نفسه بعض الوقت : أجاب على واحد من اسئلتي :

« ان في اعماقي ضغائن قديمة لم تحملني على قلة التعلق بالثورة :.

– لكنك لم تكن فقيراً تقريباً ...

– اوه ! ليست المسألة هنا . ان عدائي العميق يتجه الى المبادىء السخيفة التي يدفع المالكون بها عن ممتلكاتهم اكثر من اتجاهها اليهم بالذات : وهناك شيء آخر : عندما كنت يافعاً ، كنت افكر في اشياء مبهمة ، لم أكن أحتاج لشيء

لكي اثق بنفسي . كنت اثق بنفسي دائماً ولكن على نحو آخر : اما اليوم فلا بد لي من براهين . وما يربطني بالكيومنتانغ ..

ثم وضع يده على ذراعي وأردف :

« .. هو العادة ، ولكن على الاكثر، الحاجة الى نصير جماعي .. »

الغداة

ما يزال نشاط الارهابيين عنيفاً . لقد اغتيل امس تاجر غني وقاض واثنين من الحكام السابقين ، بعضهم في الشارع والبعض الآخر في مساكنهم .

سوف يطلب تشينغ داي غداً من اللجنة التنفيذية توقيف هونغ وكل اولئك الذين يعتبرون رؤساء جمعيات فوضوية وارهابية ، فوراً .

الغداة

« احتشدت قطعات تانغ » .

كنا قد بدأنا لتونا بتناول الطعام . فلم نلبث ان مضينا . اخـذت السيارة تندفع بكل سرعتها على طول النهر . لا يزال لا يُرى شيء في المدينة . ولكن ، داخل البيوت التي كنا نتوقف امامها كانت فرق الرشاشات جاهزة . وما ان نمر حتى تشرع شرطة المرفأ النظامية وفصائل الاضراب بطرد جماهير الناس وتعطيل السير فوق الجسور التي تتمركز فصائل الرشاشات بالقرب منها.قطعات تانغ على الجانب الآخر من النهر .

وفي دائرة الدعاية ، امام مكتب غارين ، كان ينتظرنا نيكولاييف وصيني شاب منفوش الشعر ذو وجه على جانب من الجمال : هو هونغ رئيس الارهابيين. لم ألاحظ طول ذراعيه ،ذلك الطول القِرْدي الذي حدثني عنه جيرار الا عندما سمعت اسمه . اجتمع في الممشى عدد كبير من العناصر : كان على اولئك المقامين امام بيوت اصدقائنا المشبوهين من تانغ ، مهمة اخطارنا فور مـا تظهر الدوريات المكلفة بالقيام بالتوقيفات.قالوا انهم شاهدوا منذ حين جنوداً يدخلون البيوت عنوة ، فيصحبون معهم النساء والخدم وقد اثار حنقهم ان لم يجدوا من هم بسبيل البحث عنهم .. أسكتهم غارين . ثم سأل كلا منهم عن المكان الذي

كان فيه وسجل الاماكن المزارة من قبل الدوريات على مخطط كانتون .
« نيكولاييف ؟
– نعم .
– انزل . رسالة الى غالـّن . انت بنفسك ، هن ! ثم وكيل في سيارة الى كل مراكز المناوبة . على كل نقابة ان ترسل خمسين متطوعـاً ضد كل دورية . سوف تعود الدوريات صعداً نحو النهر . المتطوعون على الرصيف . مخفران من المستجدين لادارتهم ، مع رشاش لكل مخفر » .

مضى نيكولاييف على عجل ، مبهور الانفاس ، يهز جسمه الضخم بتثاقل . في الممشى الآن جمهرة من العناصر كان ضابط كانتوني واوروبي طويل القامـة (لعله كلين .. لكنه في الظل فلم اتبينه) يسألونهم بسرعة قبل ان يسمحوا لهم بالوصول الى غارين . وراح ضابط كانتوني آخر ، صغير السن ، يخترق الحشد الابيض من الاشخاص في ألبسة من الكتان او في اثواب طويلة، مستعينا بحركات من كتفيه .

– « هل امضي يا سيدي القوميسير !

– ليكن يا كولونيل . سوف تصلك الرسائل عند الجسر رقم ٣ » .

سلمه مخططاً دونت فيه بالأحمر الاماكن التي كانت الدوريات فيها ونقطـة انطلاق تانغ والطرق التي قد يتبعهـا . كان خط النهر الازرق يقطع المدينة : هنا ، كما هي العادة في كانتون دائماً ، ستجري المعركة . تذكرت جملة غالـّن : « الكماشات . اذا لم يتجاوزوا جسور السفن ، قضي عليهم ... »
جاء سكرتير شاب يحمل بيانات عدواً .
« انتظر يا كولونيل ! هذا بيان دائرة الأمن : يملك تانغ الفاً واربعمائة رجل تحت امرته .
– وانا خمسمائة فقط
– قال غالـّن انها ستمائة .

– خمس فقط . هل لديك مراقبون على طول النهر ؟
– نعم ، ليس من خطر من اي التفاف .
– حسناً : الجسور ، سوف نحافظ عليها » .

ومضى الضابط دون ان يعقب بشيء . سمعنا صرير سيارته خلال ضجـــة الاصوات وهي تنطلق وصوت المنبه مبتعداً وهو يعمل دون توقف . حرارة ، حرارة . كلنا بالقميص وقد ألقينا بستراتنا في احد الاركان ، بعضها فوق بعض.

مذكرة اخرى ، صورة عن مذكرة لتانغ . قرأ غارين بصوت مرتفع :
ـ « الاهداف : المصارف ، المحطة ، البريد » . واستمر يقرأ ولكن دون ان يرفع صوته ثم استأنف : « عليهم ان يعبروا النهر بادىء ذي بدء ..
– غارين ، غارين ! قطعات فينغ ـ ليا دونغ .. »

كان المتكلم نيكولاييف وقد عاد ، يجفف وجهه الكبير بمنديله ، وقد بلل العرق شعره واخذت عيناه تدوران كأنها الكرات .

« .. تلتحق بقوات تانغ ! ان الطرق المؤدية الى وامبوُا مقطوعة .
– اكيد !
– اكيد » .

وبصوت خافت اضاف : « لن نستطيع الصمود وحدنا ابداً .. »

نظر غارين الى المخطط المبسوط على الطاولة ، ثم هز كتفيه بعصبية ومضى الى النافذة .

« ليس هناك ستة وثلاثون شيئاً نعمله .. »

وبصوت مرتفع :

« كلين ! » وبصوت اخف : « هونغ ، امض الى مركز مناوبـة السائقين وعد بخمسين شخصاً منهم » .

ثم عاد الى نيكولاييف :

« البرق ! الهواتف !

ـ مقطوعة طبعاً » .

دخل كلين :

« ماذا ؟ »

ـ لقـد تخلى فيننغ عنا وقطع وامبوُ ا . خذ دورية من الحرس الأحمر ومن عناصر الدعاية . صادر ـ وبسرعة ـ كل ما تجده من سيارات . ضع في كل سيارة عنصراً وسائقاً (ستجد السائقين في الاسفل ، فقد مضى هونغ ليأتي بهم) ليطوفوا في المدينة كلها ـ دون ان يعبروا الجسور ـ وليرسلوا الى هنا كل العاطلين عن العمل والمضربين. مر بمراكز المناوبة . ليرسل الينا العاملون كل الرجال الذين يستطيعون الحصول عليهم . وتدبر امرك للوصول الى الكولونيل ليعطيك مائة من المستجدين .

ـ سوف يثور ويحتج .

ـ ليس لنا الخيار يا غي ! عد بهم بنفسك » .

مضى كلين . وعلى البعد ، ارتفع صوت اطلاق عيارات نارية . .

« والآن ، حذار من العرقلة ! لو وصل ثلاثة آلاف فقط كبداية . . »

استدعى المستجد الذي كان منذ حين يستجوب العناصر مع كلين قبـل ان يدعوهم يدخلون :

« ارسل اميناً الى مركز مناوبة رجال البحر. ثلاثون من صفار العمال فوراً » .

سيارة اخرى مضت . القيت نظرة من النافذة : هناك ما يقرب من عشر سيارات مع سائقيها بالانتظار . وكل أمين يمضي ، يستقل سيارة فتخرج السيارة من ظل البناء المنحرف وهي تصر وتختفي في غمار غبار مشبع بالشمس. ما عدنا نسمع طلقات نارية . لكنني وانا انظر سمعت صوت رجل يقول لغارين ورائي :

« أسرت ثلاثة دوريات . مبعوثو الفصائل الثلاثة ينتظرون .

ـ اعدموا الضباط . اما الافراد . . . أين هم ؟

ـ في مراكز المناوبة .

ـ حسناً . جردوهم من الاسلحة . كبلوهم . اذا عبر تانغ الجسور ، اعدموهم » .

في اللحظة التي التفت فيها ، كان الرجل الذي يتحدث في طريقه الى الخروج لكنه عاد لتوه :

« يقولون ان ليس لديهم اغلال .

الى الشيطان !

قرع جرس الهاتف الداخلي .

« الو ؟ النقيب كوفاك ؟ قوميسير الدعاية ، نعم ! تشتعل ؟ ما عدد البيوت ؟ من الجانب الآخر من النهر ؟ ... دعها تحترق ... »

وعلق السماعة .

« نيكولاييف ؟ اية حراسة امام بيت بورودين ؟

ـ اربعون رجلاً .

ـ كفاية في الوقت الحاضر . هل لديه محفة ؟

ـ لقد امرت بحمل واحدة اليه منذ حين .

ـ حسنا ».

ونظر بدوره من النافذة ، واطبق قبضتيه ثم قال موجهاً حديثه الى نيكولاييف :

« ها هي ذي « اللخبطة » تبدأ ...انزل . اولاً : السيارات على خط واحد الواحدة تلو الاخرى . ثم حاجز وليقف العاطلون في صفوف » .

لم يلبث نيكولاييف الذي هبط الى الاسفل ان تحرك ملوحاً بذراعيه بقوة ووجهه تحت خوذته البيضاء . اخذت السيارات تتحرك بقرقعة وتصطف ، بينما اخذ مائتان او ثلاثمائة رجل في ثياب مهلهلة ينتظرون في الظل قابعين تقريباً وكان عدد آخر منهم يصل دقيقة بعد دقيقة ، يسأل من سبقهم وعلى وجوههم سمات الخبل ، ثم يقفون وراءهم ليتفيأوا بدورهم ، سمعت ورائي :

« هوجم جسر البواخر : الاول والثالث .

ـ هل كنت هناك ؟

ـ نعم يا قوميسير ، عند الثالث .
ـ اذن ؟
ـ لم يصمدوا امام الرشاشات . انهم يعدون الآن اكياس الرمل .
ـ حسناً .
ـ اعطاني الكولونيل هذه المذكرة لك » .
سمعت صوت المغلف وهو يمزق . استمر غارين يقول بسخط : « رجال ! نعم ، نعم !
ثم بصوت منخفض : « يخشى ان لا يستطيع الصمود » .
وفي الاسفل ، اخذ عدد الصعاليك المهلهلين يزداد واخذت المنازعات تحدث عند حدود خط الظل .
« غارين ، هناك على الاقل ، خمسمائة رجل في الاسفل .
ـ لا احد حتى الآن من مركز مناوبة رجال البحر !
فأجاب الأمين :
ـ لا احد يا قوميسير !
ـ حيفاً ! »
رفع الستارة وهتف من النافذة :
« نيكولاييف ! »
رفع الرجل الضخم رأسه كاشفاً بذلك عن وجهه ثم جاء تحت النافذة .
القى له غارين بحزمة من الساعدات اخذها من درج مكتبه :
« خذ ثلاثين من هؤلاء الناس واعط كلا منهم ساعده ثم ابدأ بتوزيع الاسلحة » .
وعاد الينا .
ارتفع صوت نيكولاييف من الاسفل :
« المفاتيح ، اللعنة ! »
نزع غارين مفتاحاً صغيراً من حزمة والقى به من النافذة : تلقفه الرجل

البدين بين يديه اللتين جمعها على شكل اناء . ظهر عند نهاية الطريق عدد من سيارات الاسعاف تحمل جرحى مسجين فوق المحفات .

« اثنان من الحرس الاحمر عند طرف الشارع . اللعنة ! لا جرحى هنا في الوقت الحاضر ! »

اتعبني اشعاع الشمس على غبار الشارع والجدران فالتفت لحظة . كان كل شيء متداخلا مختلطاً . بقع الوان اعلانات الدعاية الملصقة على الجدار ، ظل غارين وهو يمشي جيئة وذهابا ... ثم عادت عيناي لتألفا الظل بسرعة . تتخذ هذه الاعلانات الآن لوناً من الحياة .. عاد غارين الى النافذة .

« نيكولاييف ! بنادق فقط !

ـ حسناً » .

اخذت جمهرة العاطلين المتزايدة العدد ، التي يؤطرها رجال الشرطة بالبستهم الرسمية واحد فصائل الاحزاب التي ارسلها كلين ولا ريب ، تتقدم صفاً نحو الباب : فالبنادق في القبو . حشد كثيف يحميه الظل دائما . ووصل تحت الشمس عشرون من الرجال تقريبا يحملون ساعدات ويسيرون في صفوف منظمة يقودهم احد الامناء .

« غارين ، اشخاص جدد يحملون الساعدات ! »

ونظر غارين .

« عمال رجال البحر . لا بأس » .

صمت . ما ان ننتظر شيئا حتى نجد الحرارة من جديد وكأنها جرح . وفي الاسفل ضوضاء خفيفة ودمدمات وقباقيب وقلق . صناجة بائع متجول وصرخات جندي وهو يطرده . وامام النافذة ، الضياء ، هادىء ، مليء بالقلق . والواقع المنسق الآخذ بالتوضح ، لمشية الرجال القادمين بخطى موزونة ، وفرقعة الوقوف الشديدة . صمت ، ضوضاء .. صوت خطوات شخص واحد على السلم . الأمين .

« ان عمال رجال البحر هنا يا قوميسير » .
كتب غارين على ورقة وطواها .
مد الأمين يده .
« كلا ! »
دعك الورقة والقى بها في السلة .
« أنا ذاهب الى هناك » .
ولكن ها هم أولاء امناء جدد يحملون اوراقاً . اخذ يقرأ : هـونغ كونغ ، فيما بعد ! » ثم القى بالاوراق في احد الادراج . دخل مستجد .
« قوميسير ! يطلب الكولونيل رجالا .
– في غضون ربع ساعة .
– يسأل عن العدد الذي سيحصل عليه » .
عدنا ننظر من النافذة مرة أخرى : كان الحشد الآن قد اصبح ممتـداً حتى نهاية الشارع – يحده دائماً خط الظل – ترجه حركات بطيئة تضيع فيـه ، كما يحدث على الماء .
« الف وخمسمائة على الأقل » .
لبث الأمين ينتظر. فعاد غارين يكتب من جديد ثم اعطاه الورقة هذه المرة .
ورنين الهاتف الداخلي مجدداً .
« ...
– ولكن اي مهيجين ، اللعنة !
– ...
– كان عليك ان تعرف !
– ...
– نعم . طيب ، كيف وصلوا !
– ...
– عدة مصارف ! حسناً ، دعهم يهاجمون .

علق السماعة وغادر الحجرة .

« هل اتبعك ؟

اجاب وقد اصبح في الممشى : « نعم » .

نزلنا . كان رجال بساعدات انتقاهم نيكولاييف منذ حين ، يحملون البنادق من القبو فيوزعها رفاقهم على المدخل على العاطلين وهم في شبه صفوف . لكن عمال رجال البحر صعدوا من القبو حاملين صناديق الذخيرة ، فاختلط الرجال المسلحون بالآخرين الذين ارادوا ان يمروا ليتلقوا ذخيرة قبل استلامهم البنادق . . صرخ غارين بلغة صينية سيئة ، فلم يسمعه احد . عندئذ جاء الى الصندوق المفتوح وجلس فوقه ، فتوقف التوزيع وتوقفت الحركة . وجاءت اسئلة من الصفوف الخلفية . . . امر ان يبعد الرجال غير المسلحين بعنف وان يقف المسلحون امامهم . اخذ هؤلاء ، ثلاثة فثلاثة ، يحصلون على ذخيرتهم وهم يمرون امام الصندوق ببطء مقلق . . . وفي القبو ، كان العمال يفتحون صناديق جديدة بضربات قوية من المطارق والازاميل . . . ثم ارتفع وقع خطى عسكرية كما حدث منذ حين فبلغ مسامعنا . لم نكن لنر شيئاً بسبب الحشد ، فقفز غارين على المرقاة وراح ينظر

« المستجدون ! »

كانوا في الواقع ، المستجدين الذين عاد بهم كلين . عاد بعض العمال الى القبو يهمهمون بصيحات العمل وقد سحقت كواهلهم اعواد الخيزران العريضة التي تتدلى الى اطرافها صناديق الذخيرة الجديدة . . . اصبح كلين امامنا .

قال له غارين : مستجدان ليساعداك . كل الرجال القادمين الحاصلين على ذخائر ، على عشرين خطوة الى الامام . الرجال المسلحون دون ذخائر على عشر خطى . صندوق وثلاثة رجال بين الفريقين للتوزيع .

وعندما تم ذلك دون صيحات ، في خضم غبار جاف وحاد ، تخطه الشمس .

« والآن ، البنادق اولا ، الذخائر على بعد ثلاثة امتار . المستجدون الى

الامام ، امام الجميع . صفوا الرجال على انساق عشرية . رئيس لكـل صف ، رفيق مناضل اذا وجد ، والا ، فالأول في الصف . كل مستجد يأخذ مائـة وخمسين رجلاً ويمضي الى رصيف الميناء يسأل الكولونيل عن التعليمات » .

عدنا فصعدنا ، فكانت نظرتنا الاولى الى النافذة ومـا تزال : اصبح الشارع الآن مكتسحاً ، في الظل كما في الشمس ، من قبل خطباء جثموا فـوق اكتاف رفاقهم يزمجرون ... وسمعت طلقات الرشاشات بعيدة . وهنـاك ، شرعت الجماعة المسلحة الاولى بالسير ذاهبة بخطى سريعة ، يراقبها مستجد .

وبدأ الخنق السلبي وتوتر كل الاعصاب التي لم تعد لتجد شيئاً آخر غير الترقب. الانتظار ، الانتظار . وتحت النافذة ، اخذت الفصائل تتشكل ، الواحدة تلو الاخرى ، وتمضي في جلبة الخطى . جيء باوراق تتعلق بهونغ ـ كونغ ، فألقى بها غارين في احد الادراج . ما زلنا نسمع صوت الرشاشات اشبه بكتان يمزق، ومن حين الى آخر ، طلقات متباعدة لرمي البنادق . لكن كل هذا بعيد . تاء ، يتصل في ذهننا بطلقات الاسهم النارية التي كنا نسمعها بالأمس . ما زلنا نحتفظ بالجسور . لقد حاولت قطعات تانغ ان تعبرها خمس مرات . لكنها لم تتجاوز رؤوس الجسور التي كانت رشاشاتنا تطلق منها نيرانها المتقاطعة . وفي كل مرة كان مستجد يحمل مذكرة : « هجوم على الجسر رقم ... ، صُدّ » . فنعـود الى الانتظار ، غارين وهو يمشي جيئة وذهابا او يغمر ورقـة النشاف برسوم غريبة مليئة بالخطوط المنحنية ، وانا ، ناظراً من النافذة الى تنظيمات الفصائـل المتشابهة ابدا . وجاء مخبران بعد ان عبرا النهر سباحة : انهم هناك ، على الجانب الآخر من الجسور ، ينهبون ويحرقون . وامتدت سحابة خفيفة من الدخـان فوق الشارع ، فخففت ألق السماء شديدة السكون .

★

ذهبنا ، غارين وانا ، بالسيارة الى رصيف الميناء . ما من احد في الشوارع .

ستور الدكاكين الغنية الحديدية مسدلة والحوانيت الصغيرة مغلقة بألواح من الخشب. كانت وجوه تظهر الى النوافذ اثناء مرورنا ، وراء قماش من الكتان ممدود أو سرير منصوب ، ثم تختفي من فورها . وفي زاوية احد الشوارع، اختفت امرأة ذات اقدام صغيرة تعدو ، حاملة طفلاً بين ذراعيها وآخر على ظهرها .

وقوف على بعد امتار من رصيف الميناء في شارع مواز لنفلت من نار الاعداء الذين يطلقون الرصاص من الضفة الاخرى . كان الكولونيل قد استقر في بيت قريب من الجسر الرئيسي . في الفناء ضباط واطفال . في الطبقة الاولى طاولة بسط عليها مخطط كانتون . والى النافذة، نصبت ثلاثة اسرة من الخشب لا تترك بينها غير كوة ضيقة يمر منها شعاع من الشمس يرسم على ركبة الكولونيل بقعة مدببة .

« حسنا ؟

سأل الكولونيل وهو يمد مذكرة بيده :

– هل تلقيت هذا ؟

المذكرة بالصينية . اخذنا نقرؤها معاً ، غارين وانا. بدا وكأنه فهم ما فيها تقريباً . مع ذلك فقد رحت اترجم بصوت خافت : الجنرال غالن يهاجم قطعات فينغ التي تفصلنا ويمشي نحو المدينة ، والقائد تشان كاي تشك (قائد مدرسة المستجدين) الذي ذهب مع خيرة فصائل الرشاشات ، سيلتف حول قطعات تانغ .

« كلا . لا ريب انها وصلت بعد ذهابي . هل انت واثق من الصمود ، هنا ؟

– بالطبع .

– سوف يقلب غالن فينغ كما تُقلب كومة من الغبار ، بالمدفعية ، هذا مؤكد . هل تعتقد ان قطعات فينغ ستنطوي نحو المدينة ؟

– محتمل .

– حسناً . هل لديك الكفاية من الرجال الآن ؟

– اكثر مما ينبغي .

– هل تستطيع اعطائي عشرة رشاشات ونقيب ؟ »
قرأ الكولونيل بعض البيانات :
– نعم .
– سوف اقيم متاريس في الشوارع وازرع فيها اعشاش الرشاشات ، فاذا ما وقعت القطعات المهزومة عليها اضطرت الى للفرار الى الريف .
– اظن ذلك » .
اعطى امراً الى ضابطه المرافق الذي ذهب عدواً . انسحبنا فراح الشعاع الشمسي الذي تلقيه الكوة الضيقة يصيبنا، الواحد بعد الآخر ، اما صوت تبادل الرصاص في الخارج فكان ساكناً .

في الاسفل ، كان عشرون مستجداً بانتظارنا، متهافتين كالذباب على سيارتين متلاصقين فوق المقاعد المعلقة فوق الرفارف ، جلوساً في ارض السيارة ، وقوفاً فوق المرقاة . ركب النقيب معنا ، فأقلعت السيارات وانطلقت ترج المستجدين عند كل قناة .

تقارير جديدة فوق المكتب تنتظر غارين الذي لم يلق عليها غير نظرة عابرة. اعطى النقيب قيادة الفصائل التي استمرت بالتشكيل، وفي الشارع الذي اصبحت الشمس المنخفضة الآن تملؤه بالظلال ، ما عدنا نرى غير رؤوس .
« من اجل المتاريس ، اعمدوا الى المصادرة !
ترك كلين نيكولاييف ليشرف على تنظيم وتسليح الفصائل ، وهبط الى القبو مع المستجدين العشرين . وعادت المجموعة الى الصعود والظهور في الممشى، مشوشة تخططها هنا وهناك اشعاعات لامعة مردها انعكاس النور على سبطانات الرشاشات . ومن جديد اندفعت السيارات مشمولة بجلبة الانطلاق وصخب اجهزة التنبيه ، تعج بالجنود المقلقلين ، تاركة بين آثار عجلاتها عمرات من الكاكي ، ضائعة .

ساعتان من الترقب . ومن حين الى آخر ، نتلقى تقريراً جديداً ... انذار

واحد بالخطر : لقد احتل العدو الجسر الثاني حوالي الساعة الرابعة ، لكن صف العمال المسلحين المقامين في كل مكان في مؤخرة الرصيف ، لم يلبث ان اوقف قلب جيش تانغ فأعطى بذلك الفرصة لفصيلة رشاشاتنا المتحركة بالوصول وبذلك استعدنا الجسر ثانية . ثم صدرت طلقات بنادق في الشوارع الجانبية الموازية لرصيف الميناء .

وصلت طلائع الفارين من جيش فينغ حوالي الساعة الخامسة والنصف ، فتلقفتها الرشاشات ، فعادت لتوها تستأنف الفرار .

تفتيش مراكزنا . وقفت السيارة على بعد معين ، فمضينا على الاقدام ، غارين وأمين كانتون وانا ، حتى نهاية هذه الشوارع التي تقطع خط النظر فيها متاريس منخفضة اقيمت في وسطها ، قوامها الالواح والاسرة الخشبية ، ومن ورائها الرماة يدخنون سيجارات طويلة محلية ويلقون من حين الى آخر نظرة خلال الكوى . راح غارين ينظر بصمت . على بعد مائة متر من المتاريس؛ كان العمال الذين سلحناهم ؛ ينتظرون ، قابعين يتحدثون او يصغون الى احاديث مرتجلة من قبل صف الضباط أو النقابيين العاملين حاملي الساعدات .

وما ان عدنا الى الدعاية حتى عاد الترقب والانتظار من جديد ، لكنه لم يعد انتظاراً قلقاً . لقد لحق احد الامناء غارين في المركز الأخير الذي فتشناه واعطاه رسالة من كلين . لقد اقتحم المقدم تشان كاي تشك حواجز تانغ وتحاول قطعات هذا الاخير ، التي تشتتت هي الاخرى ، ان تبلغ الريف . عاد تبادل اطلاق النار الذي سكن من جهة الجسور ، عنيفا اشبه ببرد بعيد . وعلى الضفة الاخرى كانت اصوات انفجار القنابل اليدوية تسمع من حين الى آخر وكأنها اسهم نارية ضخمة . وأخذت المعركة تبتعد بسرعة ، بمثل السرعة التي حل فيها الليل . وبينما كنت اتناول العشاء في مكتب نيكولاييف وانا اصنف آخر تقرير هونغ كونغ ، اضيئت بعض الانوار . ولما حل الظلام تماماً ، ما عدت اسمع غير طلقات معزولة ضائعة .

عندما نزلت الى الطبقة الاولى من جديد ، كانت تصدر عن الشارع المظلم غوغاء كلمات وضجيج اسلحة. وراحت اشباح المستجدين تتقاطع قرب السيارات امام اضواء مصابيحها المثلثة ، سوداء تسطرها خطوط لامعة : الاسلحة. وصلت احدى فرق تشان كاي تشك الى الشارع فلم يعد المرء يميز في الخارج غير حزم المصابيح الضوئية . لكنه يشعر ان هناك في الاسفل حشداً متحركاً يعج به الظل ، مصحوباً بالرغبة في التحدث بصوت مرتفع ، تلك الرغبة التي تلي المعارك عادة .

كان غارين الجالس وراء مكتبه ، يأكل قطعة رقيقة من الخبز المحمص تقضمها اسنانه بقضقضة ويتكلم مع الجنرال غالـّن الذي يصغي اليه وهو يسير جيئة وذهاباً في الحجرة .

« .. لا اريد ان استخلص نتائج منذ الآن . ولكن ، استناداً الى التقارير القليلة التي تلقيتها حتى الآن ، استطيع ان اؤكد ما يلي : هناك في كل مكان مراكز مقاومة ، كما ان في المدينة امكانية حدوث محاولة جديدة مماثلة لمحاولة تانغ.

– هل قبض عليه ، تانغ ؟

– كلا .

– مات ؟

– لست ادري بعد . لكن اليوم « تانغ » وغداً آخر . ان اموال انجلترا لا تزال قائمة وكذلك اموال رجال المال الصينيين نناضل او لا نناضل. ولكن.. »

نهض فنفخ على المكتب ونفض ثيابه ليزيل عنها فتات الخبز ثم مضى الى الصندوق الحديدي ففتحه وأخرج منشوراً اعطاه لغالـّن : « هذا هو الأهم .

– هنْ ! هذا الذميم العجوز !..

– كلا . انه يجهل ولا ريب وجود هذه النشرات » .

تطلعت من فوق كتف غالـن : منشور يعلن تشكيل حكومة جديدة ، تمنح رئاستها الى تشينغ داي .

« انهم عارفون بان بامكانهم اقامته ضدنا . فان له نفوذه ضد كل دعايتنا .

ـ أكان هذا المنشور بحوزتك منذ زمن ؟

ـ منذ ساعة .

ـ نفوذه .. نعم ، انه قطب. ألا ترى ان كل هذا قد دام اكثر مما ينبغي ؟»

راح غارين يفكر :

« صعب ..

« اضف الى ذلك انني بدأت احترز من هونغ .. انه منهمك الآن باغتيال الاشخاص الذين قدموا للحزب هبات كبيرة دون الرجوع في الرأي الى سواه ..

ـ بدله .

ـ ان هذا يتطلب الروية : فله صفات عظيمة واللحظة ليست مواتية . ثم انه اذا كف عن السير معنا فسينقلب ضدنا .

ـ وبعد !

ـ لن يستطيع الاتيان بامور كثيرة دائمة دوننا . ان الارهابيين قليلو الفطنة دائماً ضعيفو التنظيم .. ولكن في غضون بضعة ايام ..»

الغداة .

« طبعاً ! » قالها غارين وهو يدخل مكتبه هذا الصباح ليجد رزماً عاليه من التقارير . « الامر دائماً على هذا المنوال بعد « المشاكل » وانصرفنا الىالعمل . ان نشاطاً مفرطاً يتضح خلال هـــذه التقارير التي نرتبها وكأنها اشياء ميتة . رغبات وارادات من اول امس وأمس وعنف رجال كل ما أعرف عنهم انهم ماتوا او لاذوا بالفرار، وأمل رجال آخرين يريدون غداً ان يحاولوا ما لم يستطع تانغ انجاحه .

راح غارين يعمـــل بصمت ويجمع كل الوثائق ـ وهي كثيرة ـ التي تتعلق بتشينغ داي . واحياناً ، كان اذا انتقى وثيقة او علـّق عليها بالقلم الأحمر ، يقول بصوت خافت : « ايضاً » . كانت متاعبنا كلها تتجه ناحية هذا العجوز . كان تانغ ـ وقد أمـّل اجتياز الجسور بسرعة ليستحوز على الاسلحة المجمعة في

دائرة الدعاية ـ ، يريد اسناد رئاسة الحكومة الجديدة اليه . ان كل الذين يقلقهم النشاط أو يربكهم ، وكل الذين يعيشون في التحسر ، المجتمعون حول رؤساء الجمعيات السياسية السرية ، والشيوخ الذين تعاونوا في الماضي مع تشينغ داي ، يشكلون اليوم كتلة تفرض عليهم حياته ، هو ، تشينغ داي ، لوناً من النظام .

وها هي ذي تقـــارير هونغ ـ كونغ : وصل تانغ الى المدينة . انجلترا التي تعرف مقدار تدني الأرصدة لدى الدعاية ، تستعيد شجاعتهـــا . بدأت أفهم ـ بشكل لعله افضل مما كنت ابان وجودي في هونغ كونغ نفسها ـ نوعية هـــذه الحرب التي استعيضت المدافع فيها بالشعارات والتي لا تترك المدينة المهزومة فيها طعماً للنيران بل لهـــذا الصمت العظيم الذي يربين على الاضرابات الآسيوية ، لذلك الفراغ المقلق للمدن المهجورة ، حيث يختفي شبح مـــذعور وسط صوت مكتوم لاصطكاك القباقيب الخشبية الوحيد .. ان النصر ليس في اسم معركة ولكن في هذه الخطوط البيانية ، في هذه التقارير ، في انخفاض اسعار المنازل ، في طلبات المعونات ، في ازدهار اللوحات البيضاء التي تحل تدريجياً على مداخل ابنية هونغ كونغ الضخمة ، محل اسماء الشركات الرسمية .. اما الحرب الاخرى ، القديمة ، فانها في طور الاعداد هي الاخرى : فجيش تشينغ ـ تيونغ ـ مينغ ، يتدرب بادارة ضباط انجليز .

تقول التقارير ، الواحد اثر الآخر : « مال ، مال ، مال ! سوف نضطر قريباً الى التوقف عن دفع تعويضات الاضراب .. » وغارين يسطر قبالة كل طلب حرف D الكبير بعصبية : المرسوم . ان العديد من الشركات التي يدمرها المرسوم تدميراً نهائيـــاً ، والتي عرضت من قبل على بورودين مبالغ جسيمة ، تحولت الى اصدقاء تشينغ ـ داي .. غادر المكتب حوالى الساعة الحادية عشرة . « لا بد من انتزاع هذا المرسوم . فاذا جاء غالن ، قل له اني عند تشينغ ـ داي » ..

★

اشتغلت بعد ذلك مع نيكولاييف . ان رئيس الأمن هذا ، عميـــل سابق

للاوخرانا [1] يحيط بورودين بملفه الموجود اليوم لدى التشيكا [2] . انضم قبل الحرب الى المنظمات الارهابية فكان عوناً على توقيف عدد كبير من العاملين . كانت لديه معلومات وثيقة اذ كان يضم الى بياناته الخاصة اخباراً تقدمها زوجته، وهي ارهابية مخلصة تنعم بالاحترام ، ماتت بصورة غريبة . ولقد عملت ظروف مختلفة على انكماش ثقة رفاقه به دون ان تسمح برغم ذلك على تكوين فكرة تبلغ حداً من الرسوخ يسمح باعدامه . ومنذ ذلك الحين اعتبرته الاوخرانا « محترقاً » فتوقفت عن دفع ثمن خدماته . وكان عاجزاً عن العمل لذلك فقد تاه من بؤس الى بؤس ، فعمل دليلا ثم بائعاً لصور مخلة بالآداب العامة .. وكان من حين الى آخر يلتمس عون الشرطة فترسل له بعض المال لاعانته ، فكان يعيش متقززاً من ذاته ، دون هدف ، وان ظل متصلاً بهذه الشرطة كلون من روح الجسد . وفي ١٩١٤ ، اذ التمس منحة خمسين روبلا ـ كانت آخر ما طلب من عون ـ وشى بجارته ، المرأة العجوز التي كانت تخفي بعض الاسلحة ، على سبيل ابراء ذمته من المبلغ ..

وأنقذته الحرب . برح الجبهة عام ١٩١٧ وانتهى به المطاف الى فلاديفوستوك ثم تيين ـ تسن حيث أبحر منها ، بوصفه غسالاً ، على سفينة قاصدة كانتون . هنا استأنف عمله السابق كمخبر وعرف كيف يبدي من المهارة ما جعل سن ـ يات ـ سن يعهد اليه بعد اربعة اعوام ، بأحد المراكز الهامة في شرطته السرية . ويتظاهر الروسيون بأنهم نسوا مهنته القديمة .

وبينما كنت أنهي تنظيم بريد هونغ كونغ ، كان يدرس قمع تمرد الامس . « وعليه ، فاهم يا صغيري ، انتقيت اكبر قاعة ، انها قاعة كبيرة ، كبيرة جداً. واذن ، جلست على الكرسي الرئاسي ، وحدي ، وحيداً ، على المنصة ، وحدي تماما ، فاهم ، هن؟ هناك كاتب ضبط فقط في احدى الزوايا ومن ورائي ستة

---

١ و ٢ ـ منظمتان للاستخبارات السرية تابعتان للشيوعيين في الاتحاد السوفياتي ومجموعات الاحزاب الشيوعية . المترجم

من الحرس الأحمر لا يفقهون لغة غير الكانتونية ، ومسدس كل منهم في قبضته بالطبع . وعندما يدخل الشخص ، يضرب غالبا كعبيه ببعضهما (فهناك رجال شجعان كما يقول صديقك غارين) لكنه عندما يخرج ، لا يصفق بكعبيه مطلقاً. فلو كان هناك اناس ، نظارة ، لما استطعت الحصول على شيء مطلقاً : لأن المتهمين في هذه الحالة يقاومون . اما عندما نكون وحدنا تماماً .. لا تستطيع ان تدرك هذا : وحدنا تماماً . . » وبابتسامة رخوة،ابتسامة شيخ بدين اثاره منظر فتاة عارية،اضاف وهو يخبن جفنيه : «ليتك تدري كم يصبحون جبناء رعاديد..»

*

عندما عدت لتناول الطعام ، وجدت غارين منصرفاً الى الكتابة .

ـ « لحظة ، كدت انتهي . يجب ان أسجل ذلك فوراً والا نسيته . انه زيارتي لتشينغ داي » .

وبعد دقائق سمعت الحسيس الذي يصدر عن الريشة عندما تخط سطراً ، فدفع اوراقه .

« يبدو ان بيته الاخير قد بيع ، وهو يقيم لدى رسام فوتوغرافي فقير . ولهذا السبب ولا ريب فضل ان يقابلني هنا ذلك اليوم . ادخلوني الى المشغل ، حجرة صغيرة مليئة بالظل ، فقدم لي المقعد وجلس على الديوان . ومن مكان ما في احد الافنية ، كان بائع فوانيس يقرع بمطرقته التنك ـ الأمر الذي اضطرنا الى التحدث بصوت مرتفع . على اية حال ، ليس لك الا ان تقرأ . . »

ومد لي اوراقه .

ابدأ بـ : ولكن لا ريب . . ت. د. انه هو . غ . اني انا بالطبع . لكن لا، سأقرأ عليك هذا ، فلن تستطيع فهم البيانات التي سطرتها بايجاز .

أحنى رأسه . لكنه اردف عندما هم بالقراءة :

« اعفيك من مجاملات البداية التي لا طائل تحتها. انه متسام ووقور كالعادة.

وعندما أحرجته بسؤالي اياه عما اذا كان سيصوت الى جانب المرسوم ام لا قال:

« يا سيد غارين ، (وكان غارين يقلد الى حـد ما الصوت الضعيف الرتيب المترفع قليلاً الذي يستعمله العجوز) هل تسمح لي بان اطرح عليك بضعة اسئلة ؟ انا اعرف ان هذه ليست العادة الشائعة ..

ـ تفضل ارجوك .

ـ وددت ان اعرف ما اذا كنت تتذكر الوقت الذي أوجدنا فيه المدرسة الحربية .

ـ اتذكره تماماً .

ـ لعلك في هذه الحالة لم تنس انك عندما تفضلت بزيارتي حينذاك لتطلعني على مشروعك ، قلت لي ـ بل اكدت لي ـ ان هذه المدرسة قد اسست لتسمح لـ : كوانغ ـ تون [1] بالدفاع عن نفسها .

ـ وماذا بعد ؟

ـ ان تدافع عن نفسها . ولعلك تذكر انني ذهبت معك ومع القائد الشاب تشانغ كاي تشك لدى اشخاص بارزين . بـل انني ذهبت الى بعضهم وحدي احياناً . ولقد شتمني بعض الخطباء ونسبوا الي النزعـة العسكرية ، انا .. انا اعرف ان حياة شريفة لا تفلت من السباب ، لذلك فانني استخف بهـا . لكنني قلت لأشخاص جديرين بالاحترام والاعتبار وضعوا ثقتهم في شخصي : « لا بد وانكم تؤمنون بأنني رجل عادل . اسألكم ان ترسلوا ولدكم ـ ابنكم ـ الى هـذه المدرسة . واسألكم ان تنسوا ما علمتنا اياه حكمة اسلافنا عن شناعـة المهنـة العسكرية » . يا سيد غارين ، ألم أقل ذلك ؟

ـ ومن يجادل فيه ؟

ـ حسناً . لقد مات مائة وعشرون من اولئك الابناء .ثلاثة منهم كانوا ابناء

---

١ ـ كوانغ ـ تون ، هو الاسم الذي تحرف حتى اصبح كانتون ، المدينة الصينية المعروفة . المترجم

وحيدين يا سيد غارين ، من المسؤول عن هؤلاء الاموات ؟ انا »

انحنى انحناءة عميقة ويداه غارقتان في اكمامه ثم نهض قائلا :

ـ انني رجل مسن ، ولقد نسيت منذ امد طويل آمال شبابي ـ وهو زمن لم تكن قد ولدت فيه يا سيد غارين ـ انني اعرف ما هو الموت . اعرف ان هناك تضحيات ضرورية .. من اولئك الشبان ، كان ثلاثـــة وحيدي ذويهم ـ الابن الوحيد يا سيد غارين ـ وقـد شاهدت آباءهم بعد ذلك . ان كل ضابط شاب لا يسقط دفاعاً عن اقليمه المهدد ، يموت ميتة لا جدوى منها . ولقد اوصيت انا بهذه الميتة .

ـ ان هذه الحجج ممتازة . ويؤسفني انك لم تعرضها على الجنرال تانغ .

ـ كان الجنرال تانغ يعرفها ، فنسيها كما فعل آخرون .. يا سيد غارين ، لا تهمني الاحزاب . ولكن طالمـا كانت لجنة السبعة وجزء من الشعب ، يولون افكاري بعض القيمة ، فسوف لن اخفي عليهم شيئاً .

ثم أضاف ببطء شديد :

ـ اياً كان الخطر بالنسبة الي .. صدق انني آسف اذ أكلمك على هذا النحو. لكنك تضطرني. وانا آسف في الحقيقة .يا سيد غارين ، لن ادافع عن مشروعك ، بل انني سأمضي الى حد محـاربته .. اعتقد انك واصدقاءك لستم رعاة صالحين للشعب .. »

(وقال غارين بصوته الطبيعي : « ان الآباء هم الذين علموه الفرنسية .)

ـ .. بل انكم خطرون عليه . واعتقد انـكم خطرون غاية الخطورة لأنكم لا تحبونه .

ـ من يتوجب على الطفـــل ان يحب ! أهي المربية التي تحبه وتدعه يغرق او تلك التي لا تحبه ولكن تحسن السباحة فتنقذه !

فكر لحظة وحنى رأسه الى الوراء لينظر الي ثم أجاب باحترام :

ـ قد يتوقف ذلك يا سيد غارين على ما يحمل الطفل في جيوبه .

ـ لعمري ، لا بد وانك تعرف ذلك معرفة صحيحة طالما انك تساعده منذ

اكثر من عشرين عاماً وانت ما تزال فقيراً ..

ـ لم احاول ..

ـ وليس مثلي ! فاذا ما القيت نظرة على حذائي المثقوبين (واستندت الى الجدار لأريه نعليّ) ، يستدل على الفور انني اثريت من الفساد . كان ذلك يدعو الى الحيرة ، لكنه سخيف . اذ كان يستطيع الرد بأن أرصدتنا ، بالغة ما بلغت من القلة ، تستطيع شراء احذية جديدة . ترى هل فاته التفكير في ذلك ام تراه ما اراد الاسترسال في مناقشة تدمي شعوره ؟ انه ككل صينيي جيله ، يخشى العنف والغضب ، وهما ضواهر الاسفاف .. أخرج يديه من كميه وفتح ذراعيه بحركة واحدة ونهض .

ـ « هذا كل شيء » .

ووضع غارين الورقة الاخيرة على الطاولة وعقد يديه فوقها وكرر :

ـ « هذا كل شيء » .

ـ حسناً !

ـ اعتقد ان المسألة قد حلت . ان الشيء الوحيد الذي يجب عمله الآن هو الانتظار ، للعودة الى التحدث عن المرسوم والانتهاء منه . انه لحسن الحظ يعمل كل ما يجب لمساعدتنا .

ـ بأي شيء !

ـ بمطالبته بتوقيف الارهابيين (فهو بين معترضتين يستطيع المطالبة بذلك فاذا حصل على ادانتهم ، لن يجدهم رجال الشرطة ، هذا كل شيء) . ان هونغ يكرهه منذ وقت طويل ..

صباح اليوم التالي

حينما دخلت غرفة غارين كما هي العادة عندما يكون متأخراً ، سمعت صيحات : فتاتان صينيتان كانتا مستلقيتين على السرير عاريتين (بقعتين طويلتين ملساوين لأجساد محفوفة) فوجئتا بدخولي فنهضتا زاعقتين واحتمتا وراء ستار . اما غارين ، الذي كان يزرر ثوب الضابط العسكري ، فقد استدعى

الخادم وأعطاه تعليمات لصرف الامرأتين والدفع لهما عندما ترتديان ملابسهما .

قال لي ونحن في السلم : « عندما يمكث المرء هنا زمنا ما ، فـان الصينيات يثرن اثارة كبيرة ، ولسوف ترى . وعليه ، فان افضل مـا يعمل للانصراف بسلام الى الامور الجدية ، هو مضاجعتهن للكف عن التفكير فيهن .

ـ مضاجعة اثنتين معاً ، اظن ان الانسان يحصل على سلامين معاً ؟

ـ اذا احببت ، استدعها (او استدعها اذا كنت جاداً) الى غرفتك . ان لدينا مخبرين كثيرين في بيوت ضفاف النهر ، لكنني اتحاشاها ...

ـ ايذهب البعض الى تلك البيوت ؟

ـ وكيف ! ان الصينيات في منتهى البراعة ...

لكن نيكولاييف كان ينتظرنا اسفل السلم ، فما ان رأى غارين حتى هتف :

ـ « نعم ، نعم ، ما زال الأمر مستمراً ! اصغ الى هذا » !

وسحب من جيبه ورقة . وبينما اتجهنا الى دائرة الدعاية مشياً على الاقـدام (لم تكن الحرارة قد ارتفعت كثيراً بعد) ببطء بسبب بدانته ، راح يقرأ :

ـ رجال البعثات الاجنبية ونساؤها يفرون امـام حشد من الصينيين المسالمين . فلماذا اذا لم يكونوا مذنبين ؟ لقد وُجدت في حديقة البعثة عظـام كثيرة لاطفال صغار . فتأكد الآن دون ريب ان هذه المخلوقات العادمة الفضيلة كانت في غمرة انهماكها في ارضاء نهمها المفرط ، تفتك بوحشية بصغار الاطفـال الصينيين الابرياء ...

سأل غارين :

ـ أهو هونغ ؟ نعم ؟

ـ يعنى كالعادة ، املاؤه طالما لا يحسن كتابة الاحرف الصينية ... وهذه الورقة الثالثة ...

ـ نعم . لقد منعته عن مثل هذه السخافات . لقد بدأ يزعجني ، هونغ !

ـ واظن انه ينوي الاستمرار ... لم اره يعمل بسرور في دائرة الدعاية إلا

عندما يحرر بيانات معادية للمسيحية . انه يقول ان الشعب سعيد بمثل هــذه البيانات ... لعل ...

ـ لا مجال للبحث . ارسله الي عندما يصل .

ـ كان يرغب في رؤيتك هذا الصباح واعتقد انه ينتظرك ...

ـ آه ! احذر بصورة خاصة من أن تسأله عن نواياه حيال تشينغ داي. ابحث عن معلوماتك في مكان آخر .

ـ حسناً . قل لي ، غارين ؟

ـ ماذا ؟

ـ هل تعلم ان صاحب سيا ـ تشييو صاحب المصرف قد مات ؟

ـ سكين ؟

ـ رصاصة في رأسه عندما عبرنا الجسور .

ـ وتظن ان هونغ ؟

ـ انا لا اظن : انا اعرف .

ـ الم تقل له ان يترك ...

ـ بلسانك وبلسان بورودين . (وبالمناسبة ، ان صحة بورودين أفضــل وسيحضر ولا ريب عما قليل) . لم يعد هونغ يتصرف إلا كما يحلو له .

ـ أكان يعرف ان سيا ـ تشييو يدعمنا ؟

ـ كل المعرفة . ولكن ماذا يهمه ! ان سيا ـ تشييو مفرط الغنى ... لم يقع أي سلب ، كالعادة ...

هز غارين رأسه دون ان يجيب . ووصلنا .

رافقت نيكولاييف فأخذت من مكتبه اضبارة تقارير هونغ كونغ الاخيرة وعدت الى الهبوط . فلما دخلت مكتب غارين ، اصطدمت بهونغ الذي كان ينصرف . كان يتحدث بلكنة قوية وبصوت خفيض تقريباً يتضح فيــه غضب أسيء كبته :

ـ عليك ان تحكم على ما اكتب . هذا حسن . ولكن ليس على عواطفي .

أن التعذيب – انا ارى – عمل عادل في هذا المقام . لأن حيـــاة انسان البؤس تعذيب طويل . واولئك الذين يعلّمون رجال البؤس على احتمال بؤسهم ، يجب ان يعاقبوا ، سواء اكانوا احباراً مسيحيين ام رجالا آخرين . انهم لا يعلمون . لا يعلمون. يجب – على ما اعتقـــد – ارغامهم (وابرز الكلمة بحركة كما لو كان يضرب) على الفهم . لا بان نطلق عليهم الجنود ، كلا ، بـــل المجذومين . ان ذراع الانسان يتحول الى وحل ، فيسيل ، الانسان . ويحدثني عن الخضوع والانسياق . هذا حسن . لكن ذلك الانسان يحدثني بشيء آخر .

وابتسم وهو ينصرف ابتسامة تكشف عن اسنانه وتعطي وجهـــه الحقود فجأة سمة طفولية تقريباً .

أخذ غارين يفكر مكتئباً . وعندما رفع رأسه، التقى بصره ببصري. قال:

– « لقد اخطرت المطران بالخطر الذي يتهدد مبشريه . لقد اصبح رحيلهم ضروريا ولكن ليس تقتيلهم .

– وماذا بعد ؟

– ارسل يجيبني بان الاحتياطات المناسبة ستتخذ . اما عن الباقي « فان الله يمنحنا الاستشهاد او يمسكه عنا ! لتكن مشيئته » ! لقد رحل بعض المبشرين..

وبينما هو يتكلم، انتقل طرفه الى المكتب ليتوقف امام واحدة من المذكرات البيضاء التي تغطيها نشافته .

– آه ! آه ! لقد غادر تشينغ داي المصور واستقر في دارة وصفها صديق متغيب رهن مشيئته ! ... ولقد حصل هذا الانسان الحكيم امس مساء عـــلى حراسة عسكرية ... آه ! كم يكون مفيـــداً لو ابدلت لجنة السبعة بلجنـــة دكتاتورية اكثر ضمانة، وانشئت تنظيمات «تشيكا»،فلا يكون علينا بعد ذلك ان نعتمد على اشخاص مثل هونغ ! ... ان هناك الكثير مما يجب عمله !

« ماذا بعد ؟ نعم ، ادخل !

حمل الحاجب مدرجاً من الحرير ارسل من شانغهاي من قبل احد المندوبين

كتبت عليه بخط جميل وبحبر صيني عبارات التهاني .

وفي الاسفل ، ورد ما يشبه الملاحظة ، اضيفت بحبر افتح واكثر اتساخا .

نحن (واعقبها اربعة اسماء) وقعنا على هذا بدمائنا بعد ان قطع كل منا احد اصابعه، لنعرب عن اعجابنا بمواطنينا الكانتونيين الذين تجرأوا على مناوأة انجلترا الامبريالية على هذا الشكل العظيم الروعة . فنحن اذن نعرب لهم عن احترامنا ونتوقع ان يستمر النضال حتى النصر الكامل. ووقعوا بعد ذلك وتبعت تواقيع جماعية عديدة (توقيع عن كل فصيلة) .

ردد غارين :

«حتى النصر الكامل. المرسوم، المرسوم! المرسوم! ان كل شيء كامن فيه. فاذا لم نمنع السفن نهائياً عن المجيء الى هنا من هونغ كونغ، فسينتهي بنا الامر الى التهشم رغم كل شيء ! يجب ان يصدر هذا المرسوم ، يجب. والا ، ماذا نفعل هنا ؟...

اخذ رزمة من التقارير عن هونغ كونغ من المكتب . لم تكن غير مطالبات بالمال .

استأنف قائلا

– وبالانتظار ، ليس هناك غير حل واحد ، التخلي عن الاضراب العام .

ان آسيا كلها تتابع اخيراً نضالنا الذي شرعنا به : يكفي ان بقيت هونغ كونغ مشلولة في نظر الجميع . سيكفي الاضراب الكامل الذي قام بها رجال البحر والبحارة والحمالون (الكولي) باشراف النقابات . ان هونغ كونغ دون اذرع عاملة تساوي هونغ كونغ قاحلة . واننا لنحتاج هنا حاجة ماسة الى مال الدولية ، حاجة كبرى ! ...

وطفق يكتب تقريراً ، لأن المقررات التي تلزم الدولية يجب ان يتخذها بورودين ، فابرز الضوء نتوءات وجهه المائل وغضونه . ان اقدم سلطة لآسيا تعود الى الظهور : فالمشافي في هونغ كونغ التي هجرها المرضون ، باتت مليئة

بالمرضى . وفوق هذه الورقة التي يصفّرها الضوء ، كان مريض ايضاً يكتب الى مريض آخر ...

الساعة الثانية

ان موقف هونغ الجديد يقلق غارين الى اقصى الحدود . انه يعتمد عليه ليخلصه من تشينغ داي . ولكن اذا كانت تقارير المخبرين تسمح له بالعلم بان هونغ لن ينتظر ان يوجه اليه الاتهام ليعمل ، وان اليقين الذي في قرارة نفسه من ان الشرطة لما تصبح ضده بعد يدفعه الى ان يعمل بسرعة ، فانه لا يدري شيئاً مما سيكون عليه فعل الارهابي . قال لي : ان شخصية غريبة اخذت تظهر في كيانه منذ بعض الوقت : اذ طفا تحت الثقافة الظاهرية المتكونة من التأملات في بعض الافكار العنيفة المحمومة التي عُثر عليها مصادفة في الكتب والمحادثات التي لم يختر قراءتها ، الصيني الجاهل ،الصيني الذي لا يجيد قراءة الاحرف الصينية وراح يطغى على الصيني الذي يقرأ الكتب الفرنسية والانجليزية . وهذه الشخصية الجديدة خاضعة كل الخضوع لعنف طبعها وحماس الشباب ، وللتجربة الوحيدة التي دخلت فيها بالفعل واعني تجربة البؤس ... لقد عاش يافعاً بين اناس كان البؤس يشكل عالمهم ، قريباً جداً من هذه الاوساط الدنيا الموجودة في المدن الصينية الكبرى ، التي يختلط فيها المرضى والكهول والمنهارين من كل نوع ، واولئك الذين يموتون جوعاً ذات يوم والذين يبقيهم ما يصلح عذاء للحيوان في لون من الخبال والضعف الدائب ، وهؤلاء كثرة كاثرة . ان انحطاط هؤلاء الذين ينحصر همهم الوحيد في الحصول على ما يقوم بأودهم اليومي ، يبلغ حداً من الكمال دائماً تقريبا لا يترك معه مكانا حتى للحقد . فالعواطف والقلب والكرامة كلها قد انهارت ، فلا تظهر اندفاعات موجدة أو يأس هنا وهناك إلا بالكاد وكأنها فوق مستوى هذه الكثافة من المزق ومن الاجساد الممرغة في التراب ومن هذه الرؤوس ذات الابصار الشاخصة المرتفقة الى المداقّ التي قدمها المبشرون ... اما بالنسبة للآخرين ، لاولئك الذين يصبحون اتفاقا جنوداً أو

اشقياء ، اولئك الذين ما يزالون قادرين على الأتيان بانتفاضة ما، والذين يعدون تركيبات معقدة ليتوصلوا الى تهريب التبغ ، فان الحقد موجود، لازب واخوي، يعيش معهم بانتظار الايام التي تصبح فيها القطعات المستضعفة مستعدة لاستمداد العون من النهابين ومشعلي الحرائق . لقد تحرر هونغ من البؤس ، لكنه لم ينس درسه ولا صورة العالم الذي يبرزه ذلك الدرس ، وحشيا ملونا بالحقد العاجز . انه يقول : « هناك عرقان : الـ..بـ..ؤ ساء والآخرون ».فالتقزز الذي يحس به حيال المتنفذين والاغنياء ، والذي تكوّن خلال طفولته ، يبلغ حداً يجعله لا يتمنى النفوذ ولا الغنى . وتدريجيا ، بمقدار ما راح يبتعد عن توقع المعجزات اكتشف انه لا يكره سعادة الاغنياء قط بل الاحترام الذي يحسون به ازاء انفسهم . لقد قال ايضا : « ان الفقير لا يستطيع تقدير نفسه » . كان بمقدوره ان يحتمل ذلك لو انه فكرّ مع اسلافه في ان وجوده ليس محدوداً بسياق حياته الخاصة . لكنه اذ تعلق بالحاضر بكل القوة التي منحه اياها اكتشافه للموت ، فقد كف عن القبول والبحث والمناقشة ، وراح يكره . انه يرى في البؤس شيطانا متكلف اللطف ، همه الدائب ان يثبت للانسان انحطاطه ونذالته وضعفه واستعداده للتذليل . انه يكره قبل كل شيء الرجل الذي يحترم نفسه الرجل الواثق من نفسه ، ما في ذلك ريبة ولا شك ، حتى ليستحيل ان يكون المرء اكثر تمرداً على عرقه منه . ان اشمئزازه من « الاحترامية » ، الفضيلة الصينية الاولى ، هو الذي قاده الى صفوف الثوار. فهو، ككل الذين يتأججون بالعاطفة ، يعبر عما بنفسه بقوة ، الأمر الذي يعطيه التسلط .وقد زكا هذا التسلط بفضل طبيعة حقده المفرط المثاليين – لتشينغ داي بصورة خاصة – ، تلك الطبيعة التي يعزون اليها خطأ دوافع سياسية . انه يكره المثاليين لأنهم يزعمون « انهم يسوون المسائل » . وهو لا يريد للمسائل ان تسوى . انه لا يريد هجران حقده الحاضر لصالح مستقبل غير مؤكد . انه يتكلم بغضب عن اولئك الذين ينسون ان الحياة واحدة فيقترحون التضحية بانفسهم في سبيل ابنائهم . فهو ، هونغ ، ليس من اولئك الذين لهم اولاد ولا من اولئك الذين يضحون

بأنفسم أو الذين يرتأون خيراً لغير انفسهم . لقد قال : ليجد تشينع داي متعة الاصغاء الى شيخ فاضل يحدثه عن العدالة لو انه سعى الى قوته كالكثيرين بين الفضلات والقمامة ! انه لا يريد ان يرى في الزعيم الشيخ المكروب غير ذاك الذي يزمع باسم العدالة ، حرمانه من الانتقام. وهو اذ يفكر في اعترافات روبكسي المبهمة ، يقدّر ان كثيراً من الناس تركوا انفسهم يتحولون عن دعوتهم الوحيدة انسياقا وراء سراب مثل أعلى . انه يتوقع ان لا ينهي حياته بتأجير عصافير متحركة أو ان يدع الشيخوخة تحنو عليه . واذ سمع احد صينيي الشمال يتلو هذه القصيدة :

اقاتل وحدي فأربح أو أخسر
لست بحاجة لأحد يجعلني حراً
ولا اريد أي يسوع مسيح ان يفكر
انه قد يموت من اجلي .

حتى بادر الى حفظها . ان تأثير روبكسي ثم غارين عملا على انماء الحاجة الى الواقعية الغضبي الخاضعة كلياً للحقد ، المعتلجة في نفسه. انه يعتبر حياته كحياة مصاب بالسل لا أمل في شفائه وان كان لا يزال ممتلئاً بالقوة. وفي مجموع احاسيسه التي يبلغ اعتكارها حده الاقصى ، يقيم الحقد فيها ترتيباً وحشياً عنيفاً فيتخذ سمة الواجب .

ان العمل فيخدمة الحقد وحده عمل ليس بالكذب ولا بالدناءة ولا بالضعف: ان الحقد وحده يقابل الكلمات مقابلة كافية . وهذه الحاجة الى العمل هي التي جعلت منه حليفنا . لكنه يرى ان الدولية تتحرك ببطء شديد وانها توفر حياة كثير من الناس ، لذلك فقد اغتال مرتين خلال هذا الاسبوع اناساً كانت الدولية تريد حمايتهم . لقد قال غارين : « ان كل جريمة قتل تزيد الثقة التي له في نفسه ، وقد بدأ يعي تدريجياً بأنه في اعماقه فوضوي : ان القطيعة بيننا قريبة ، بشرط ان لا تقع قبل الاوان ! »

وبعد صمت قصير :

« قلة هم الاعداء الذين أفهمهم خيراً مما أفهمه .. »

الغداة

عنـــدما دخلت مكتب غارين ، كان كلين وبورودين يتحدثان جلوساً في مقاعد متقابلة قرب الباب،ويراقبان بنظرة مواربة هونغ الواقف وسط الحجرة، يتناقش مع غارين ويداه في جيوبه . لقد غادر بورودين فراش المرض هـــذا الصباح ، أصفر الوجه ناحلاً حتى انه ليبدو أشبه بالصينيين اليوم . وكان في الجو وفي موقف الاشخاص شيء من العداء بل والمشاجرة تقريباً . كان هونغ يتكلم بلكنته البـارزة ومقاطعه المتفككة دون ان يتحرك . وازاء حركة فكيه العنيفة (اذ كان يتحدث كمن يعض)فكرت فجأة في الجملة التي نقلها اليّ جيرار: « عندما سأحكم بالعقوبة القصوى .. »

كان يقول : « في فرنسا لم يكن هناك من يجرؤ على قطع رأس الملك ،هنْ ! مع ذلك فقد قطعوه آخر الامر ولم تمت فرنسا . يجب ان يبدأ دائمـــاً بقطع رأس الملك .

ـ ليس عندما يدفع .

ـ عندما يدفع وعندما لا يدفع . وماذا يهمني اذا كان يدفع ؟

ـ يهمنا ، نحن . حذار يا هونغ : ان العمل الارهابي يتوقف على نوع الشرطة التي تقابله ..

ـ ماذا ؟ »

كرر غارين جملته فبدا هونغ وكأنه فهم المقصود ، لكنه ظل جامداً ينظر الى بلاط الغرفة منكب الجبين .

اضاف غارين :

ـ لكل شيء حينه . فالثورة ليست بمثل هذه البساطة .

ـ اوه ! الثورة ..

فقال بورودين فجأة وهو يستدير نحوه :

ـ الثورة هي ان ندفع رواتب الجيش !

ـ واذن لم يعد هناك شيء جدير بالاهتمام . ان نختار ؟ لماذا ؟ ألأنه لم يعـــد لديكم شيء من العدالة ؟ انني اترك هذه الشواغل للمحترم تشينغ داي ، ان سنه يعذر مثلها . انها تناسب هذا العجوز الضار ، فالسياسة لا تعنيني .

فأجاب غارين :

ـ هو كذلك ، هو كذلك . خطابات ! هل تعلم ماذا يفعل مدراء الوكالات الكبيرة في هونغ كونغ في هذه اللحظة ! انهم يقفون صفاً متوالياً عند الحاكم للحصول على اعانات والمصارف ترفض تقديم المبالغ المطلوبة . وفي المرفأ لا يزال « الرجال المحترمون » يحملون الأحمال بدلاً من « الكولي » فيمشون « كالأوز تحت الاحمال » . اننا ندمر هونغ كونغ ، ان نحول احدى اغنى مقاطعات التاج الى مرفأ صغير ـ دون ان نتحدث عن القدوة . وانت ، ماذا تفعل !

صمت هونغ بادىء الامر . لكنني أحسست من طريقته بالنظر الى غارين بانه سيتكلم . واخيراً حزم امره فقال :

ـ ان كل واقع اجتماعي لون من الدنس. حياة المرء الوحيدة ، ان لا يفقدها، هذا كل شيء .

لكن هذا بدا اشبه بمقدمة .. فقال بورودين :

ـ وبعد ؟

ـ تسأل ماذا أعمل ؟

والتفت الى بورودين فجابهه بنظرته هذه المرة وقال :

ـ ما لا تجرؤون على فعله.. ان ينفق رجال فقراء من ايقار العمل شيء معيب جداً ، اما ان نقتل اعداء الحزب بواسطة « معتـّرين »[1] فقراء فشيء حسن .

---

١ ـ الكلمة واردة في النص باللغة العامية الفرنسية « *Bougre* » ولا شبيه لها في لغتنا غير ما نسبت .
المترجم

ولكن ان يحاذر المرء تدنيس يديه بامور مماثلة ، فذلك شيء جيد كذلك ، هن !
أجاب بورودين الذي بدأ الغضب يغلي في صدره :
ـ لعلني اخاف ؟
ـ ان تعرض نفسك للقتل ، كلا .
وهز رأسه من أعلى الى اسفل واضاف :
ـ اما من الباقي فنعم .
ـ لكل دوره !
ـ ها ، هذا دوري ، هنْ ؟
اخذ مرجل الغضب يغلي في صدره هو الآخر،فاصبحت لكنته اكثر بروزاً:
ـ هل تظنون انني لا اشعر بالنفور ؟ انا ، لأنه يشق عليّ ذلك ، لا أجعل غيري دائماً يقوم به ، هل تسمعون ؟ نعم ، انت تنظر الى السيد كلين . لقد « حذف » احد كبار النبلاء ، اعرف ذلك . لقد سألته ..

وترك جملته معلقة وراح ينظر الى كل من بورودين وكلين بالتناوب ثم ضحك بعصبية وتمتم :
ـ ان كل البورجوازيين ليسوا اصحاب مصانع .
ثم هز كتفيه بعنف فجأة وانصرف بما يشبه العدو ، صافقاً الباب وراءه .
سكوت .
قال غارين:
ـ لم يتحسن الوضع .
سأل كلين :
ـ ماذا تظن انه فاعل ؟
ـ ضد تشينغ داي ، لقد طالب تشينغ داي برأسه تقريباً ..
ثم ، بعد ان فكر قليلاً :
ـ لقد فهمني عندما قلت له : ان العمل الارهابي يجب ان يحسب حساباً للشرطة التي يجدها الارهابيون قبالتهم . واذن ، فلسوف يحاول التخلص من

تشينغ داي بأسرع ما يمكن .. هذا محتمل جداً . ولكن ، ابتداء من اليوم ، سوف نكون نحن انفسنا ضمن اهدافه .. واول هؤلاء السادة ..

نهض بورودين وهو يداعب شاربه باسنانه ويربط نطاقه الذي يزعجه ومضى ، فتبعناه . وعلى الجدار ، كانت فراشة كبيرة مسترخية فوق المصباح الكهربائي ، تلقي ظلها بقعة كبيرة سوداء .

الساعة التاسعة

لا ريب ان كلمات ميروف تركت غارين نهباً للقلق لأنه ألمح للمرة الاولى ، الى مرضه دون ان اسأله .

– « المرض يا شيخ ، لا يمكن معرفة ماهيته عندما لا يكون المرء مريضاً . يُظن انه شيء يناضل المرء ضده ، شيء غريب . ولكن لا : فالمرض هو ذاتنا بالذات .. وعليه ، فانه ما ان تنحل قضية هونغ كونغ ..

وبعد العشاء ، وردت برقية : ان جيش تشينغ تيونغ مينغ قد غادر وي – شيئو وانه يمشي الى كانتون .

علمت عندما استيقظت ، ان غارين اصيب بنوبة مرض حمل على اثرها الى المستشفى هذه الليلة ، وانني استطيع الذهاب لعيادته ابتداء من الساعة السادسة .

أعلن هونغ والفوضويون ان اجتماعات ستعقد بعد ظهر هذا اليوم في القاعات التي تملكها كبريات النقابات وان هونغ نفسه سيلقي خطاباً في اجتماع «الجونك» ، اقوى جمعية لحمالي مرفأ كانتون وفي اجتماعات بعض الجمعيات الثانوية. ولقد عيّن بورودين ماو لينغ وو ، وهو احد ألمع خطباء الكيومنتانغ ، ليرد عليه .

غداً سيعلن عملاؤنا التخلي عن الاضراب العام في هونغ كونغ وبنفس الوقت ، سيقوم عملاء مزدوجون بابلاغ الأمن العام الانجليزي ان الصينيين ، وقد أثار حفيظتهم فشلهم في الاستمرار بالاضراب العام ، يعدون العدة للتمرد ، وذلك

لكي لا ينقشع جو الكرب المسيطر على المدينة . لقد حاولت البيوتات الانجليزية في الايام الاخيرة في سواتيئو ، خلق مصلحة نقل سيتم بفضلها ارسال الاشياء المنزلة من البواخر في هذا الميناء ، الى داخل الصين . لذلك فقد تقرر اضراب « الكولي » بالأمس بناء على امرنا من قبل نقابات سواتيئو كما صدر الأمر بمصادرة السلع الانجليزية المنشأ هذا الصباح . وأوقف التجار الذين وافقوا على استلام البضائع الانجليزية جميعهم وعوقبوا بغرامة بلغت ثلثي ثرواتهم . اما اولئك الذين لن يدفعوا الغرامات المفروضة عليهم في غضون عشرة ايام فسيعدمون .

الساعة الخامسة

لقد استوقفني العمل طويلاً ، فلا بد وان يكون اجتماع « الجونك » قد بدأ .

توقفنا ، الأمين اليوناني التابع لنيكولاييف وانا ، امام ما يشبه المصنع ، ودخلنا مرآباً عبرناه وفقاً للفراغ بين سيارات الفورد ثم اجتزنا فناء ايضاً ، ليصادفنا سقف دون زخارف وجدار ابيض كبير رسمت الامطار على سطحه ذيولاً عريضة خضراء وكأنها دلاء من الاحماض سفحت بطيش ثم باب . امام هذا الباب ، كان حارس ينقل احذية محلية من الحبال والكتان جالساً فوق صندوق خشبي ، يري مسدسه الاوتوماتيكي لأطفال كان الصغار منهم عراة. قدم له رفيقي بطاقة ، اضطر لكي ينظر اليها ان ينهض ويدفع برخاوة عنقود الاطفال ذوي الذؤابة الوحيدة. دخلنا. جلبة خافتة تتناثر فيها جمل هنا وهناك، تتصاعد وسط ضباب كثيف مائل للزرقة . لم أتبين غير الموشورين الكبيرين من الشمس اللذين ينخلان الذرات، تلقي بهما نافذتان فيغوصان اشبه بحواجز مائلة في ظلال القاعة. ضياء ، غبار ، دخان ، مادة سائلة وحادة ، يرسم التبغ عليها رسومه التزيينية. لم نتحقق بعد من الاجتماع غير هذه الضوضاء المبددة كالغبار . ولكن ها هي ذي تنتظم تحت صوت الخطيب اللاهث الكامن في الظل وتتحول الى صرخة موزونة: « نعم ، نعم ــ كلا ــ كلا » تنتزعها كل جملة من حناجر الجمهور وتنسق وقع الخطابات على ايقاع صفائح معدنية مكتومة وكأنها مراد الطلبة .

ألفت عيناي الظل اولاً باول . لم تكن في القاعة اية زينة . ثلاث منصات: واحدة للمكتب الذي يجلس الرئيس واثنان من المعاونين وراءه امام لوح كبير مغطى بالاحرف الصينية (أهي وصية سن يات سن ؟ قد يكون كذلك ، لكنه بعيد جداً ، تتعذر قراءته ، وثانية صعد فوقها الخطيب الذي نسمعه ونراه في غير وضوح . اما على الثالثة ، فقد جلس وراء ما يشبه المنبر الصغير ، يحيط به البصر ، صيني مسن دقيق الانف محدودبه ، أشيب الشعر مجزوزه كفرشاة . انه متكىء الى مرفقيه ، جذعه الى الامام ، ينتظر .

لم أشهد اية حركة بين الجمهور الذي بت اراه بوضوح اكثر. ان هذه القاعة الصغيرة تضم بين اربع وخمسمائة شخص . وعلى مقربة من المكتب، وقفت بعض الطالبات ذوات الشعر المقصوص. ومراوح السقف الكهربائية تخفق ببطء الهواء المكثف بتثاقل . اما المستمعون، فمتراصون بعضهم الى جانب بعض او منفردون تقريباً بين جنود وطلاب وصغار تجار و « كولي » عمال عاديين ، فقد راحوا يؤيدون بأصواتهم مرفقة بحركة من اعناقهم الى الامام كالكلاب التي تنبح، دون ان تتحرك اجسامهم ، لم تكن هناك أيد متشابكة ولا مرافق على الركب وعلى ذقون على الايدي ، بل اجساد متصلبة ، عمودية ، ميتة ووجوه كلفة تقدم فكوكها باهتزازات دائماً تلك التأييدات : ذلك النباح .

بدأت الآن اسمع بوضوح كافٍ لافهم ما يقال : كان الصوت ، صوت هونغ . لم يكن متردداً شأنه عندما يتكلم بالفرنسية ، بل كان مليئاً متدفقاً . وكان قد بلغ نهاية الخطاب :

« يقولون انهم أتونا بالحرية ! لقد حطمنا المملكة كما تحطم البيضة منذ خمسة اعوام حينما كانوا لا يزالون يزحفون على بطونهم تحت سياط اسيادهم العسكريين!

« ويقولون بواسطة عملائهم المأجورين الذين يدفع حجابهم اجورهم انهم علمونا الثورة !

فهل كنا بحاجة اليهم ؟

« هل كان لرؤساء تاي بينغ مستشارون روسيون ؟
« ولرؤساء البوكسرز [1] !

قيل كل هـــذا بمفردات صينية عامية ، ولكن بحنق وغضب كانت تقطعه صيحات « نعم ، نعم ! » متزايدة صادرة عن الحلوق . راح يصرخ الآن :

« عندما تهيأ مضطهدونا لذبح البروليتاريين الكانتونيين ، أكان الروسيون هم الذين خضّوا أواني البنزين ! من ذا الذي القى باولئك الخنازير الى النهر وقـــد بقرت بطونهم ، اولئك المتطوعين التجار ؟..
– نعم ، نعم ! نعم ، نعم ! نعم ، نعم ! »

وكان ماو متكئاً على حاله ساكناً وصامتاً . وكان من الظاهر الواضح ان الجمعية كلهـــا الى جانب الخطيب تقريباً ، لذلك لم يكن ليجدي القول لاولئك المجتمعين هنا بانهم لم يهزموا التجار المتطوعين وحدهم .

حصل هونغ على ما كان يريد . لا ريب انه كان يتكلم منذ بعض الوقت . ولما كان عليه ان يخطب في اجتماعات اخرى فقد نزل عن المنصة ومضى مسرعاً وسط جلبة احترام ولغط ما استطاع ماو ، الذي بدأ الكلام ، السيطرة عليهما. استحال سمـــاع كلمة واحدة من اقواله . كان الاجتماع مدبراً ، اذ راحت الاحتجاجات والصيحات تصدر عن سبعة او ثمـــانية من الصينيين المتناثرين في القاعة ، وعنهم دائماً وحدهم . اما الجمهور فكان تواقاً الى الاصغـــاء رغم موقفه العدائي . ان ماو خطيب مشهور ومسن . لكنه لا يرفع صوته . ظـــل يتكلم وسط الصيحات والاحتجاجات وهو يرمق باهتمام مختلف اجزاء القاعـــة المثارة ضده . وفجأة،وبصوت قوي وواضح ، هتف وهو يحصد فراغ القاعة بذراعه :
– « انظروا اولئك الذين يشتمونني هنا ليقاطعوني خوفاً من كلامي ! »

---

١ – *Boxers* : اسم اطلقه الانجليز على المتمردين الصينيين عام ١٩٠٠ الذين عرضوا السفارات الاجنبية للخطر مما اضطر السلطات العسكرية في الدول الكبرى الى التدخل المسلح . المترجم

انعطاف . لقد ربح الجولة : التفت كل الى واحد من الفوضويين ، فلم تعد القاعة ضد ماو بل اعداؤه فحسب .

« ان اولئك الذين يعيشون من الاموال الانجليزية بينما يموت مضربونا جوعاً، اقل من .. »

يستحيل سماع نهاية العبارة . انحنى ماو الى الامام وفمه مفتوح على سعته . ومن اركان القاعة انطلقت السباب المبهمة على كل جرس صيني تصحبها ضوضاء همهمات كالتي تصدر عن الضراء . وتعالى بعض السباب فهيمن على الضجيج :

« كلب ! مأجور ! خائن ! كولي ! »

ولعل ماو كان يتحدث ، لكنني لم اسمعه . وخفت الصخب في هذه الاثناء ، الا من بعض السباب المنفردة اشبه بالتصفيقات الاخيرة في المسرح .. عندئذ ، عاد يستأثر بالاهتمام دفعـــة واحدة برفع يديه فوق رأسه وبمضاعفة قوة صوته فجأة :

« كولي ! نعم ، كولي ! لقد ذهبت دائماً الى حيث يقيم البؤساء ، ولكن لا لأهتف مثلكم باسمهم بين اسماء اللصوص والخونة ! عندما كنت طفلاً .. »

(هنـاك اشتباكات بين الفوضويين واولئك الذين يريدون الاصغاء . لكن السماع متيسر) .

« اقسمت ان أربط حياتي بحياتهم . ولن يحررني احد من هذا القسم ، لأن اولئك الذين أقسمته امامهم قد ماتوا .. »

ثم ألقى بذراعيه الى الامام باسطاً يديه :

« انتم المحرومون من المأوى ، انتم المحرومون من الارز ، انتم جميعاً ! انتم يا من ليس لكم اسم ، يا من تعرفـــون بالجرح الذي على كتفكم بانكم تفرغون الاخشاب وتجرون السفن ! وبالجرح الذي على اوراككم بانكم عمـــال مرفأ !

اسمعوا ، اسمعوا القول الذي جبل فخره بدمكم ! هن ! ما أحسن ما يقولون : كولي ، اولئك السادة النجب ، بمثل اللهجة التي قلت فيها منذ حين : كلاب ، حينما تكلمت عنهم !

ـ نعم ، نعم .. »

عادت الاستحسانات الموزونة من جديد .

« نعم ، نعم !

– الموت للذين يهينون الشعب !.. »

من الذي هتف ؟ لا يدري احد . كان الصوت ضعيفاً متردداً .

ولكن لم يلبث الصوت المجلجل ان زأر :

« المو .. و .. و .. و .. ت .. »

انه هدير ، صيحة مضطربة تصبح هيجاناً صاخباً ، لا يميز المرء الكلمة ، لكن اللهجة تكفي .

حاول بعض الفوضويين بلوغ المنصة ، لكن ماو لم يكن وحده عند قدومه . فأخذ رجاله الآن يمنعون الفوضويين من الوصول الى المنصة ، يساعدهم الجمهور . واعتلى احد الفوضويين اكتاف احد الرفاق محاولاً اسماع صوته . لكنه هوجم على الفور وألقي ارضاً وضُرب . وقامت مشاجرة ، فخرجنا . وعندما بلغنا الباب ، التفت الى الوراء : خلال سحب الدخان التي باتت اكثر كثافة ، كانت الألبسة الغامقة والاثواب البيضاء ولبوس عمال المرفأ الزرقاء او القاتمة تختلط وكأنهاصورمهزوزةمشوشة ازبأرتبقبضات ايد تقفز فوقهاخوذبلونالطبشور..

شاهدت ماو في الشارع يمضي في سبيله . ان الطريقة التي استطاع بها ماو ان يتخلص من الموقف الذي وُجد فيه تشهد ببراعته . ولكن ، لو ان اخرقاً لم يهتف « كولي ! » ماذا كان سيحصل ؟ ان نصراً يدين لمصادفة كتلك المصادفة ، نصر عقيم . ثم ان ماو لم يدافع الا عن نفسه .. قال لي مرافقي اليوناني عندما تركني : « تأمل يا سيدي ، انه لو كان هونغ ما يزال حاضراً لما استطاع ماو ان ينتصر بهذه البساطة .. »

ينتصر ؟

عندما وصلت الى المستشفى ، كان الليل قد أرخى سدوله تماماً . في الزوايا الأربعة لجناح ، كان عدد من الجنود قائمين تحت السعف والمسدسات بايديهم . دخلت . الممرات مقفرة في مثل هذه الساعة ، باستثناء ممرض واحد ، كان نائماً ، مستلقياً على اريكة خشبية بارزة عند المدخل ، استيقظ على وقع اقدامي فوق البلاط ، فقادني الى غرفة غارين .

لينوليوم [١] ، جدران مبيضة بالكلس ، مروحة كهربائية عريضة ، رائحة العقاقير ، الإيتير بصورة خاصة . الكلّة نصف مرفوعة : كأن غارين مستلقياً على سرير ذي ستر من النسيج الدقيق « التول » . جلست الى رأس فراشه . فانزلق خيزران المقعد تحت يدي النديتين . وتحرر جسدي المتعب ، بينما كان البعوض الازلي يطن في الخارج .. سعف ينحدر من السقف ، صلباً ، كسدف معدني على صفحة الليل الرخص عديم الصور . ورائحة التفسخ مع رائحة ازهار الحديقة العسلية تتصاعدان معاً من الارض فتدخلان مع الهواء الفاتر ، تخرقهما احياناً رائحة ثالثة : رائحة الماء الراكد والقار والحديد . وعلى البعد ، وابل اصوات الماجونغ (نوع من الدومينو صيني المنشأ) والهتافات الصينية والاسهم النارية واجهزة التنبيه في السيارات . وعندما تصل الريح من النهر وكأنها آتية من مغيض ، ونلازم الصمت ، نسمع كماناً وحيد الوتر : مسرح متنقل او احد الصناع يعزف وهو نصف نائم في حانوته المغلق بالالواح الخشبية . ووراء الاشجار ، يتصاعد ضوء أمغر مدخن ، حتى ليقال ان عيداً ضخماً متنقلاً يتم هناك : انه المدينة .

سألني غارين حالما وصلت، وشعره منهمر على وجهه وعيناه نصف مغمضتين ووجهه منهوك :

---

١ ـ نوع من القماش يصنع من نسيج الجوت المطلي بزيت الكتان وبدقيق الفلين ، ويستعمل في صناعة البسط ، (*Linoleum*) . المترجم

« وبعد ؟

– لا شيء مهم » .

أطلعته على بعض الانباء ثم لزمت الصمت . وفي الممر كما في الحجرة ، تضيء المصابيح وقد احاطت بها الحشرات ، وكأن عليها ان تحترق ابداً . وابتعد خطو الممرض ..

– « هل ترغب في ان اتركك لوحدك ؟

– كلا ، على العكس . لا ارغب في البقاء وحيداً . ما عدت احب التفكير في نفسي ، وعندما اكون مريضاً ، افكر فيها دائماً .. »

ان وهن صوته الجلي عادة والمرتعد قليلاً هذا المساء وكأن فكرته لا تكاد تهيمن على اقواله ، يتفق مع هذه المصابيح الكئيبة وهذا السكون ، وهذه الرائحة ، رائحة اجساد متعرقة ، التي تفوق احياناً على رائحة الإيتير او البستان ، حيث يتمشى الجنود ، ومع كل هذا المستشفى الذي تبدو الحشرات المدندنة وحدها هي الحية فيه ، في جماعات صاخبة حول زجاج المصابيح ..

– « غريب : بعد الدعوى التي اقيمت ضدي ، كنت اشعر – وبقوة كبيرة – باحساس بطلان حياتي كلها ،بطلان انسانية تسوقها قوى حمقاء .والآن، يعود هذا الشعور .. يا له من خرق ، المرض .. مع ذلك ، يخيل الي انني اناضل ضد الخرق الانساني ، اذ اعمل ما اعمل هنا .. الا ان هذا الخرق يستعيد سلطته .. »

تقلب على سريره فارتفعت رائحة الحمى الحامضة .

– « آه ! هذا الإجمال المفلات ، الذي يتيح للانسان ان يشعر بان حياته يسيطر عليها شيء ما .. يا لغرابتها ، قوة الذكريات ، عندما يكون المرء مريضاً . لقد فكرت في محاكمتي طيلة النهار واتساءل عن السبب ؟ ان الاحساس بالخرق الذي كان النظام الاجتماعي يشعرنيه ، قد امتد بعد هذه الدعوى الى كل ما هو انساني .. ثم انني لا اجد موانع في ذلك .. مع ذلك ، مع ذلك .. في

هذه اللحظة نفسها ، كم من الناس مستغرق في التفكير في انتصارات لم يكونوا قبل عامين يحلمون مجرد حلم انها ممكنة ! لقـــد خلقت املهم . املهم . لست اميل الى صياغة الجمل الرنانة ، لكن أمل الناس آخر الأمر ، انمـا هو موجب حياتهم وموتهم .. ومن ثم ! .. لا يجوز بالطبـع ان يفرط المرء في الكلام عندما تكون الحمى قوية بافراط .. يا للغباوة ،.. ان يفكر المرء في ذاته طيلة النهار .. لماذا يا ترى افكر في تلك الدعوى ، لمـاذا ؟ انها قديمة جداً ونائية ، يا للغباء ، الحمى ، لكن المرء ليرى اشياء .. »

جاء الممرض يدفع الباب دون جلبة . وتقلب غارين في فراشه ايضاً فعادت رائحة المرض الانسانية تسيطر من جديد على رائحة الإيتير .

– « في كازان ، ليلة عيد ميلاد العام ١٩ ، ذلك الميلاد الخارق ... كان بورودين هناك، كالعادة ابداً ... ماذا؟ انهم يحملون كل الآلهة امام الـكاتدرائية . صور ضخمة كصور عربات الكرنفال (عيـــد المساخر) ، آلهة سمكة ، يضم جسدها قماط عرائس البحر ... مائتا إله ، ثلاثمائة ... لوثر[1] كذلك . وجاء الموسيقيون المتدثرون بالفراء يثيرون جلبة هائلة وصخباً مستعملـين كل الادوات الموسيقية التي وجدوها . وشبت النار في المحرقة ، فأخذ الآلهة يدورون حـول الساحة على اكتاف الاشخاص ، سود على انعكاس المحرقة ، والثلج ... زحـــام انتصاري ! ولما تعب الحاملون ، القوا بآلهاتهم الى ألسنة اللهب : ومیض هائـل فرقع الرؤوس وابرز الكاتدرائية البيضاء من الليل ... مـاذا ؟ الثورة ؟ نعم ، هكذا ، طيلة ستة أو سبع ساعات . وددت لو شهدتُ الشفق !... قذارة!.. يالكثرة ما يرى الانسان من اشياء . الثورة ، لا يمكن ان تلقى طعمة للنـــار : ان كل ما ليس هي اسوأ منها،يجب الاقرار بهذا حتى عندما تتقزز النفس منها... كنفس الانسان ذاته ! ليس بها ولا بدونها . لقد تعلمت هـــذا في الثانوية ...

١ ـ يعني هنا مارتن لوثر ، الراهب الاوغسطيني الذي ادخل اصلاحات دينية في المانيـا في القرن السادس عشر ، اشياعه اليوم : اللوثريون . المترجم

باللاتينية . لسون يكنسون . ماذا ؟ لعله كان هناك بعض الثلج ايضاً...ماذا »؟

كان عند حد الهذيان . اثاره وقع صوته فراح يتكلم على طبقة مرتفعة قليلاً ترددت ضائعة في المستشفى . انحنى الممرض على اذني وقال :

« قال الطبيب ان لا نجعل السيد قوميسير الدعاية يتكلم طويلاً ...» ثم رفع صوته واضاف :

« سيدي القوميسير ، هل ترغب في اخذ الكلورال لتنام » ؟

الغداة

غادر روبير نورمن ، المستشار الاميركي في الحكومة ، كانتون امس مساء . لم يكن منذ بضعة اشهر ليستشار في أمر ، إلا اذا تعلق الامر باتخاذ قرارات عديمة الاهمية . ولعله اعتقد انه لم يعد في وضع مأمون ، وهو اعتقاد لا يعوزه الدليل ... ولقد سُمّي بورودين اخيراً مستشار الحكومة رسمياً مكان نورمن ومديراً لمصالح الجيوش البرية والطيران . بذلك لن تخضع افعال غالن الذي يتولى قيادة الاركان العامة الكانتونية اغير اشراف بورودين بعد الآن ، واصبح الجيش بكامله تقريباً بين يدي الدولية .

٣ الانسان

تؤكد برقيات هونغ كونغ للعالم اجمع ان المدينة استعادت نشاطها . لكنها تضيف : باستثناء عمال المرفأ وحدهم الذين لم يعودوا بعد الى العمل . لكنهم لن يستأنفوا العمل . فالمرفأ ما يزال مقفراً والمدينة تزداد شبهاً بتلك الصورة الفارغة السوداء التي كانت تنقدّ على السماء عندما غادرتها . لسوف تبحث هونغ كونغ قريباً عن نوع العمل الذي يصلح لجزيرة معزولة ... بينما تفلت منها ثروتها الرئيسية ، سوق الارز . اذ اقام كبار المنتجين صلات مع مانيلا وسايغون . لقد كتب احد اعضاء غرفة التجارة في رسالة احتجزناها يقول : « اذا لم تقرر الحكومة الانجليزية التدخل المسلح، فان هونغ كونغ ستصبح في غضون عام اول مرفأ يمكن الاستغناء عنه في الشرق الاقصى ...»

فصائل المتطوعين تجوب المدينة . سيارات كثيرة يملكها التجار زودت بالرشاشات . والليلة ، احيط مبنى الهاتف ، — ولا يمكن المقاومة دون هاتف — بالحواجز من الاسلاك الشائكة ، في حين يجري العمل على اقامة حواجز أخرى حول خزانات المياه وقصر الحاكم ، ومستودعات الذخيرة . وعلى الرغم من الثقة التي توليها جنودها المتطوعين ، فان دائرة الامن الانجليزية ، وقد اخذت على

حين غرة، لا تني ترسل الرسالة تلو الأخرى والرسول تلو الآخر الى الجنرال تشينغ تيونغ مينغ ليغذ السير على كانتون .

★

قال لي نيكولاييف بصوته القسسي : « ـ شايف ـ يا عزيزي ، انه يحسن صنعاً بالرحيل ، غارين ، ذلك افضل كثيراً .. لقد كلمني ميروف عنه. اذا عمد الى البقاء خمسة عشر يوماً آخر فسيبقى بعدها اكثر مما يتوقع .. اوه ! لا يدفن المرء هنا اسوأ مما يدفن في امكنة اخرى ..

– يقول انه لا يستطيع الذهاب الآن .

– نعم ، نعم .. فالمرضى هنا ليسوا قلة نادرة ، هنا .. واعتماداً على طريقتنا في العيش فان المرء يفلت من براثن الجو المداري كلياً .. »

اراني بطنه المنتفخ باسماً :

– انا ، افضل هذا على سواه .. ثم ، اذا كان الشيء المهم في نظره غير معرض للخطر ، فانه مصاب بمرض انعدام الارادة ،غارين.. كالآخرين جميعهم.

– هل تعتقد ان الحياة لا قيمة لها في نظره ؟

– ليس كثيراً ، ليس كثيراً .. »

★

وصل منذ حين تقرير احد خدم تشينغ داي وهو مخبر .

ان تشينغ داي مدرك ان الارهابيين ينوون اغتياله ، ولقد نُصح بالفرار فرفض . لكن المخبر سمعه يقول لاحد اصدقائه : « اذا لم تكن حياتي على قدر كاف من القوة لايقافهم فلعل موتي يكون قادراً .. ».فالمسألة هذه المرة لم تعد متعلقة باغتيال بل بانتحار ، فاذا انتحر تشينغ داي في سبيل القضية ، على الطريقة الآسيوية، فانه سيمنح تلك القضية بانتحاره، قوة يصعب النضال ضدها.

ويقول نيكولاييف : « وانه لقادر على فعلها » . مع هذا فان القلق يرون على دائرة الأمن .

★

غادر غارين المستشفى مؤخراً ، سيأتي ميروف أو الطبيب الصيني كل صباح لاعطائه الزرقات .

★

الغداة

لم يكن تشينغ داي وحده سبب قلق نيكولاييف : لقد استولى تشينغ تيونغ مينغ امس على شووتشوو وهو يسير الآن الى كانتون بعد ان هزم القوات الكانتونية . يعتبر بورودين هذه القطعات ، المؤلفة من مأجورين قدماء جندهم سن يات سن ، عديمة القيمة ، عاجزة عن القتال اذا لم تكن محاطة بالجيش الاحمر والمستجدين . لكن المستجدين بقيادة تشانغ كاي تشيك باقون في وامبوا والجيش الاحمر بقيادة غالن لا يغادر معسكراته . ان فصائل الدعاية وحدها القادرة على اعداد النصر ولكن ليس على الحصول عليه ، ستغادر المدينة غداً. قال غارين : « لتتخذ لجنة السبعة قرارها . فاما الجيش الاحمر والمرسوم الآن واما تشينغ تيونغ مينغ . وتشينغ تيونغ مينغ بالنسبة لهم يوازي فصيلة الاعدام فلينتقوا ! »

اثناء الليل

الساعة الحادية عشرة في منزل بورودين . وكلين وانا ، ننتظر أوبته بالقرب من النافذة . وعلى مائدة صغيرة بجانب كلين ، زجاجة كحول الارز وقدح . جاء احد سعاة دائرة الأمن بالمنشور الازرق الذي ما يزال هنا على طيته السيئة ، فوق المائدة التي نسي الخدم رفع ما عليها . انهم يلصقون منشورات مماثلة على جدران المدينة .

انها المقطع الاخير من وصية تشينغ داي :

« انا ، تشينغ داي ، قد اوردت نفسي مورد الحمام طوعـاً لكي ارسخ في اذهان مواطني ما يلي : ان اكبر خير لنا ، السلام ، يجب ان لا يمـزق بدداً في التيه الذي يعد بعض المستشارين السيئين العدة لاغراق الشعب الصيني فيه ...».

هذه المنشورات التي تستطيع وحدها ان تلحق بنا ضرراً يفوق كل تبشير تشينغ داي ، من ذا الذي يلصقها الآن في هذه الساعة ؟

هل قتل نفسه ؟ هل قُتل ؟

ذهب غارين الى دائرة الأمن والى بورودين . لقد طلب بادىء الأمر التثبت من موت تشينغ داي ، لكنه اضطر الى الذهاب قبل ان يحصل على الجـواب الذي لا بد انه وجد نسخة ثانية عنه في دائرة الأمن . ولقد حمل الينا الجواب منذ حين : مات تشينغ داي بطعنة سكين في صدره . اننـا ننتظر بصبر نافـذ ونحن نضرب افخاذنا بقبضات ايدينا اثر كل لسعة بعوضة . سمعت صوت كلين ، ضعيفاً وبعيداً وكأنني أسمعه خلال حمى قوية :

ـ انا ، انا اعرفه . لذلك اقول انه غير ممكن ..

قلت منذ حين ان هذا الانتحار يبدو لي حقيقياً فاعترض كلين باحتـــداد لا مبرر له ، يبذل جهده للسيطرة عليه . لقد لاحظت دائماً شيئاً ما غريبـــاً في سلوك هذا الرجل الذي يخفي مظهره، مظهر الملاكم العسكري ، ثقافة كبرى . قال لي غارين ، الذي يكن له صداقة عميقة ، عندما سألته ، الجملة التي سبق ان قالها لي جيرار : « هنا ، شبه قريب لما يحصل في الفرقة الاجنبيـــة ، فلست اعرف عن حياته الماضية اكثر مما يعرفه عنها الناس جميعاً » . واراه هذه الليلة واجداً صعوبة في التعبير عما يريد الافصاح عنه ، وقد اسند ذراعيه العريضين الى الاريكة بمثل القوة التي تشاهد على التماثيل المنحوتة ، صعوبة ليس مردها انـــه يتكلم باللغة الفرنسية . انه يرفق جملة بحركة الى الامام من جـــذعه وهو مغمض

العينين وكأنه يناضل ضد كلماته . انه ثمل ، بسكرة مشرقة – متوترة عضلاته وافكاره – تعطي صوته رنة محتومة قاسية .

« غير مم ... كن » .

رحت انظر اليه وقد برمت بنغمة الاغنية الوتيرية التي يخلقهادوران المروحة .

« لا يمكنك ان تعرف .. انه .. لا يمكن القول . يجب معرفة اشخاص خبروا ذلك . انه شيء طويل . ليقول المرء لنفسه بادىء الأمر . في غضون ساعة – أو نصف ساعة – سوف اكون مطمئناً . ثم يفكر : هذا هو الحال : والآن يجب عمل ذلك . ثم يصبح المرء في خبال ناعم يحدق في الضوء ، يحسّ بسعادة لأنه ينظر الى النور ، يبتسم كالاحمق ويعلم انه كفّ عن التفكير في الموضوع .. كف عن الاغراق في التفكير .. ومع ذلك ، يفكر .. ثم تعود الصورة من اولها . وتصبح الفكرة حينئذ اقوى من الذات ، في تلك الفترة ، الفكرة وليس السلوك . ويقول المرء لنفسه : « آخ ! لمَ هذه الحكاية ! »

سألته عفوياً :

– « ألا تظن ان المرء يعود الى حب الحياة ؟

– الحياة والموت ، يكف المرء عن معرفة كنههما ! لا يعرف إلا : انه يجب ان يسلك هذا السلوك . كان مرفقاي مشدودين الى اضلاعي ويداي على مقبض السكين . فلم يكن هناك إلا ان يغرز النصل . كلا .. لا تستطيع ان تتخيل . فقد اهز كتفي .. غباء ، كل هذا ، غباء ! اما دوافعي فأكون قد نسيتها ، حتى الدوافع . يجب لأنه يجب ، هذا كل شيء .. عندئذ ذهلت . بل كنت خجلاً ، خجلاً على الأخص . كنت اجد نفسي ابعث على التقزز لدرجة ما عدت اصلح بعدها إلا لالقاء نفسي في القناة . انه شيء بليد اليس كذلك ؟ نعم ، بليد . ولقد دام ذلك فترة طويلة ... فجاء النهار يضع حداً لكل شيء . والمرء لا يستطيع قتل نفسه في وضح النهار . اعني ان يقتل نفسه وهو يفكر في ذلك . لعل من الممكن ان يفعل ذلك اعتباطا ، دون تفكير .. ولكن ليس ... « لقد اقتضاني العثور على ذاتي بعض الوقت ... »

ضحك فكانت ضحكته زائفة حتى وجدتني اقصد الى النافذة وكأنني انظر ما اذا كان غارين سيتأخر في العودة اكثر مما فعل . سمعت ، رغم المروحة ، صوت اظفاره تقرع خيزران المقعد . كان يتحدث لنفسه .. وبتثاقل : ظناً منه انه يبدد كربه بالالحاح على هذا الموضوع ، وليدلل على انه يحكم بتبصر على كل هذه الاشياء ، استأنف قائلاً :

« انه شيء صعب .. بالنسبة لاولئك الذين يقومون به نتيجة لبلوغهم حد اليأس ، هناك وسائل لبلوغ الغاية دون احساس كلي بما يفعلون .. اما تشينغ داي ، هو ، فانه يقتل نفسه في سبيل شيء يتعلق به ، فاهم ، يتعلق به اكثر من تعلقه بكل الاشياء الاخرى . اكثر . فهو ان نجح في تحقيقه ، فانما يقوم بأنبل تصرف في حياته ، نعم . لهذا السبب ، لا يمكنه استعمال وسائل . هذا غير ممكن .لأنه ليس من داع لها في هذه الحالة ..

– لكن النتيجة ستكون ذاتها ..

– هذا ! هـذا ما لا تستطيع فهمه !.. انت ، انت تقول : النتيجة . ما اصعبه ! انه شبيه باليابانيين على نحو ما ، هل تفهم ؟ ان تشينغ داي لا يقوم بذلك ليبقى جديراً بذاته ، ولا ليحيي . ماذا نقول بالفرنسية ؟ .. بطولياً ، نعم . تشينغ ، هو ، فعلها ليظل جديراً بما .. برسالته . لذلك لا يمكنه ، كما لا بد ترى .. انه يقتل نفسه بغتة !

« مع ذلك .. »

وصمت فجأة وراح يصغي :

وقفت سيارة وارتفعت دمدمة اصوات : « انتظرك الساعـة السادسة » . واستأنفت السيارة سيرها .

غارين .

« كلين ، ان بورودين بانتظارك » .

والتفت الي وقال : « لنصعد » . وما كدنا نجلس حتى قال :

« ماذا كان يروي لك ؟ »

– انه يستحيل ان يكون تشينغ داي قد قتل نفسه .

– نعم ، ادري ، كان يقول دائماً انه لن يستطيع قط ان يلعب علينا هـذه اللعبة . هذا ما يتطلب التحقيق .

– ما رأيك بذلك شخصياً ؟

– لا شيء واضح بعد .

– وهو ؟

- من هو ، بورودين ؟ كلا . تخطىء اذ تبتسم: ليس لنا اي دور في القضية، وانا واثق . ولا دور ثانوي بل حتى ولا عفوي . انه على مثل ذهولي .

– ولكن لا ، .. ماذا عن التعليمات التي اعطيت لهونغ .

– اوه ، هذه ، انها مسألة اخرى . فهونغ ، بحسب التقرير الاول ، ليس هناك ما يؤكد انه على علاقة ما بالأمر: ان الحراسة العسكرية لم تتوقف عن القيام بمهمتها ولم يدخل اي أحد . لكن لا اهمية لهذا . اذ لدينا شيء آخر نعمله مختلف جداً . اولاً : الاعلانات . سجل وترجم هذا :

« يجب ان لا ننسى ابداً ان رجلاً محترماً من الصين كلها ، تشينغ داي ، قد اغتيل بالأمس بنذالة من قبل عملاء اعدائنا .

ولنشرة اخرى يجب ان نلصقها الى جانب هذه :

« العار لانجلترا ، العار لسفاحي شانغهاي وكانتون !

« وستضع في ركن النشرة الثانية بأحرف صغيرة : ٢٠ ايار – ٢٥ حزيران (قصة شنغهاي وحكاية شامين) .

« حسناً . لسوف يفهم الناس . والآن الى البيان الموجه للفصائل : لم ينتحر تشينغ داي بل اغتيل من قبل العملاء الانجليز. ما من شيء سيحول دون المكتب السياسي وتحقيق العدالة .

« بيان زاهر ولكن قصير .

– هل تتخلى عن الارهابيين ؟

– هونغ كونغ اولاً . انها ضربة للفوز بالمرسوم ! »

جلس . وبينما كنت اترجم ، اخذ يرسم طيوراً خيالية على النشاف ثم نهض وراح يمشي جيئة وذهاباً ثم عاد الى المكتب وعاد الى الرسم ، وترك القلم من جديد وراح يتفحص مسدسه بعناية واخيراً استغرق في التفكير وذقنه في يديه. قدمت له الترجمتين .

« هل انت واثق تماماً من ترجمتك النصين ؟

– كل الثقة . قل لي ، لعلك لا ترى مانعاً في ان تخبرني بما ينفع كل هذا ؟

– انه واضح ·

– ليس تماماً .

– انها ستلصق على الجدران ، تصور .

رحت احدق في وجهه مشدوهاً .

« ولكن تدبر ، قبل ان يُطبع منشورك سيكون الصينيون كلهم قد قرأوا المنشور الآخر ؟..

– كلا .

– اتريد ان تأمر بنزعها ؟ سيكون الأمر طويلاً .

– كلا ! سوف آمر بتغطيتها . سوف تستخدم القطعات التي تتبعنا في مهام مختلفة فلا تدخل المدينة قبـــل الظهر . وفي الساعة الخامسة ، ستجوب المدينة اعداد من غير النظاميين وهي تطلق النار من بنادقها . لقـــد احيطت الشرطة بالأمر . بذلك لن يجرؤ البورجوازيون الخروج من مساكنهم خلال ساعات . اما الآخرون فلا يحسنون القراءة . وعلى اية حال ، سوف تغطى اعلاناتهم كلها قبل الساعة الثالثة . وغداً – او بالاحرى اليوم : فالساعة الآن الواحدة – في الساعة الثامنة ، ستكون هناك خمسة آلاف من نشراتنا على الجدران . ولسوف نصدر مائة الف نشرة على شكل الفراشات . اما العشرون او الخمسون نشرة التي قد

ننسى تغطيتها ، فانها لن تستطيع شيئاً ضد كل هذا، بالاضافة الى انها لن تُعرف قبل ان تُعرف نشراتنا !

– وماذا لو اهتبلوا فرصة هذه الميتة ليحاولوا القيام بأمر ما ؟

– لن يستطيعوا شيئاً · ما زال الوقت مبكراً ، فهم لا يملكون جنوداً بعد او لا يكادون يملكون . اما هم انفسهم ، فلن يجرؤوا . اما الشعب ، اذا فرضنا جدلاً انه لن يصدقنا دون تحفظ ، فانه سوف يتردد . ولا يمكن القيام بحركة جماهيرية ، قوامها المترددون . كلا ، ماشي الحال .

– واذا لم يكن قد انتحر ..

– لو انه انتحر لكانت امامنا الآن امور مختلفة جداً تقوم ضدنا .

– يجب الافتراض بان الذين جعلوه « منتحراً » هم الذين يكسبون من النشرة الزرقاء ؟

– ان اولئك الذين طبعوا المنشور الازرق في وضع مشابه لوضعنا . لقد حصلوا على معلوماتهم قبلنا ، هذا كل شيء . انهم استخدموا هذه المعلومات بأسرع ما يمكن . نحن كذلك ، سنطبع منشورات . اوه ! لسوف نعرف عما قليل ما يقتضينا عمله ! اما في الوقت الحاضر ، فيجب الرد بأسرع سرعة . يحتمل كثيراً ان تكون هذه الميتة من صنع .. »

وهبطنا السلالم بما يشبه الجري .

– وبورودين .

– لقد شاهدته مشاهدة عابرة . مريض . لكل دوره . وانني اتساءل عما اذا كانوا لم يحاولوا تسميمه . ان خدمه موضع ثقة ، ثم انهم، اضافة الى ذلك.. »

بقيت الجملة مبتورة تماماً . كان يهبط بسرعة ورائي، فأخطأ درجة واستطاع في آخر لحظة ان يمسك بعوارض الحاجز . توقف ثانية واستعاد تنفسه وألقى بشعره الى خلف وعاد يهبط من جديد بمثل السرعة التي بدأ بها قبل تعثره وهو يتكلم :

– اضافة الى ذلك ، مراقبون .. »
السيارة .
« الى المطبعة » .

وضعنا مسدساتنا على المقعد في متناول ايدينا. بدت المدينة شديدة الهدوء.. لم نكد لسرعتنا نتبين الاضواء الكهربائية التي كنا نتجاوزها الا كالخطوط ، بينما كانت الحوانيت المغلقة بألواح خشبية سيئة الضم تسمح بتسرب ضياء خافت . لا قمر ولا بيوت مقطعة . الحياة ملتصقة بالأرض : قناديل زيتية ، بائعون متجولون ، مطاعم حقيرة ، مصابيح ذات لهب مستقيم في الليل الدافىء معدوم الهواء ، ظلال سريعة ، سدوف جامدة ، حواكي ، حواكي .. (فونوغراف) ، وهناك في البعيد ، طلقات نارية برغم دلك .

ها هي ذي المطبعة . مطبعتنا . سقيفة طويلة ... وفي الداخل ، يبلغ الضوء مبلغاً من الحدة أرغمنا بادىء الامر على اغلاق عيوننا . ان العمال الذين يشتغلون هنا جميعهم من الحزب ، وهم مختارون . مع ذلك فان الابواب هـذه الليلة كانت محروسة عسكرياً . كان الجنود ينتظرون وصولنا. جاء ملازم اول صغير السن – مستجد – يتلقى اوامر غارين . « لا يسمح بدخول ولا خروح احد » . وعُلق العمل الذي كانوا بصدد انجازه . مددت يدي بالترجمتين الى مدير المطبعة –وهو صيني – فراح يقطعهما بعناية اسطراً عمودية أعطى لكل منضد سطراً .

قال لي غارين : « صحح وأتني بأول ورقة تطبع . سأكون في دائرة الأمن. والا ، فستنتظرني فيها . سوف آمر بارسال سيارة اليك » .

نضد النصان بسرعة واخذ المدير يصل الاسطر من جديد بعضها الى جانب بعض ثم قدم لي قمطر التجارب . لم يكن أي من العمال ليعرف معنى النشرة التي أسهم في طباعتها .

كانت آلتان طابعتان موقفتين وعمالهما المختصون ينتظرون « الصيغ » التي سنأتيهم بها . اخطاء قليلة ، دقيقتان اخريان لتصحيحها ، ثم حملت الصيغ الى

الآلة حيث شُرع بتثبيتها بالايدي والاقدام العارية بآن واحد .

أخذت النسخة الاولى المطبوعة ومضيت .

كانت هناك سيارة نقلتني بمنتهى السرعة الى دائرة الامن . وعلى البعد، بعض الاعيرة النارية . استقبلني مستجد عند الباب ثم قادني الى المكتب الذي كان غارين ينتظرني فيه ، عبر مماشي خاوية (مضاءة بمصابيح متباعدة بعضها عن بعض ومحاطة بهالات) يتخذ وقع الخطى فيها اتساع الاصوات الليلية وجلاءها. بدأت أحس بتعب مسهب مخلوط بالحمية وأشعر في حلقي بطعم الليالي البيضاء : حمى و كحول ..

حجرة مكتب كبيرة جيدة الاضاءة وغارين يمشي فيها جيئة وذهابا ووجهه منهوك ويداه في جيوبه . وبلصق الجدار ، كان سرير ميدان صيني من الخشب المحفور يستلقي فوقه نيكولاييف .

– « واذن ؟ »

مددت له يدي بالاعلان وقلت :

– « انتبه ، فالحبر ما يزال طرياً : لقد تلطخت يداي به .

هز كتفيه وبسط الاعلان ونظر اليه ثم قبض شفتيه وكأنه يقضمها . (فان لا يعرف اللغة الكانتونية ولا الاحرف ، او بالحري ان يعرف هذه وتلك معرفة رديئة أمر كان يحنقه ، في حين لم يكن لديه الوقت ليتعلمها) .

– « هل انت واثق من انها جيدة ؟

– كن مطمئناً . قل لي ، هل تعلم بانهم بدأوا يقتتلون في الشوارع ؟

– يقتتلون ؟

– الخلاصة . لست ادري ، لكنني سمعت طلقات نارية وانا في طريقي الى هنا .

– هل كانت الطلقات كثيرة ؟

– اوه ! كلا ، متباعدة .

– حسناً ، لا بأس . انهم رجالنـــا وقد بدأوا باصطياد ملصقي الاعلانات الزرقاء .

والتفت الى نيكولاييف الذي كان متمدداً على جنبه ورأسه مسندة الى مرفقه :

– « لنتابع . هل تعرف بين صفوفهم شخصاً ، ليس على جانب كبير من الجرأة ، على ان يكون عارفاً بشيء ما ؟

– اعتقد انني ادرك ما تقوله بعبارة . شخص غير جريء جداً .

– نعم .

– في رأيي ، ليس هناك انسان عظيم الجرأة ، في مثل هذه الظروف .

– بلى .

كان غارين معقود الذراعين مغمض العينين ، وكان نيكولاييف ينظر اليه نظرة غريبة ، نظرة حاقدة تقريباً ..

– بلى . هونغ لا يمكن ان يتكلم .

– يمكننا ان نجرب ..

– لا جدوى من ذلك !

– ان لك مشاعر طيبة حيال اصدقائك القدماء . هذا جيد . كما تشاء .. »

هز غارين كتفيه :

– نعم أم لا !

صمت الآخر ورحنا ننتظر ..

– لعلّ لينغ ..

– آه ، كلا ، لا اريد « لعلات » هنْ !

– لكنك انت الذي تجعلني اقول لعل .. اقول لك انه ما من شك ابداً . عندما يكون المرء قد شاهد اشخاصاً يبحثون عن ذويهم او عن زوجاتهم بين الصور ، عندما يكون قد شاهد صينيين يستجوبون المساجين ، عندئذ يدرك ابعاد تصرفه ..

– أهو رئيس نقابة لينغ هذا ؟

ـ نقابة « كولي » المرفأ .
ـ وبحسب رأيك ، أهو مطلع ؟
ـ سنرى .. الحاصل ، في رأيي ، نعم .
ـ حسناً ، اتفقنا .

تمطى نيكولاييف واعتمد مسند المقعد ثم نهض في شيء من التثاقل .

ـ « اظن اننا سنناله غداً ..

وبينما هو يبتسم نصف ابتسامة متخذاً وضعاً شاذاً من الاحترام والسخرية قال :

ـ « واذن ؟ ماذا نعمل ؟

أدى غارين حركة مفادها : « وماذا يهمني » . فطاف على وجه نيكولاييف تعبير شاحب من الازدراء . ونظر اليه غارين وقد برز فكه الى الامام وقال :

ـ « الخنق البطيء » .

فأغمض البدين عينيه دلالة على الموافقة وأشعل لفافة ثم مضى بخطى متثاقلة .

*

الغداة

غادرت سيارتي امام السوق الذي تحف ابنيته السماء النفيسة بخطوط من الجص ، خشنة في ميع الضياء . كانت كل الحوانيت التي تباع المشروبات فيها غاصة برجال يرتدون ألبسة من الكتان الرمادي او الازرق كعمال المرفأ . ما ان توقفت السيارة حتى ارتفعت صيحات طويلة متمادية يحملها ذلك الهواء الشفاف الشبيه بهواء النهر . وغادر الرجال الحوانيت بسرعة وهم ينبشون جيوبهم ليعيدوا اليها اجزاء النقود التي أخرجوها منها منذ حين ، مبادرين متدافعين بالمناكب . صعدوا الواحد بعد الآخر الى سيارات نقل الركاب ونقل البضائع المصادرة التي كانت تنتظرهم عند طرف الجدار الابيض . ومن جديد أخذ الرؤساء يتفقدون الرجال : كان بعضهم متغيباً . ولكن ها هم اولاء قادمون ، يهتفون بدورهم ، مطبقين بين اسنانهم على قطع المقانق القصيرة ، منهمكين في

ربط سروايلهم .. وراحت الشاحنات تتحرك ، الواحدة تلو الاخرى ، بتثاقل وقرقعة بطيئة .

ارتحلت فصيلة الدعاية الثانية التي تسبق الجيش الاحمر .

كانت منشوراتنا ملصقة على كل الجدران . اما وصية تشينغ داي الزائفة — التي اصبحت مغطاة الآن في كل مكان — التي طبعت على امل احداث هيجان جماهيري ولكن دون تحضير مسبق ، فقد جاءت بعد فوات الاوان ، اذ يبدو انه ما من عصيان هناك في طور التحضير . تُرى هل كانت هزيمة تانـغ درساً ؟ هل يفعل الخوف من وصول تشانغ تيونغ مينغ ضد كل محاولة ثورة جديدة ؟

المستجدون يجوبون المدينة .

تعاقب العملاء طيلة الصبيحة لدى غارين الذي زادت هذه الليلة البيضاء في اغوار وجهه . كان متهالكاً على المكتب ورأسه في يده اليسرى ، يملي ويعطي الأوامر وهو في منتهى الاعياء . لقد عمل على طباعة نشرات جديدة : نهاية هونغ كونغ ، بحسبها ، كان الانجليز يغادرون المدينة باعداد كبيرة والمصارف تعلن اغلاق فروعها اغلاقاً نهائياً . (وهو غير صحيح : فالمصارف ، خضوعاً منها لاوامر لندن ، كانت ما تزال تساعد بقدر ما تستطيع — ولكن دون ابتسار — المشاريع الانجليزية) . لكنه من جهة اخرى ، جعل عملاءنا يعلنون ان شووتشوو قد سقطت وان الجيش الاحمر — الجيش الوحيد الذي يتعلق به الشعب — لم يتعاظم عدده بعد ، وذلك لكي يرغم لجنة السبعة على السير في ركابه .

وعند الظهيرة ، اعلنت الملاحق الخاصة للصحف والاعلانات واللافتات العريضة المصنوعة من النسيج القطني التي كانت تحمل عبر المدينة ، ان التجار والصناعيين في هونغ كونغ (وكل السكان الاوروبيين تقريباً) قد اجتمعوا امس في المسرح الكبير وابرقوا الى الملك بارسال قوات انجليزية الى الصين . وكان هذا صحيحاً .

اعلن بورودين امام اللجنة انه لا يعارض في اقرار المراسيم التي اقترحها تشينغ داي ضد الارهابيين وان هذه المراسيم ستطبق ابتداء من اليوم . لكن مخبرينا يؤكدون ان ما من اجتماع فوضوي سيعقد . ولينغ لما يوقف بعد . اما هونغ ، فقد اختفى . لقد قرر الارهابيون ان لا يتدخلوا بعد اليوم إلا « بالعمل المباشر » أي بالاغتيالات .

فيما بعد

ما يزال تشينغ تيونغ مينغ يتقدم .

وفي هونغ كونغ تعلن البرقيات بعناوين ضخمة : «اندحار الجيش الكانتوني» . والانجليز ينتظرون بقلق في ردهات الفنادق وامام الوكالات ، اخبار الحرب . لكن السفن ما تزال جامدة في المرفأ الذي يخطه مخر القوارب البطيئة فقط ، وكأنها تغوص تدريجياً في الماء ، حطاما .

ان قلق الصينيين الحاكمين هنا في منتهاه . ان دخول تشينغ الى كانتون معناه بالنسبة لهم العذاب او الاعدام في احد اركان الشارع ، من قبل هذه الفصائل التي ليس لضباطها المتعجلين من الوقت ما يسمح لهم حتى بالتدقيق في هويات المعدومين بالرصاص . ان فكرة الموت تطوف في المحادثات وفي العيون وفي الهواء ، ملحة حاضرة كالضياء ...

يعد غارين الخطاب الذي سيلقيه غداً في مأتم تشينغ داي .

الغداة ، الساعة ١١

هزيم ناء لطبول وصنوج تخرقه اصوات كمان وحيد الوتر وقيثارة ، موزونة فصارخة فجأة ثم هادئة ، اصوات مزمار ذي قربة ، رفيعة موزونة رغم نغماتها الحادة ، وسط صخب مكتوم وصارخ معا من القباقيب والكلمات الموزونة بايقاع الصنوج . انحنيت على النافذة : لايمر الموكب امامي بل في نهاية الشارع . زوبعة من الاطفال يعدون وهم ينظرون وراءهم واعناقهم ملوية اشبه بالبط وسحابة من الغبار تتقدم لا تؤطرها حدود، وكتلة متداخلة من الاجساد المسربلة

بالبياض ، تبدو وكأن رايات من الحرير القرمزي والارجواني والكرزي والوردي السيلاني والزنجفري والاحمر القاني ، قد غرست فيها : كل مشتقات اللون الاحمر. يشكل الجمهور السياج فلا ارى شيئاً غيره: اما الموكب فمحجوب. ليس تماماً : مرت صاريتان كبيرتان تحملان راية افقية من النسيج الابيض ، تتأرجحان كصاريتي سفينة ، تصحبان في الخنساءة اصوات الطبول الضخمة المشؤومة التي تطغى على كل الصيحات . ميزت الرسوم التي تغطي الراية :«الموت للانجليز...» ثم لا شيء غير السياج عند نهاية الشارع والغبار الذي يتصاعد ببطء والموسيقى التي تطرقها ضربات الصنوج. والآن هذه هي القرابين : فاكهة ، اصناف ضخمة مدارية جامدة تعلوها اللافتات المغطاة بالرموز ، تتأرجح هي الاخرى وتترنح ، يحملها الرجال ، وكأنها تكاد ان تهوي ، ويمر النعش المزين ، تقليدياً ، هيكل طويل من الخشب المطعم بالاحمر والذهبي ، محمول على اكتاف ثلاثين من الحمالين العمالقة الذين كنت اميز رؤوسهم في غمار الحشد واتخيل سيرهم السريع وعرجهم وهم يطلقون سيقانهم دفعة واحدة ، كلها معا ، في هذه الحركة المألوفة التي تجعل الكتلة الضخمة الحمراء الداكنة تهتز وتتمايل ببطء اهتزاز السفينة وتمايلها . وماذا يتبعها يا ترى ؟ ... ليقال انه بيت من النسيج . نعم ، انه بيت من القماش الممدود فوق هيكل من اعواد الخيزران (بامبو) ، محمول هو الآخر على كواهل رجال ، يتقدم بهزات منتظمة ... انطلقت بسرعة الى الحجرة المجاورة حيث اخذت منظار غارين من احد ادراجه وعدت الى مكاني : لا يزال البيت حيث هو . تحمل جدرانه صوراً ضخمة ، يظهر فيها تشينغ داي ميتاً تحت جندي بريطاني يخرق جسمه بحربته ، وقد احيطت الصورة بكتابة باحرف قرمزية استطعت ان اقرأ منها عبارة : « الموت لهؤلاء الانجليز قطاع الطرق » في اللحظة نفسها التي اختفى فيها ذلك الرمز الغريب تحجبه زاوية الشارع كما تحجب سجف المسرح جانباً من منظر . والآن ما عدت ارى غير عدد لا يحصى من اللافتات الصغيرة تتبع بيت القماش كما تتبع الطيور سفينة ، معلنة هي الاخرى عن كراهية انجلترا .. ثم فوانيس وعصي وخوذات

مشرعة ثم لا شيء .. وراح سياج الرجال الذي كان يغلق الشارع يتفكك في حين راحت اصوات الطبول والصنوج تبتعد كما راح الغبار يعلو ببطء ليضيع في الضياء .

بعد بضع ساعات ، وقبل عودة غارين بوقت ليس بالقصير ، اخذت شذرات من خطابه تدمدم من امين سر الى آخر في مكاتب دائرة الدعاية . ولما كان غارين مضطراً للتحدث الى الجماهير عن طريق ترجمان صيني ، مثله في ذلك مثل بورودين ، فقد راح يعبر عن افكاره بجمل قصيرة ، بصيغ واضحة . اسمع اليوم عرضاً للمكاتب والساعات : « هونغ كونغ التي تعرض ثروتها التي حصلت عليها باستغلال حارس السجن امام بؤسنا ، .. هونغ كونغ ، الخادم الذي يحمل مفاتيح السجن .. مقابل اولئك الذين يتكلمون ، اولئك الذين يفعلون، ومقابل الذين يحتجون ، اولئك الذين يطردون الانجليز من هونغ كونغ كالجرذان .. وكمثل الرجل الشريف الذي قطع يد السارق الذي حاول فتح نافذته ، بضربة بلطة ، سوف تحصلون غداً على يد الامبريالية الانجليزية المقطوعة ، هونغ كونغ المقوضة .. »

مرت جماعة من العمال في الشارع. كانوا يحملون رايات قرأت عليها : يحيا الجيش الاحمر . وصلوا امام نوافذ القاعة التي تستقر فيها لجنة السبعة . صيحات « يحيا الجيش الاحمر » قريبة حيناً وبعيدة حيناً آخر اشبه بقطيع تنتشر حيواناته وتتجمع ، تملأ الشارع ، وحيدة متفرقة او مجتمعة في هيجان . دخلت الصين في ذاتي وفرضت نفسها عليّ بهذه الصيحات ، الصين التي بدأت اعرفها ، الصين التي جاءت دفقات مثالية شرسة تغطي اسفافاً متعقلاً منحطاً ، كما هي الحال في الرائحة التي تدخل نوافذي المفتوحة مع اصطخاب المدينة ، تغطي رائحة الفلفل فيها رائحة التفسخ . ومقابل : « يحيا الجيش الاحمر » وتشينغ داي المدفون في مأتمه ، تتصاعد من مصنفاتي طائفة من المطامح العقفاء ومن الاهواء الاعتبارية ، عالم من الوكالات الانتخابية ، من الاعطيات المشبوهة

للحزب ، من الاختلاسات ، من العروض المتعلقة ببيع الافيون ، من شراء الرتب المتفاوت التمويه ، من التهديدات الصريحة بالتشهير والابتزاز ، عالم يعيش على استثمار مبادىء سان ـ مين كما كان سيفعل حيال نظام ذوي المناصب الرفيعة . ان جانباً من هذه البورجوازية الصينية التي يتحدث عنها الثوريون بكثير من الحقد ، مقيم بينهم ، مستقر في احضان الثورة . لقد قال لي غارين ذات يوم : « يجب ان نمر بين كل هذا كما نوجه رفسة محكمة خلال كومة من القاذورات .. »

الغداة

ما من اخبار عن الارهابيين : ولينغ ، الرجل الذي تحدث عنه نيكولاييف ما يزال طليقاً . ومنذ تولية بورودين (الذي لا يغادر منزله بسبب مرضه) ، قتل ستة من اتباعنا .

وهونغ كونغ ما تزال تدافع عن نفسها . لقد توجه الحاكم الى اليابان والهند الصينية الفرنسية ولسوف ينطلق « الكولي » خلال بضعة ايام من يوكوهاما وهايفونغ ليحلوا محل المضربين في هونغ كونغ. فلا بد وان يجد هؤلاء «الكولي» انفسهم في هونغ كونغ ، وهم الذين أرسلوا لقاء اجور عالية ، امام جبال من الارز لا مشترون لها وبيوت تجارية لا أمل لها. كان غارين يقول امس فيخطابه : « ان كانتون هي المفتاح الذين فتح به الانجليز ابواب الصين الجنوبية . لذا يجب ان يحكم هذا المفتاح الاغلاق على ان لا يعود الى الفتح مطلقاً . يجب ان يعلن رسمياً تحريم دخول السفن التي ترسو في هونغ كونغ من الرسو في كانتون .. » . ومنذ هذه الساعة اصبحت هونغ كونغ في ذهن الاجانب، ذلك المرفأ الانجليزي الذي يملكه التاج، مرفأ صينياً دائم الاضطرابات أخذت السفن الاجنبية تتناساه...

لم تعد سفن البرد والبضائع الكبيرة تدخل خليج هونغ كونغ الصغير الا لتمكث فيه بضع ساعات . اما حمولتها فتفرغ في شنغهاي، حيث يحاول الانجليز جاهدين عن طريق وكلاء صينيين ان يقيموا في تلك المدينة الوطنية ، تنظيماً جديداً

قادراً على ان يغلغل داخل البلاد البضائع المطلوبة من انجلترا عن طريق شركات هونغ كونغ . فهم بذلك يكررون المحاولة التي فشلت من قبل في سواتيئو .

★

قامت لجنة السبعة مؤخراً بمسعى جديد لتطلب دخول الجيش الاحمر المعركة وتوقيف الارهابيين الرئيسيين . ويؤكد مندوب اللجنة ان المرسوم الذي يتطلبه غارين سوف يوقع قبل ثلاثة ايام .. لقد حاصرت جمهرة من النـــاس (منظمة تنظيماً جيداً) طيلة النهار البناء الذي استقرت اللجنة فيه ، مهددة ، هاتفـة للجيش الاحمر .

الغداة

اوقف لينغ امس . سوف نتلقى بعـد ظهر اليوم ولا ريب المعلومات التي نتوقعها معه . ان مكاتب الدعاية تعمل بنشاط متناه في غمرة القلق الذي أحدثه تقدم الوحدات المعادية . لقد زُوّد الوكلاء الذين يسبقون الجيش تزويداً دقيقاً : تلقى رؤساؤهم التوجيهات من غارين نفسه. رأيتهم يمرون في المشى بعضهم وراء بعض باسمين .. لقد عزفنا عن استعمال النشرات . ان العدد الكبير الذي نملكه من العملاء يسمح لنـا بأن نستعيض عن كل الدعايات الاخرى بالدعاية الشفوية ، الأكثر خطورة ، تلك التي تـكلفنا خسائر اكثر بالرجال ، لكنها الدعاية الأكثر ضمانة . لقد توصل لياو ـ شونغ ـ هوي ، مفوض الماليـة لدى الحكومة الذي يريد الارهابيون اغتياله ، الى جمع مبـالغ ضخمة بفضل اسلوب جباية جديد للضرائب وضعه تقنيون من الدولية . لذلك فان مخصصات الدعاية اصبحت من جديد تفي بالاحتياجات . سوف تحل الفوضى في مصلحة تموين العدو وادارته في غضون اسابيع قليلة ، فيصبح من الصعب ارغـــام المرتزقة على القتال دون مرتبات.ثم ان حوالي مائة من الرجال الذين يضمنهم رؤساؤهم،سوف ينخرطون في جيش تشينغ ـ تيونغ ـ مينغ وهم يدركون انهم يتعرضون للموت رميـــاً

بالرصاص من جانبه كخونة ومن جانب قواتنا بآن واحد كأعداء : ان ثلاثة من عملائنا الذين افتضح امرهم امس الاول ، قد ماتوا خنقاً بعـــد ان اخضعوا للتعذيب اكثر من ساعة كاملة .

لقد انصرف رؤساء فصائل الدعاية الى جيش تشينغ بين صفين من الابواب المواربـــة : كان الصينيون الشبان ذوو السترات المحصورة والسراويل العريضة الذين لا يحبون تناول الاطعمة الوطنية ويفضلون التخاطب بالانجليزية ، اولئك العائدون من جامعات امريكا والعائدون من الجامعات الروسية ، «المتصنعون» و « الدببة الليينيون » ينظرون بتنازل محتقر ، الى العملاء الذاهبين للانخراط في القطعات العدوة . .

★

لكل دوره .

ابناء من شنغهاي :

تبعاً لتوجيهات الكيومنتانغ ،قررت غرفة التجارة الصينية مصادرة البضائع البريطانية الموجودة بين ايدي الصينيين ، وحرمت ابتداء من الثلاثين من تموز ، ولمدة عام كامل ، شراء أي بضاعة انجليزية ونقل أي بضاعـــة على ظهر السفن الانجليزية .

اعلنت صحف شنغهاي ان حركة المتاجرة البريطانية سوف تنخفض بحـوالي ثمانين بالمائة .

لقد قررت المتاجرة في العام الماضي (باستثناء هونغ كونغ) بحوالي عشرين مليون جنيه استرليني .

لم تعد هونغ كونغ قادرة على الاعتماد إلا على جيش تشينغ ـ تيونغ ـ مينغ .

تلقى نيكولاييف الكلمات التالية مخطوطة باحرف مطبعية : « اذا لم يطلق سراح لينغ غداً فان الرهائن ستعدم » . فهل يملك الارهابيون رهائن حقـــاً ؟

لا يعتقد نيكولاييف بصحة ذلك . لكن عدداً كبيراً من رجالنا موفد بمهمات لذلك فاننا نفتقر الى كل وسائل التحقق .

الساعة السادسة

حمل احد سعاة السجن اوراقاً الى غارين : استجواب لينغ .

ـ هل تكلم ؟

اجاب غارين :

ـ هوذا شخص جديد يحكم بصواب رأي نيكولاييف . آه ! ليس هنـاك الكثير من الناس الذين يصمدون للألم ..

ـ و .. هل طال تعذيبه ؟

ـ هراء !

ـ ماذا سيعملون به ؟

ـ ماذا تريد ان يعمل به بحق الشيطان ؟ لا يطلق سراح زعيم ارهابي .

ـ واذن ؟

ـ ان السجون مليئة ، بلا شك .. اخيراً سوف يحاكم امام المحكمة الخاصة . نعم ، لقد تكشف كل شيء كما قال نيكولاييف : أولاً . مكان هونغ . ثانياً : ان تشينغ داي قد قتل حقاً بايعاز منه : ان القاتل احد الخدم .

ـ ولكن ، ألم يكن لدينا مخبرون في الداخل ؟

ـ مخبر واحد : هذا الخادم . كان مخبراً مزدوجاً . لقد لعب بنا ولكـــن ليس زمناً طويلا . لا ريب انه موقوف في هـــذه اللحظة ، سوف نستغله في المستقبل في محاكمة علنية اذا اقتضى الأمر ..

ـ عمل على جانب من الخطورة ، أليس كذلك ؟

ـ اذا منع نيكولاييف عنه المخدر بضعة ايام ووعده بالابقاء على حياتـــه فلسوف يتكلم بالشكل المناسب ..

ـ قل لي ، ألا يزال هناك اناس يصدقون مثل هذه الوعود ؟

ـ سيكفي منع الافيون وحده ..

وتوقف عن الكلام وهز كتفيه ثم اردف ببطء :

ـ انه لأمر على سهولة مخيفة ، رجل على وشك الموت ..

ثم اعقب بعد دقائق قليلة وكأنه يتابع فكرته :

ـ ومن جهة أخرى فان كل وعودي انا كانت وفية تقريباً ..

ـ ولكن ، كيف تريدهم ان يميزوا..

ـ وماذا تريدني ان افعل ؟

الثامن من آب

اوقف هونغ امس مساء .

★

يجمع الانجليز في هونغ كونغ تدريجياً العمال الذين يتوجب عليهم استئناف العمل في المرفأ . وعندما يتهيأ لهم العدد الكافي من الرجال – بين آناميين ويابانيين ـ الذين ينتظرون الآن في الأكواخ المجمعة اوامر الحاكم ، فسيعيدون تنظيم اداراتهم وسيعود نشاط هذه المدينة فجأة الى سابق عهده من جديد . فما ان يضعف عملنا حتى تستأنف مدينة كاملة من السفن المحملة السير على طريق كانتون ويستعيد هيكل هذه الجزيرة الجبار الحياة التي فارقته منذ حين .. هذا الا اذا وُقع المرسوم الذي نترقبه . لكن هذا المرسوم اعتراف بحرب النقابات وتوكيد لارادة الحكومة الكانتونية نفسها ولسلطة الدولية في الصين ..

الغداة

غارين جالس وراء مكتبه شديد التعب مقوس الظهر وذقنه في يديه ، ومرفقاه مسندان على جري العادة على اوراق يحدثان حولها انتفاخاً فيها ، بينما نطاق ممدد فوق احد الكراسي . واذ سمع وقع خطى ، فتح عينيه وازاح بيده ببطء شعره المتدلي ورفع رأسه : دخل هونغ يتبعه اثنان من الجنود . لم يسهل توقيفه دون عراك : فآثار ضربات وسمت وجهه الذي تلتمع فيه التماعاً أليماً

عيناه الصغيرتان ، عينا الآسيوي . وما ان دخل الحجرة حتى توقف وذراعاه وراء ظهره متباعد الساقين .

نظر اليه غارين وراح ينتظر وقد افترته الحمى . كان جسده واهنا تمامـــا ورأسه المنهوك يزوغ ببطء من اليمين الى اليسار وكأنه على وشك الاغفاء ... وفجأة اخذ نفساً عميقاً : لقد استعاد تماسكه . هز كتفيه ، فشاهده هونغ الذي رفع عينيه في تلك اللحظة نفسها مُقطباً وافلت لحظة من الجنديين ليسقط وقد اوقفته ضربة من اخمص . كان قد رأى مسدس غارين في جرابه فوق الكرسي فارتمى عليه .

عاد الى النهوض .

قال غارين بالفرنسية « في هذا الكفاية » وبالكانتونيه : « خذوه » .

ساقه الجنود .

صمت

ـ غارين ، من ذا الذي سيحاكمه ؟

ـ .. عندما وجدته هنا ، كدت انهض واقول له : « ما هـــذا بعد ؟ » كما نقول لطفل اقترف بعض الاكاذيب . لهذا هززت كتفي فاعتقد انني اهينــه .. هوذا واحد آخر .. يا للغباء !

ثم اضاف بلهجة اكثر سرعة وكأنه سمع سؤالي لتوه :

ـ لم يحاكم بعد .

الغداة

كان غارين منهمكاً في اعطاء احد صانعي الساعات صور تشينغ داي وسن يات سن مزينة بكتابات معادية للانجليز ليصنع منها العلب التي تضم اجهـــزة الساعة . جاء آذن يحمل رسالة مختومة .

ـ من جاء بها ؟

ـ مناوبة رجال البحر ايها المفوض .

ـ هل ما يزال ناقلها هنا ؟

ـ نعم ايها المفوض .

ـ ادخله . هيا ! فوراً !

دخل « كولي » وقد علق على ذراعه ساعدة نقابة رجال البحر .

ـ انت الذي حملت هذه ؟

ـ نعم ايها المفوض .

ـ أين الجثث ؟

ـ في المناوبة ايها المفوض .

ناولني غارين الرسالة المختومة : لقد عثر على جثة كلين وجثث ثلاثة من الصينيين مقتولين في بيت للدعارة على ضفة النهر . الرهائن ..

ـ وأين الأشياء ؟

ـ لا أدري ايها المفوض .

نهض غارين لفوره واخذ خوذته ثم اشار الي ان اتبعه . ركب « الكولي » الى جانب السائق ومضينا .

وفي السيارة :

ـ قل لي ، غارين ؟ كان كلين يعيش هنا مع امرأة بيضاء ، أليس كذلك ؟

ـ وماذا في ذلك !

لم تكن الجثث في المناوبة بل في قاعة الاجتماعات . كان هناك صيني يحرس الباب ، جالساً على الارض ، والى جانبه كلب ضخم يهم بالدخول . وكلما اقترب الكلب ، مد الصيني ساقه ورفسه بقدمه ، فيقفز الكلب ويتنحى بصمت ثم يعود الى الاقتراب . رآنا الصيني نقترب منه . فلما وصلنا امامه ، أسند رأسه الى الجدار وأغمض عينيه نصف اغماضة ثم دفع الباب بيده دون ان ينهض . وظل الكلب يحوم حوله على مسافة معينة .

دخلنا . مشغل مقفر ذو ارضية من التراب المرصوص ، واكوام من التراب في زواياه . وعلى الرغم من تصفية الضوء خلال زجاج السقف الازرق ، فان الضياء كان ساطعاً . وما ان رفعت عيني حتى رأيت الاجسام الاربعة وقوفاً وقد كنت ابحث عنها على الارض . كانت قد اصبحت متصلبة فوضعت مسندة الى الجدار وكأنها عمد. أخذت بادىء الامر بل وذهلت تقريباً: ان في هذه الجثث المنتصبة شيئاً ما، ليس من الخيال الغريب بل من فوق الواقعية، «السوريالية» في ذلك الضوء وذلك الصمت. استعدت الآن انفاسي فاجتاحتني مع الهواء الذي استنشقه، رائحة لا تشبه اياً غيرها، رائحة حيوانية قوية وتفهة بآن واحد: رائحة الجيف.

نادى غارين الحارس الذي نهض ببطء وكأنه مكره واقترب .

– جيء بأقمشة .

أخذ الرجل ينظر اليه مذهولاً وهو مستند الى الباب وكأنه لم يفهم .

– جيء بأقمشة .

لكنه لم يتحرك . تقدم غارين مطبق القبضتين ثم توقف :

ـ عشرة « تائيل [1] » اذا جئت بالاقمشة قبل نصف ساعة . هل تسمعني ؟

انحنى الصيني وانصرف .

ادخلت الكلمـــات في القاعة شيئاً ما انسانياً . لكنني حين استدرت ، ابصرت جسد كلين ـ وقـد عرفته من فوري بسبب قامته ـ وفي وسط وجهه لطخة كبيرة : لقد وُسّع فمه بموسى الحلاقة ، فلم تلبث عضلاتي ان تقلصت من جديد لدرجة جعلتني هـــذه المرة اضم ذراعي الى جسدي واشعر بضرورة الاستناد ، انا الآخر ، الى الجدار . أشحت بعيني: جراح مفتوحة ، بقع سوداء كبيرة من الدم المتجمد ، عيون محولـّة ، الاجساد كلها متماثلة ، لقـد عذبوا ...

---

١ ـ تائيل *Tael* ، وحدة نقدية صينية قديمة ، ترجع في الاصل الى وحدة وزن اكثر منها وحدة نقد . والمعروف ان « التائيل » الشائع يزن ٨٤ غراماً من الفضة الربيس .   المترجم

جاءت احدى الذبابات الحائمة هنا تحط على جبيني فلا استطيع ، لا استطيع رفع ذراعي .

قال غارين بصوت خفيض تقريباً وهو يقترب من جثمان كلين :

ـ مع ذلك ، يجب ان نطبق عينيه .

أيقظني صوته فطردت الذبابة بحركة انعاكسية سريعة عنيفة وخرقاء . أدنى غارين اصبعين مفتوحين على شكل مقص من العينين ، العينين البيضاوين . وسقطت يده .

ـ اعتقد انهم قطعوا اجفانه ..

فتح قميص كلين بحركة خرقاء واستخلص حافظته وراح يفحص محتوياتها . نحّى ورقة مطوية ورفع رأسه : لقد عاد الصيني حاملاً بين اصابعه أغطية منشورة تتماوج وتنسحب على الارض . لم يجد شيئاً آخر غيرها ، شرع يسجي الاجساد بعضها الى جانب بعض . لكننا سمعنا وقع خطى ودخلت امرأة مقوسة القامة ملتصقة المرفقين بالجسد ، فأمسك غارين بذراعي بخشونة وتراجع .

قال بهمس :

ـ هي الاخرى ، أي أبله أخبرها بأنه هنا ؟

لم تنظر الينا . مضت مباشرة الى كلين فاصطدمت بأحد الاجساد المسجاة وتعثرت .. غدت قبالته فراحت تنظر اليه . لم تتحرك ، لم تبك . الذباب حول رأسها والرائحة ، وفي اذني ، انفاس غارين الحارة اللاهثة .

وفجأة سقطت على ركبتيها ، انها لا تصلي ، بل هي منشبة اصابع يديها المتباعدة في الجسد وقد انغرست في شواكله ، حتى ليقال انها راكعة امام العذابات التي تمثلها كل هذه الجراح وهذا الفم الذي تحدق فيه ، المفتوح حتى الذقن بفعل سيف او موسى ... انا واثق انها لا تصلي. كان جسمها كله يرتعد .. وفجأة ، وكما سقطت على ركبتيها منذ حين ، احتضنت الجثة بذراعيها بعناق تشنجي وراحت تحرك رأسها بحركة يشترك فيها كل جذعها ، حركة مفعمة

بألم لا يصدق .. وبحنو مخيف ، راحت تدعك وجهها بالقماش الدامي ،بالجروح ، دعكاً وحشياً دون اية عبرة ..

جرني غارين الذي كان ما يزال مطبقاً على ذراعي . وعند الباب ،كان الصيني قد عاد الى الجلوس : لم يكن يعير المشهد ولا مجرد نظرة . لكنه جذب ذيل رداء غارين . فأخرج هذا ورقة نقدية من جيبه ، اعطاها له وقال :

ـ عندما تبرح السيدة المكان ، عليك ان تغطيهم جميعاً .

وفي السيارة لم ينبس بكلمة . لقد تهالك باديء الامر ومرفقاه على ركبتيه . ان المرض يضعفه يوماً بعد يوم . ولقد فجرت الصدمات الاولى كيانه فتمدد ورأسه تكاد تمس غطاء السيارة وساقاه متصلبتان .

واذ غادرنا السيارة امام بيته ، صعدنا الى الحجرة الصغيرة في الطبقة الاولى. كانت الستر مسدلة فبدا اكثر مرضاً وانهاكاً من اي وقت مضى . ارتسمت تحت عينيه خدتان عميقتان متوازيتان مع الغضون الذاهبة من انفه الى طرفي فمه ، تحددان بقعاً بنفسجية كبيرة . وهذه الغضون الاربعة التي تبرز قسماته كما يفعل الموت ، تبدو وكأنها تفسد وجهه وتحلله . لقد قال ميروف من قبل : « اذا مكث هنا خمسة عشر يوماً آخر فانه سيبقى وقتاً أطول مما يتمنى .. ». ولقد مضى اكثر من هذا الوقت .. ظل صامتاً فترة ما ثم قال بصوت خافت وكأنه يسائل نفسه :

ـ يا للشخص المسكين.. كان غالباً ما يقول: ليست الحياة كما يعتقدها المرء .. الحياة ليست ابداً كما يظنها المرء ! ابداً !

جلس على السرير العسكري محني الظهر واصابعه مقرة فوق ركبتيه ترتعد كأصابع المصاب بداء الغول .

ـ كنت اكنّ له صداقة الرجال .. ان اكتشف زوال اجفانه وافكر بانني كدت ألمس عينيه ..

تشنجت يده اليمنى لاارادياً . استند الى الجدار مغمض العينين بعد ان

ترك جسمه يتهاوى الى الوراء. كان فمه ومنخراه يزدادان تمدداً بينما تنتشر بقعة زرقاء من الحاجبين الى منتصف الخدين.

– اتوصل غالباً الى النسيان.. غالباً وليس دائماً. وهي قدرة آخذة بالتناقص يوماً بعد يوم.. ماذا تراني فعلت بحياتي، انا؟ ولكن بالله، ماذا يمكن ان يفعل الانسان بها، آخر المطاف!.. انه لا يرى شيئاً ابداً!.. كل هؤلاء الرجال الذين اقودهم، الذين اسهمت في خلق نفوسهم، اجمالاً! لست اعرف حتى ما قد يفعلون غداً.. كنت في بعض الاوقات، اود لو نحت كل هذا كما يُحفر في الخشب، افكر: هذا ما فعلته. ان اشيد، يكون الوقت ملكاً لي... يا للرغبات التي ينتقيها الانسان، هنْ؟»

ارتفعت الحمى. ما ان اتقد حماساً حتى اخرج يمناه من جيبه وراح يرفق جمله بحركات من ساعده مألوفة لديه. لكن قبضته ظلت مغلقة.

«ما فعلت، ما فعلت! اوه! هو هو! افكر في ذلك الامبراطور الذي كان يأمر بفقء عيون اسراه، فاهم، والذي كان يعيدهم جماعات الى مواطنهم يقودهم العور، فكان قوادهم العور يصابون هم انفسهم بالعمى تدريجياً من شدة التعب. انها لصورة جميلة من «ايبينال[1]» *Epinal* للتعبير عما نفعله هنا، اجمل من الرسوم المتواضعة التي تخرجها الدعاية. وعندما افكر في انني سعيت طيلة عمري الى الحرية!.. من ذا الذي هو حر هنا، من الدولية والشعب وانا والآخرين؟ اما الشعب، فان بيده دائماً القدرة على التضحية بنفسه. وهذا شيء ما..

– بيير، أ أنت قليل الثقة الى هذا الحد؟

١- هذه المدينة الفرنسية، وهي مركز مقاطعة الفوج، على بعد ٣٧٨ كم الى جنوب شرقي باريس، مشهورة بصناعة الصور وتجارتها. ولهذا السبب، استعار المؤلف اسمها في معرض التشبيه.
المترجم

– انا لا اثق إلا بما افعل ، بما افعل . وعندما ..
توقف . لكن وجه كلين الدامي وعينيه البيضاوين كانتا بيننا .

– ما يفعل المرء عندما يدري بانه لن يلبث حتى يجبر على الكف عن فعل ذلك الشيء ..
وفكر ثم استطرد بمرارة :

– ان اخدم ، امر لطالما احسست بالحقد نحوه .. وهنا ، من ذا الذي خدم اكثر مني وافضل ؟.. طيلة اعوام – اعوام – اشتهيت السلطة : انني لا اعرف حتى كيف اوشح حياتي بها . كان كلين في موسكو بالطبع عندما مات لينين . وانت تعلم ان لينين كتب مقالاً في الدفاع عن تروتسكي كان سينشر في جريدة البرافدا على ما اعتقد. لقد حملت زوجته المقال بنفسها في ذلك الصباح وعادت اليه بالصحف : كان لا يستطيع مجرد الحركة تقريباً . « افتحي ! ». وجد ان مقاله لم ينشر . لقد بلغ صوته درجة من الصّحل تعذر معه على الآخرين ان يفهموا كلمة من اقواله . وبلغت نظرته درجة من الحدة جعلت الجميع يتتبعون وجهتها : كان ينظر الى يده اليسرى . وكان قد وضعها مفتوحة فوق الاغطية وراحتها الى الاعلى ، هكذا . كان واضحاً انه يريد ان يأخذ الصحيفة لكنه لم يكن مستطيعاً ذلك ..

وبحركة عنيفة ، فتح يده اليمنى ممدودة الاصابع ، وبينما استرسل في الكلام ، اخذ يطوي اصابعه ببطء الى الداخل وينظر اليها . وبينما كانت يمناه ساكنة لا حراك فيها ، اخذت يسراه تطبق اصابعها ببطء ، كالعنكبوت التي تطوي اياديها ..

ولقد مات بعد فترة وجيزة على ذلك ..

نعم ، كان كلين يقول : كالعنكبوت .. ومنذ ان قصّ عليّ ذلك ، ما استطعت ابداً ان انسى تلك اليد ولا تلك المقالات .. المرفوضة ..

– لكن كلين كان من انصار تروتسكي . ألا ترغب في ان احضر لك بعضاً من حبات الكينين ؟

– كان ابي يقول لي : « يجب ان لا يتخلى المرء مطلقاً عن الارض » . لقد قرأ هذه العبارة في مكان ما . وكان يقول لي انه يجب ان يكون المرء متعلقاً بذاته . لم يكن من منشأ بروتستانتي عفوياً . متعلق ! كان الاحتفال الصغير الذي كانوا « يربطون » فيه حياً بميت يدعى .. الزواج الجمهوري . أليس كذلك ؟ كنت افكر في ان هناك لوناً من الحرية في مثل هـذا الاجراء ... كان ذاك يروي لي ..

– من ؟ ذاك .

– كلين ، طبعاً ! الذي لست ادري في اية قرية كان القوقازيون مضطرين الى « تنظيف » السكان ، ظل احد البلهاء اكثر من عشرين ثانية وسيفه مشهر فوق رؤوس بعض الاطفال . فزمجر كلين: « هيا ، حرك نفسك ! » فأجاب الآخر:

– لا استطيع ، انني مشفق ، واذن ، يقتضي الوقت ..

ورفع عينيه وراح ينظر لي بقسوة غريبة .

– الذي فعلته هنا ، من ذا الذي كان قادراً على فعله ؟ وماذا بعد ؟ كلين وجسده مليء بالطعنات وفمه الذي عملت الموسى على تكبيره وشفته المتدلية .. لا شيء بالنسبة الي ، لا شيء بالنسبة للآخرين . هذا ، دون التحدث عن النساء اللاتي لا يستطعن شيئاً اكثر من دعك رؤوسهن اليائسة بالجروح ، كتلك التي شهدناها منذ حين .. ماذا ؟ نعم ، ادخل !

كان ساعي ادارة الدعاية يحمل رسالة من نيكولاييف . ان القطعات الكانتونية التي استعادت تحشدها بعد هزيمتها في شووتشوو ، عادت فمنيت مجدداً بالهزيمة على يد تشينغ تيونغ مينغ ، ولجنة السبعة تستنجد بالجيش الاحمر بالحاح منقطع النظير . اخرج غارين من جيبه ورقة بيضاء كتب عليها ببساطة : المرسوم ، ووقع وأعطاها للساعي .

– هذه للجنة

– ألا تخشى ان تثير سخطهم ؟

– لم نعد نأبه بهذا ! فالمناقشات ، كفانا منها. لقد اعيتني نذالتهم وحاجتهم الدائمة الى عدم الالتزام الكلي . انهم مدركون انهم لن يستطيعوا ابطال هذا المرسوم : فالشعب لا يفكر الا بهونغ كونغ ، بصرف النظر عنا نحن . واذا لم يرضهم هذا ..

– وماذا بعد ؟

– عندئذ ، نستطيع ، بواسطة كل الفصائل التي تركنا لها السلاح ، ان نطيح « بالتانغ » عند الاقتضاء . كفاني ترددا !

– ولكن ، ماذا لو هزم الجيش الاحمر ؟

– لن يهزم.

– واذا هزم ؟

– عندما يقامر المرء ، قد يخسر . لكننا لا نخسر هذه المرة .

وبينما مضيت للاتيان بالكينين ، سمعته يقول بين اسنانه :

– هناك مع ذلك شيء يعتد به في الحياة ، هو ان لا يُهزم المرء ..

★

بعد ثلاثة ايام

كنا عائدين ، غارين وانا ، لتناول الطعام . انطلقت اربعة اعيرة من مسدس فنهض الجندي الجالس الى جانب السائق. ونظرت ثم لم ألبث ان رجعت برأسي الى الوراء : طلقة خامسة أصابت باب السيارة. كانوا يطلقون النار على سيارتنا. رد الجندي على النار . اندفع عشرون رجلاً تقريباً هاربين واكمامهم تلعب بها الريح ، بينما انطرح جسمان على الارض ، الاول لرجل أصابه الجندي خطأ والثاني للرجل ذي المسدس : كان مسدس من نوع بارابيللوم يلمع تحت اشعة الشمس وقد سقط الى جانب يده المبسوطة .

نزل الجندي واقترب منه ثم هتف : « ميت » ، دون ان يقوم حتى بالانحناء

عليه . اتصل طالباً رجالاً ونقـالة لحمل الصيني الجريح المصاب في بطنه الى المستشفى .. واجتازت السيارة العتبة مصحوبة برجة .

قال لي غارين وهو يغادر السيارة : « كان الشخص شجاعاً . كان يمكنه ان يلوذ بالفرار . لكنه لم يتوقف عن اطلاق النار حتى سقط ..

ولكي ينزل منها كان عليه ان يقوم بما يشبه نصف دورة ، فلاحظت ان ذراعه اليسرى مغطاة بالدم .

– ولكنك ..

– ليس بالأمر المهم ، فالعظم لم يصب والرصاصة نفذت ، هيا ، انهـا محاولة فاشلة .

والواقع ان سترته كانت تحمل ثقبين .

– كانت يدي فوق مسند مقعد السائق. الا ان المزعج انني انزف كالعجل المذبوح . هلا ذهبت الى ميروف ؟

– طبعاً . أين المكان ؟

– يعرفه السائق .

وبينما كان السائق يقود السيارة لننطلق بها ، قال غارين بين اسنانه :

– لعلها خسارة اذ فشل ..

عدت مصحوباً بميروف . ان هذا الطبيب النحيف الاشقر ذا رأس الحصان، لا يتكلم غير الروسية بطلاقـة . لذلك لبثنا كلانا صامتين . واضطر السائق الى تفريق حلقة من المتسكعين حول جثة القتيل ليتمكن من ادخال السيارة .

كان غارين في غرفته ، فمكثت في الحجرة الصغيرة الواقعة دونهـا ورحت انتظر ..

بعد ربع ساعـة ، خرج يودع ميروف وذراعه الى عنقه ثم عاد ليستلقي قبالتي على السرير ذي الخشب الاسود مصعّر الوجه وتقلب حتى وجد مكاناً

يحضن جسده فاستكان . ولما استقر على هذا النحو في الظل تقريباً ، لم أميز من وجهه غير قسماته القاسية : خط الحاجبين المستقيم تقريباً وزاوية انفه الحادة التي يقع عليها الضوء وحركات الفم التي تمتد نحو ذقنه عندما يتكلم .

ـ لقد اصبح يزعجني هذا .

ـ من ؟ ميروف ؟ أيقول ان الأمر خطير ؟

ـ هـذا ؟ (وأراني ذراعه) ، لا يثير بي اي اهتمام . انه يقول انه يجب ـ ويجب قطعاً ـ ان اغادر المنطقة .

وأغمض عينيه .

ـ وما هو أكثر ازعاجاً اعتقادي بانه على صواب .

ـ واذن ، لمَ البقاء ؟

ـ انه امر معقد . آه ! يا للعنة . كم يشعر المرء بالانزعاج فوق هـذا السرير المثقل !

انتصب وجلس وذقنه في يده اليمنى ومرفقه على ركبته ، مقوس الظهر وراح يفكر .

ـ غالباً ما اضطررت في الآونة الاخيرة الى التفكير في حياتي . وكنت لا ازال افكر فيها منذ قليل اثناء ما كان ميروف يلعب دور العرافين : كان من الممكن ان لا يخطئني ذاك .. ان حياتي ، كما ترى ، توكيد شديد القوة . لكنني عندما افكر فيها على هذا النحو ، تعاودني دائماً صورة ، ذكرى ..

ـ نعم ، لقد قلت ذلك لي في المستشفى .

ـ كلا ، ما عدت افكر الآن في محاكمتي . وما احدثك به ليس الشيء الذي افكر فيه ، بل هو ذكرى أقوى من الذاكرة . كان ذلك اثناء الحرب ، في المؤخرة حيث كان ما يقرب من خمسين من جنود الألوية الافريقية منزوين في قاعة كبيرة يدخل النهار اليها من نافـذة صغيرة محصنة بالقضبان والمطر يحمل الهواء بوادره . وكانوا قد أوقدوا شموعاً مسروقة من الكنيسة المجاورة . فراح

أحدهم ، وكان يرتدي مسوح قسيس ، يقدس أمام مذبح من الصناديق المغطاة بالأقمصة . وامامه موكب كئيب : رجل في ثوب الاحتفالات « الفراك » وقد رشق في عروته زهرة كبيرة من الورق ، وعروس تمسك بها امرأتان في زي الالعاب التنكرية ووجوه اخرى ساخرة مضحكة في الظل . وكانت الساعة الخامسة لذلك كان ضوء الشموع ضعيفا . سمعت قائلاً : « امسكوها جيداً كي لا يغمى عليها، هذه العزيزة». كانت العروس جندياً شاباً وصل بالأمس من مكان الله اعلم به ، تبجح بأنه سيخرق بحربته جسد اول من ينوي اغتصابه . والمرأتان المتنكرتان بالوجوه المضحكة تمسكان به بقوه حتى ليتعذر عليه الاتيان بأية حركة . وجفناه شبه مغمضين وهو نصف قتيل لفرط ما اصابه من اعياء ولا ريب . حلّ العمدة محل القسيس ثم ما عدت اميز في الظلام وقد انطفأت الشموع ، غير ظهور تخرج من الظل وتتكدس قرب الارض ، والشخص يزعق ويزمجر . كانوا يفترسونه بالطبع حتى الاشباع . وكانوا وافري العدد . نعم ، انني متضايق من هذه الصورة الملازمة منذ بعض الوقت .. ليس بسبب نهاية الفعلة نفسها بالطبع ، بل بسبب بدايتها الخرقاء الساخرة الهازئة ..

امعن في التفكير :

ـ فضلاً عن ذلك ، فان هذه الحادثة ليست معدومة الصلة بالانطباعات التي كنت أحسها اثناء محاكمتي .. انها توارد افكار قديمة العهد ..

طرح الى الوراء شعره الذي كان يسقط على وجهه ونهض وكأنه ينتفض ، فطار الدبوس الذي كان يثبت العلاقة وسقطت ذراعه فعض شفتيه . وبينما كنت ابحث عن الدبوس على الارض ، قال ببطء :

ـ يجب الانتباه : فعندما ينسحب نشاطي مني، عندما ابدأ بالافتراق عنه، فان معنى ذلك ايضاً دماء تنزف مني .. كنت اتساءل فيما مضى احياناً ، عندما لم اكن اقوم بأي نشاط ، عما تساوي حياتي . والآن ، اعرف انها تساوي اكثر من ..

لم ينه عبارته ، فرفعت رأسي وانا أعيد اليه الدبوس . كانت نهاية الجملة ، ابتسامة منبسطة فيها كبرياء ولون من الضغينة .. وما ان تقابلت نظراتنا حتى استأنف وكأنه عاد الى نفسه :

ـ اين وصلت في حديثي ؟

رحت ابحث انا الآخر :

ـ كنت تقول لي انك غالباً ما تفكر في حياتك ، من جديد .

ـ آه ! نعم ، هوذا ..

وتوقف لا يجد الجملة التي يبحث عنها .

ـ من الصعب دائماً التحدث عن هذه الامور . يعني .. عندما كنت اعطي المال للقابلات ، انت متأكد من انني لم اكن مغتراً حول قيمة « القضية » . مع ذلك فقد كنت اعرف انني اتعرض لخطر عظيم : لبثت مستمراً رغم التحذيرات. حسناً . وعندما خسرت ثروتي ، كنت قد تركت نفسي استرسل في المزالق التي تؤدي الى افلاسي : ولم يكن لخرابي الدور الصغير في سوقي الى هنا . ان نشاطي يجعلني كالمصاب بانعدام الارادة حيال كل ما يخرج عن نطاق الفعل ، بدءاً من نتائجه . واذا ارتبطت بالثورة بهذه السهولة ، فما ذلك الا لأن نتائجها بعيدة ودائمة التبدل . انا في اعماقي مقامر ، لا افكر – ككل المقامرين – في غير لعبتي ، بعناد وقوة . واليوم ألعب لعبة « برتية » اكبر من السابق وقد تعلمت كيف ألعب : ان في حياتي نسقاً ما ، قدرية شخصية اذا أردت ، لا مهرب لي منها ، وانا اتعلق بكل ما من شأنه اعطائها القوة .. لقد تعلمت كذلك ان الحياة لا تساوي شيئاً ، وان ما من شيء يساوي الحياة ايضاً .. اشعر منذ بضعة ايام بانني قد اكون نسيت ما هو جوهري وهو ان شيئاً ما آخر في طريق الاعداد .. لقد كنت اتوقع كذلك الدعوى والخراب، ولكن هكذا ، اعتباطاً وبشكل غامض .. وبعد ، ماذا ! اذا كان علينا ان نهزم هونغ كونغ فانني أحب ..

لكنه أمسك وانتصب فجأة وعلى وجهه سمة الألم وتمتم :

ـ يا لله ! كل هذا ..

ثم أمر باحضار البرقيات اليه .

الغداة

أعلن المرسوم رسمياً . اخطرنا على الفور فصائل هونغ كونغ. وتلقت القوات الامامية الحمراء ، التي كانت على بعد ستين كيلومتراً من الجبهة ، الأمر بالوقوف على اهبة الاستعداد : لم يبق بيننا وبين السلطة غير تشينغ تيونغ مينغ .

الخامس عشر من آب

يوم عيد في فرنسا .. عيد كان يقام في الكاتدرائية سابقاً . اما اليوم ، فقد تحولت الكاتدرائية الى مأوى يحرسه الجنود الحمر . كان بورودين قد استصدر مرسوماً بمصادرة الابنية الدينية لصالح الدولة . مشهد بؤس لا يمكن لأي شيء في اوروبا ان يعطي فكرة عنه : بؤس الحيوان الذي فتك به مرض جلدي فراح ينظر بعينين لا نداء فيهما ولا حقد ، عينين زائغتين لا حياة فيهما . اعتلج في نفسي امام اولئك الرجال شعور فظ ،حيواني كذلك المشهد ، قوامه الخزي والهول والجذل الدنيء بأن لا اكون شبيهاً لهم . اما الشفقة فلا تأتي الا عندما اكف عن رؤية هذا الهزال ، هذه الاعضاء الشبيهة بالقُطرب [1] ، هذه المزق ، هذه القشور المتيبسة ، من الاخلاط العضوية التي تغطي البشرة الضاربة الى الخضرة ، العريضة بحجم الكف كأنها فلوس السمك، وهذه العيون العبراء الكابية الكدرة الخاوية من النظرة الانسانية ـ عندما لا تكون مغمضة ..

تحدثت بدوري عن كل هذا الى غارين فأجاب :

ـ نقص في المران.ان تذكـّر درجة معينة من البؤس تضع الاشياء البشرية في

١ ـ المقصود بالقطرب هنا ، النبات الشائك الذي يحمل حباً يلتصق بمن يمر به وليس الدويبة الدائبة الحركة التي تضيء في الليل . المترجم

مواضعها ، كفكرة الموت . ان افضل ما في هونغ كونغ من هنا . ولا ريب ان شجاعة الشخص الذي اطلق علي النار متأتية من هنا ايضاً .. ان اولئك الذين تهـــاووا في غياهب البؤس لا يصدرون منها ابداً : انهم يذوبون فيها وكأنهم مصابون بالجذام. لكن الآخرين هم الادوات الاقوى ان لم تكن الأكثر ثقة وأمناً في المهمات .. الثانوية . شجاعة دون اية فكرة للكرامة والضغينة ..

انك تذكرني بجملة معزوة الى لينين وَشَمها هونغ عامداً على ذراعه : « هل نفهم عالماً لم ينزف حتى النهاية ؟ » . كان معجباً بادىء الأمر اعجاباً مغاليـاً . اما في الايام الاخيرة فكان يكرهها بمثل تلك المغالاة . واظن انه استبقـــاها بدافع الكراهية ..

– ولأن الوشم لا يمحى .

– اوه ! كان قادراً على كيّه .. انه فتى يكره بقوة ..

– كان يكره ..

فنظر الي بخطورة :

– نعم ، كان يكره ..

وبعد فينة ، اضاف وهو يتأمل بانتباه سعفاً كان يقطع النافذة :

– هل صحيح ان الأمل نفسه كان له في نفس لينين هذا النمط ذاته ؟..

نظرت اليه ، خط اسود لشكله الجانبي في الضوء . بذلك لم يتغير . وهــذه الصورة الجانبية الشبيهـــة بتلك التي كانت له عند وصولي منذ حوالي الشهرين ، الشبيهة كذلك بتلك التي عرفتها من قبل ، تعطي كل طاقتها لتحويـــل صوته . وبدا ، منـــذ المساء الذي شهدته فيه في المستشفى ، كمن يفترق عن نشاطه ، يتركه يتنحى عنه مع الصحة ، مع الثقة المطلقة بالبقاء . لا تزال احدى الجمــل التي فاه بها منذ حين عالقة في خلدي : « ان تذكــّر درجة معينة من البؤس تضع الاشياء البشرية في مواضعهـــا ، كفكرة الموت .. » والموت ، غالباً ما يستعمله كنقطة تشبيه ، الآن ..

دخل رئيس دائرة السينمائية في الدعاية :

– لقد وصلت اجهزة التقاط المناظر من فلاديفوستوك يا قوميسير و«أفلامنا» جاهزة . هلا أردت مشاهدة العرض ؟

ما لبث ان عاد تعبير الحزم والقسوة الى الظهور على وجه غارين . ولقد أجاب : « هيا بنا » بلهجة صوته القديم تقريباً .

السابع عشر من آب

هُزم جانب من القطعات العدوة مؤخراً امام وايتشيئو على يد طليعة الجيش الأحمر . استعدنا المدينة ووقع في ايدينا مدفعان ورشاشات وجرارات وعدد كبير من الاسرى . والانجليز الثلاثة الذين كانوا يعملون كضباط لدى تشينغ ، اصبحوا الآن في طريقهم الى كانتون . ولقد اشعلت النيران في بيوت الاعيان الذين كانوا يقيمون علاقات ودية مع الضباط الاعداء .

يعيد تشينغ تعبئة جيشه وستخاض المعركة قبل ايام ثمانية . ان كل ما تملكه الدعاية يستعمل اليوم . تلقى رؤساء النقابات الأمر بالصاق نشراتنا بواسطة رجال يوجهونهم بأنفسهم : باتت النشرات فوق سقوف الصفيح المتاوجة ، فوق مرايا باعة الخمر ، في كل الحانات والسيارات العامة ، فوق العربات الفردية وعلى اعمدة السوق وحواجز الجسور ولدى كل الباعة : ملصقة على مراوح البونكا [(١)] لدى الحلاقين ، مبسوطة على الخيازر لدى باعة المصابيح ، موضوعة على زجاج الواجهات في المخازن ، مطوية على شكل مروحة يدوية في واجهات المطاعم ، مثبتة بورق لاصق على السيارات في المرائب . انها لألهية تتسلى بها المدينة جمعاء ، وفي كل مكان ، ترى هذه النشرات ، وفيرة كالصحف في اوروبا ، صباحاً ، بين

---

١ – مروحة مصنوعة من قطعة مربعة من القماش مثبتة الى اطار من الخشب ومعلقة بالسقف يتدلى منهـا حبل يمسك به رجل او طفل فيحركه جيئة وذهابا . وكان هذا النوع من المراوح مألوفاً في دكاكين الحلاقين لدينا حتى عهد ليس بالبعيد . المترجم

يدي المارة باحجام صغيرة (اذ لم تطبع الكبيرة بعد) ، بمستجديهـــا الرائعين الظافرين وجنودها الكانتونيين الذين تحيطهم الهالات وهم يرمقون فرار الانجليز شاحبين وصينيين خضر ، والى الاسفل ،وبخطوط اصفر ، طالب وفلاح وعامل وامرأةوجندي متماسكة ايديهم .

حل الحماس محل الابتهاج منذ نهاية القيلولة . جنود في ألبسة غير نظاميـة يطوفون الشوارع محتفلين فرحين والسكان جميعهم خارج بيوتهم وحشد كبير من الناس يمتد على طول رصيف الميناء ، بطيء الحركة ، جليـل المظهر ، يشده هوس صامت . والمواكب تتوالى بمزاميرها وصنوجها ولافتاتها، يتبعها الاطفال. والطلاب يتقدمون جمـاعات ملوحين باعلام صغيرة بيضاء تتماوج فتظهر وتختفي كأنها زبد البحر ، فوق اثواب وردية بيضاء مشدودة كألبسة الجيش . وكتلة الجمهور المتراصة الهادئة تتقدم ببطء ، كثيفة ، تنشق امام المواكب ، تاركة وراءها خطاً متردداً تخرج منه خوذ وقبعات القش المرنة المرفوعة على اطراف السواعد . وعلى الجدران نشراتنـــا ، وعلى الاسطحة لافتات ضخمة رسمت بالألوان على عجـــل ، تترجم الانتصار الى صور . والسماء بيضاء منخفضة ، والموكب الطويل يتقـــدم في ذلك الحر وكأنه يقصد معبداً . يتبعه عدد من الصينيات العجائز ، حاملات على ظهورهن في قماش اسود ، طفلاً نعساً مرفوع الذؤابة. وترتفع من الأرض ضوضاء بعيدة تحدثها الصنوج والصواريخ والصيحات والآلات الموسيقية مصحوبة بضجيج الخطى المختلطة واصطفاق القباقيب الخشبية العديدة المكتوم . والغبار الحامز يتراقص على ارتفاع الانسان فيخدش الحناجر ثم يمضي ليضيع في زوابع بطيئة في الشوارع الصغيرة شبه المقفرة التي لم يعـــد يظهر منها غير بعض المتأخرين وهم في عجلة تربكهم ثيابهم الجديدة ، ثيـــاب العيد . ومصاريع كل المخازن تقريباً مواربة او مغلقة كما هو الحال ايام الاعيـــاد الكبرى .

لم اشعر ابداً بالوحدة التي حدثني عنها غارين بمثل قوة احساس اليوم، الانزواء

الذي نحن فيه والمسافة التي تفصل ما فينا من عميق عن حركات هـذا الجمع المحتشد بل وعن حماسه ..

الغداة

عاد غارين من لدن بورودين غاضبا .

- انا لا أقول بأنه على خطأ اذ يستخدم موت كلين كما قد يستخدم أي شيء آخر . لكن ما وجدته اخرقاً ، ما اهاجني، هو ما زعمه لنفسه بانتوائه ارغامي على الكلام ، انا ، على قبره . ان الخطباء كثرة . أي لا ! انه يستسلم من جديد لهيمنة العقلية البلشفية التي لا تحتمل ، مدفوعاً بهوس الانضباط الارعن . هـذا شأنه ! لكنني لم اترك اوروبا في زاوية وكأنها كيس خرق لكي انتهى نهاية أي روبكسي كان أو لآتي الى هنا لتعليم كلمة الطاعة او تعلمها . « ليس هناك انصاف مقاييس تجاه الثورة ! » ! آه ! هاها ! هنـاك انصاف مقاييس في كل مكان ، حيثما هناك بشر ،وليس آلات .. انه يريد « فبركة » ثوريين كما «يفبرك» فورد السيارات ! سوف ينتهي هـذا نهاية سيئة ، وقبل وقت طويل . ان البلشفي يناضل ضد اليهودي في رأسه،رأس المنغولي الاشعر: فاذا تغلب البلشفي فواحيفاً على الدولية ..

مجرد حجة . ليس هذا السبب الحقيقي للشقاق .

هناك سبب آخر قبل كل شيء : لقد نفذ بورودين الاعدام بحق هونغ . وكان غارين ، على ما اعتقد ، يريد انقاذه ، رغم مقتل الرهائـن التي يبدو على أية حال انه لم يقع بأمر منه . ولأنه كان يرى ان هونغ ، رغم كل شيء ، لا يزال قابلاً للاستخدام ، ولأن بين غارين واتباعه رباطاً اشبه بالرباط الاقطاعي، ولأنه قد يكون واثقاً من ان هونغ سينتهي به الأمر عند الاقتضاء الى الوقوف بجانبه ضد بورودين ، وهو ما يبدو انه كان رأي هذا الأخير أيضاً ..

لا يؤمن غارين إلا بالطاقة . انه ليس عدواً للماركسيـة . لكن الماركسيـة ليست بالنسبة اليه « اشتراكية علمية » مطلقاً ، بل هي اسلوب تنظيمي للنزعات

العمالية ، وسيلة لتجنيد فرق صدام من بين العمال . اما بورودين ، فانه يبني بأناة الطبقة الارضية لبناء شيوعي. وهو يأخذ على غارين انعدام الهدف عنده وجهله بالوجهة التي يمضي فيها ، وانه لا ينجز غير انتصارات طارئة عرضية مهما كانت لامعة ، ومهما كانت ضرورية لا غنى عنها . بل ان غارين اليوم شيئاً من الماضي في نظره .

ويرى غارين ان بورودين يعمل وفق تطلعات معينة ، لكنها تطلعات خاطئة ، وان هذا الهوس الشيوعي سيقوده الى ان يجمع ضده « كيومنتانغاً » يمينياً اكثر قوة من كيومنتانغ تشينغ داي وان يعرض المتطوعين العمال الى السحق على يده .

ثم انه يكتشف (بعد فوات الاوان ..) ان الشيوعية ، ككل المذاهب الجبارة ، ليست إلا لوناً من الماسونية ، وان بورودين لن يتردد باسم انضباطه ، في استبداله بسواه ، ممن قد يكون دونه فعالية ولكن اكثر طاعة ، حالما يصبح وجوده هو ، غارين ، غير لازم بالضرورة .

★

ما ان احيط الانجليز علماً في هونغ كونغ بأمر المرسوم حتى اجتمعوا في المسرح الكبير وابرقوا من جديد الى لندن يطالبونها بارسال جيش انجليزي . لكن الجواب جاء برقيا : ان الحكومة الانجليزية تعارض كل تدخل عسكري .

★

سجل استجواب الضباط الانجليز الاسرى على اسطوانات الحاكي وارسلت اعداد كبيرة من هذه الاسطوانات الى الفصائل . لكن كل ضابط دافع عن نفسه بأنه انما جاء لمحاربتنا اذعانا منه لتعليمات حكومته ، فتوجب اجتزاء هذا المقطع من الاستجواب المسجل ، فوجب صنع اسطوانات اكثر « تثقيفاً» بكثير .

يقول غارين ان المرء قد يجادل في مقال صحيفة ولكن ليس في صورة أو صوت، وانه لا يمكن الرد على الدعاية عن طريق الحاكي والسينما إلا بالحاكي والسينما، وهو الأمر الذي لا تزال الدعاية المعادية، وحتى الانجليزية منها، عاجزة عن تحقيقه.

★

قال لي نيكولاييف هذا الصباح :

– انه يقوم بأشياء جيدة قبل الرحيل ..

و « الهاء » في انه تعني غارين .

– قبل الرحيل ؟

– نعم . اعتقد ان رحيله سيتم هذه المرة .

– ان عليه ان يذهب كل اسبوع ..

– نعم، نعم . لكنه سيرحل هذه المرة، وسترى . لقد حزم امره . فلو ان انجلترا ارسلت جيوشا لبقي على ما اعتقد . لكنه يعرف جواب لندن . اظن انه لم يعد ينتظر الا نتيجة المعركة المقبلة .. ويقول ميروف انه لن يصل الى سيلان .

– ولماذا ؟

– ولكن يا صغيري، لأنه اصبح منتهيا بكل بساطة .

– يمكن دائما ان يقال مثل ذلك ..

– ليس « الياء » من يقول بل ميروف .

– قد يخطىء .

– يبدو انه ليس هناك الزحار والمرزغي فحسب . فالامراض الاستوائية، عارف يا صغيري، لا يُلعب معها . عندما يصاب المرء بها، يعالج نفسه والا، فأمر مؤسف .. ثم مثله مثل غيره ! .

– ليس هو !

– انتهى عصره . نعم كان هؤلاء الرجال ضرورة . لكن الجيش الاحمر اصبح الآن جاهزاً وستهزم هونغ كونغ نهائيا في غضون بضعة ايام . يلزم الآن اشخاص يحسنون نسيان انفسهم اكثر منه . ليست بي موجدة ضده صدقني ، فالعمل معه او مع أي آخر .. مع ذلك ، ان به رواسب وآراء مسبقة ، انا لا اعيب عليه ذلك ، لكنها فيه يا صغيري .

واستطرد وهو يبتسم من جانب فمه وخبن جفنيه :

– انساني ، مفرط في الانسانية كما يقول بورودين . هـذا ما تقود اليه الامراض التي لا تعالج معالجة جيدة ..

فكرت في استجواب لينغ وفي مقاومات غارين التي يسميها نيكولاييف آراء مسبقة .

صمت ثم وضع اصبعاً على صدري واستأنف :

– انه ليس شيوعياً ، هوذا . اما انا ، فلا ابالي. لكن بورودين منطقي مع ذلك . ليس هناك مكان في الشيوعية للذي يريد اولاً .. ان يكون ذاته ، اعني ان يعيش منفصلاً عن الآخرين ..

– هل تتعارض الشيوعية مع الاحساس الفردي ؟

– انها تتطلب المزيد .. ان الفردية مرض بورجوازي ..

– لكننا لسنا بأنفسنا في الدعاية ان غارين على صواب : ان يهجر الفردية هنا معناه ان يعد نفسه للانهزام . وكل الذين يعملون معنا ، من روسيين وغير روسيين (وقد يستثنى من ذلك بورودين) هم على مثل فرديته .

– هل تعلم بانهما تبادلا السباب تبادلاً خطيراً، خطورة ما توازيه هذه التسمية ، بورودين وغارين ؟ آه ! بورودين ..

وأودع يديه جيوبه وابتسم ابتسامة لا تخلو من عداء :

– ستكون هناك امور كثيرة تقال عنه ..

– اذا كان الشيوعيون من النمط الروماني ، اذا جرؤت على القول ، اولئك

الذين يدافعون في موسكو عن مكاسب الثورة ، لا يرغبون في تقبل الثوريين من طراز .. ماذا اقول؟من الطراز الغازي الذين هم بسبيل اعطائهم الصين، فانهم..

– غازي ؟ قد يجد الكلمة مرة ، صديقك غارين ..

– .. سيحدّون بخطورة ..

– ولكن لا طائل فيه . لست تفهم من الامر شيئاً . ان بورودين يقوم هنا ، خطأ كان ام صوابا ، بالدور الذي يمثل البروليتاريا هنا، بمقدار ما يستطيع القيام به ، فهو يخدم اولاً هذه البروليتاريا ، هذا اللون من النواة التي يجب ان تتحسس بذاتها وان تنمو لتستولي على السلطــــة . ان بورودين نوع من رجل الدفة الذي ..

– وغارين كذلك . انه لا يعتقد بأنه صنع الثورة لوحده !

– لكن بورودين يعرف سفينتــه بينما لا يعرف غارين مركبه . كما يقول بورودين : « انه لا محور له » .

– ما عدا الثورة .

– انت تتكلم كالطفل . ليست الثورة محوراً الا بمقدار الزمن الذي يستغرقه صنعها . والا فانهــا ليست ثورة بل مجرد انقلاب بسيط ، عصيان عسكري . هناك فترات اتساءل خلالها عما اذا كان لن ينتهي نهاية احد الموسولينيين .. هل تعرف باريتو ؟

– كلا .

– لا بد وان يعرفه ، هو ..

– لست تنسى غير شيء واحد : ذلك انه اذا كانت احاسيسه الايجابية هي ما تقول (وهذا خطأ) ، فان احاسيسه السلبية ، هي ، واضحة : ان حقـده على البورجوازية وعلى كل ما تمثله متين . والاحاسيس السلبية ليست شيئاً عدماً .

– نعم ، نعم : جنرال ابيض ـ يساري .

ان كل هذا سيبقى مقبولا ما دام يقابــل عدواً مشتركاً لكليهما : انجلترا . (وليس عبثاً ان يكون على رأس دعاية الكيومنتانغ) . ولكن بعد ؟ عندما

يقتضي الامر تنظيم الدولة ، سيصبح ملزماً بان يكون مثل بورودين اذا انحاز للشيوعية. اما اذا مال للديموقراطية ـ وهذا سيدهشني لأن شخصيات الكيومنتانغ تثير في نفسه التقزز ـ ، فقد قضى على نفسه : فهو لن يرغب في ان يقضي عمره بممارسة سياسة الكواليس الصينية ولن يستطيع محاولة الدكتاتورية . هنا ، لن ينجح لأنه ليس صينياً . وعليه ، فان افضل مـا يفعل هو ان يعود الى اوروبا ويموت بسلام ومجد . ان عصر الرجال امثاله بلغ حد نهـايته . صحيح ان الشيوعية قد تستخدم ثوريين من هذا الطراز (على العموم ، انه هنا « متخصص ») ولكن شريطة ان تدعمهم .. باثنين من التشيكا ذوي حزم . نعم ، حزم . ما هي هذه النظم المحدودة ؟ بورودين ، غارين ، كل هذا ..

وبحركة رخوة من يده بدا كمن يخلط السوائل .

– منذ ان عرفت غارين ، يتنبأ علماء المنطق بمستقبله ..

واستطرد نيكولاييف :

– ولسوف ينتهي نهاية صديقك ، بورودين : الاحساس الفردي ، « شايف » هو مرض الرؤساء . ان اكثر ما ينقص هنا ، تشيكا حقيقية ..

★

الساعة العاشرة

هدير واصوات سفن شراعيـــة تتصادم . والقمر الذي يخفيه السقف ينعش الهواء الفاتر الخالي من الضباب . وقرب الجدار ، تحت الشرفة ، حقيبتان : لقد قرر غارين الارتحال غداً صباحاً . انه يفكر منذ فترة طويلة وهو جالس ، تائه النظرة متأرجح الذراعين . وفي اللحظة التي نهضت فيها لآخذ قلماً احمر للتعليق على « غازيت دو كانتون » التي فرغت من قراءتها منذ حين ، خرج من غفلته :

– كنت ما ازال افكر في جملة ابي : « لا يجب ترك الارض قط » . سيان ان يعيش المرء في عالم اخرق او في آخر .. فلا قوة ، بل ولا حياة حقيقية دون اليقين ، دون مخالطة باطل العالم .

انني اعلم ان معنى حيــاته نفسه مرتبط بهذه الفكرة وانه يستمد قوته من هذا الاحساس العميق بالمحال . فاذا لم يكن العالم محالاً أخرق كان معنى ذلك ان حياته كلها تتبدد في سلوك لا طائــل تحته ، ليس من هذا الزهو الجوهري الذي يزكي الحماس في اعماقه بل من زهو يائس . ومن هنا تأتي حاجته الى فرض فكرته . لكن كل شيء في نفسي هذه الليلة ممتنع ضده . انني اتخبط لمقاومة حقيقته التي ترقى في نفسي والتي يعطيها موته القريب استحسانا مشؤوماً . ان ما احس به تمرد اكثر مما هو احتجاج .. كان ينتظر جوابي كما ينتظر جواب عدو .

قد يكون ما تقوله صحيحاً . لكن اسلوبك في قوله يكفي ليجعله خاطئــاً غير مصيب بتاتاً . فاذا كانت هذه الحياة الحقيقية تتعــارض مع .. الاخرى ، فليس ذلك على هذا النحو الطافح بالرغبات والحقد !

– اي حقد ؟

– هناك ما يربط انساناً يملك وراءه دلائل القوة الكامنة وراءك انت، ما..

– ان يملك الانسان دلائل قوته شر وأدهى .

– ما يربطه طيلة حياته ، طيلة ..

– انني اعتمد عليك لتضرب لي المثل المثقف !

لقد اجاب بسخرية حاقدة تقريبــاً . فصمتنا كلانا . وددت فجأة ان اقول شيئاً يدنينا . فقد خشيت كما يخشى طفل من شعور مسبق ، ان ارى صداقتنــا تنتهي على هذا النحو ، وان اغادر هكذا هذا الرجل الذي احببته والذي ما زلت احبه رغم ما يقول ، رغم ما يفكر به ، هذا الرجل الذي يوشك ان يموت .. لكنه كان هــــذه المرة ايضاً أقوى مني . وضع يده اليمنى على ذراعي وقال بتمهل متودد :

– كلا ، اسمع : انني لا اسعى الى ان يكون الحق بجانبي ؛ لا اعمل على اقناعك . انني بكل بساطة امين حيال ذاتي . لقد شهدت كثيراً من النـــاس

يتألمون ، وبشكل مرذول احيــانآ ، واحياناً بشكل رهيب . لست انساناً ناعماً ، ولكن حدث ان احسست باشفـاق عميق ، من النوع الذي يطبق على خناق الانسان . عندما كنت اجد نفسي وحيداً مع ذاتي ، كانت تلك الشفقة تنتهي الى التفسخ دائماً . فالألم يدعم ما في الحياة من محال . انه لا يهـاجم الحياة بل يجعلها لاذعة السخرية . ان حياة كلين تستدعي في نفسي احياناً شيئاً مـــا مثل .. مثل ..

لم يكن مبعث تردده البحث عن الكلمة المناسبة ، بل لون من الارتباك . لكنه استرسل وهو ينظر في عيني :

ـ هيا ، كفى : مثل ضحكة ما . هل تفهم ؟ ليست هناك مقارنة عميقــة بالنسبة لاولئك الذين ليس لحياتهم معنى . حيوات مسيّجة ، ينعكس العــالم فيها متغضناً كالصورة في مرآة ملوية . ولعله يُظهر فيها هيئته الحقيقيـــة ، لا اهميـــة لذلك : لكن هذه الهيئة ، ما من شخص ، ما من شخص ، أتسمع ! يستطيع احتمالها . قد يستطيع المرء ان يعيش متقبلاً المحـال لكنه لا يستطيع العيش في المحال . ان الاشخاص الذين يريدون « ترك الارض » يفطنون الى انها تلتصق بأصابعهم . فالمرء لا يفر منها ، والمرء لا يجد لها قصداً مدروساً ..

أردف وهو يطرق ركبته بقبضته :

ـ لا يحمي المرء نفسه الا بالابــداع . يقول بورودين ان ما يشيده الرجال امثالي هو وحده الذي لا يدوم . وكأن ما يشيده امثاله .. آه ! كم أود لو ارى هذه الصين بعد خمس سنوات !

المدة ! نعم الأمر كله فيها !

لزمنا الصمت كلانا .

ـ لمَ لمْ تغادر البلاد من قبل ؟

ـ ولمَ الذهاب ما دمت قادراً على التصرف بشكل آخر ؟

ـ بدافع التعقل ..

هز كتفيه ، وبعد صمت جديد اردف :

ـ لا يحيا الانسان تبعاً لما يرى عليه حياته ..

صمت آخر .

ـ ثم ان البهيمة تثبّت نفسها ، يعني !

وصمت . تصاعدت ضجة غريبة غامضة غير واضحة ، آتيـة من مكان غير محدود بعيدة شبه مكتومة .. اخذ يميرها سمعه هو الآخر . لكننا سمعنـا طقطقة رخوة لعجلات فوق الحصباء : لقد دخل الفناء راكب دراجة .وتصاعد الينا صوت خطى واضح . دخل ساع يحمل مغلفين يسبقه الخادم .

فتح غارين الاول ثم ناوله الي : ان الاشتباك واقع بين كل فرق جنود تشينغ تيونغ مينغ وقطعـات الجيش الاحمر التي وصلت الى الجبهة . لقـد بدأت المعركة الحاسمة .

وبينما كنت اقرأ ، فتح الرسالة التالية وهز كتفيه ثم كورها وألقى بهـا كالكرة وقال :

ـ سيان عندي . سيان عندي الآن . ليتدبروا امرهم . كل هذا ..

انصرف الأمين وسمعنا خطواته تبتعد والباب الحديدي الذي أغلقه . لكن غارين تمالك نفسه وكان واقفاً الى النافذة فناداه .

الباب من جديد . وعاد الأمين . وعندما بلغ اسفل النافذة تكلم مع غارين. لكن هذا سعل فلم اميز الكلمات .

ومن جديد انصرف الأمين . وراح غارين يمشي جيئة وذهابا ، غاضبـاً هذه المرة .

ـ ماذا هناك ؟

ـ لا شيء .

ـ حسناً . كان الأمر واضحاً . التقط الورقة المكورة فطواها وملسهـا

بيده اليمنى في شيء من الصعوبـــة بسبب جمود ذراعه اليسرى ثم استدار نحوي وقال :

ـ لنهبط !

مضى مزمجراً ـ ترى لنفسه ام لي ؟

ـ ضربة قادرة على ان تقضي على عشرة آلاف مخلوق !

ولما كنت قـــد كففت عن طرح الاسئلة ، حزم امره على ان يضيف وهو يهبط السلم :

ـ اثنان من اتباعنا ، عملاء في دائرة الدعاية ، ضبطا في اللحظة نفسهـا التي كانا يدنوان فيهـا من احد الآبار التي تستعملها قطعاتنا ، والسيانور في جيوبهما . عملاء مزدوجون . وجودهما لا مبرر له . لم يرويا شيئـــاً ولم يعترفا بشيء . ونيكولاييف يخطرني بأنه سيستأنف استجوابهما غداً !

قاد السيارة بنفسه وبسرعة قصوى اذ كان السائق نائماً . لم ينبس ببنت شفة. كانت يده اليمنى وحدها تمسك بالمقود وقد كدنا مرتين ان نرتطم ببعض البيوت لولا القليل . خفف السرعة وعهد الي بالقيادة ثم بدا وكأنه نسيني ، وهو ساكن الرأس مدفونه بين كتفيه ، وبقع خديه الغائرين اكثر من اي وقت مضى تظهر كلما مررنا ببعض الانوار لتختفي بعد حين ..

في ممشى دائرة الامن ، تبينت وأنا أمر ، نشرات كبيرة وردية اللون كنت ألمح بقعها منذ حين في الشوارع : انها المرسوم وقد ألصق بعنايتنا .

عندما وصلنا ، يسبقنا وقع اعقابنا السريعة العسكرية المقلقة تقريباً في هذا السكون ، كان نيكولاييف وراء مكتبه ، كالرجل الساذج ، معتمداً ظهره الى مسند مقعـده ، يحدق في السجينين بعينيه الصافيتين الشبيهتين بعيون الخنزير . كانا كلاهما يرتديان بزات من القماش الازرق كعمال الميناء ، احدهما له شارب متهدل دقيق اسود والثاني عجوز ذو شعر قصير كالفرشاة كامل استدارة الرأس

تشع منه عينان براقتان .

بدأت أخبر هذه الساعات الليلية في دائرتي الدعاية والأمن ، بسكونها ورائحة الزهور المقدسة وطين الليل القائظ وبتروله ، ووجوهنا المشدودة المنهكة واجفاننا الملتصقة وظهرنا المقوس وشفاهنا الرخوة ، وفي فمنا ذلك الطعم الكريه لاصباح السكارى ..

سأل غارين وهو داخل :

ـ هل لديك انباء عن المعركة ؟

ـ لا شيء ، مستمرة ..

ـ وجماعتك ؟

ـ لقد رأيت التقرير يا عزيزي . لا ادري شيئاً اكثر . لا شيء بعد على الاقل . يستحيل انتزاع كلمة منها . لكن ذلك لن يدوم ..

ـ من الذي ضمنها ؟

ـ رقم ٧٢ بحسب التقرير .

ـ تأكد ! فان كان صحيحاً ، يجب استدعاء رقم ٧٢ وارساله الى المحكمة الخاصة واعدامه .

ـ انت تعلم انه عميل من الدرجة الاولى .

فرفع غارين رأسه .

ـ .. وانه أدى لي خدمات في معظم الاحيان .. انه مخلص .

ـ لن يكون عليه بعد الآن ان يجهد نفسه ليكون مخلصاً . اما عن خدماته فقد كفاني منها . مفهوم أليس كذلك ؟

ابتسم الآخر واحنى رأسه الناعس أشبه بالتمثال الخزفي الذي يصور رجلاً بديناً مضحكاً ، الذي وضعه بسخرية فوق مكتبه .

ـ الى هذين الآن .

سحبت قلم الحبر من جيبي .

ـ كلا ، لا فائدة من الكتابة . لن يطول الأمر . وسوف يسجل نيكولاييف الاجوبة . من الذي اعطاكما السم ؟

بدأ السجين الاول ، الاصغر سناً ، يعطي تفسيراً يفتقر للمنطق : كان مكلفاً بتسليم تلك الرزمة الى شخص يجهل اسمه ، امرأة ، كان سيعرفها من اوصافها ، لكنه ..

كان غارين يفهم تقريباً لكنني رحت اترجم جملة جملة . وكان الصيني يضع راحته مبسوطة فوق ذوائب شاربيه الطويلين ثم يسحبها بعصبية حين يرى ان حركته تمنع من اسماع صوته ، ثم يعيدها وكأنه مصاب برعشة عضلية . ونيكولاييف ينظر الى المصباح الذي تحيط به حشرات قصيرة العمر ، يدخن متعباً . لم تكن المراوح تعمل ، لذلك كان الدخان يرتفع عموديا .

قال غارين :

– كفى !

مد يده الى نطاقه :

– طيب ! لقد نسيته مرة أخرى !

ودون ان يضيف كلمة ، فتح جرابي بيده الطليقة وسحب منه مسدسي فوضعه على المكتب ، حيث كانت الزوايا المعدنية تلمع .

– قل للأول تماماً ، انه اذا لم يعطنا المعلومات المتوجبة عليه في غضون خمس دقائق ، « فسأنفضه » رصاصة في رأسه ، انا .

ترجمت . رفع نيكولاييف احد كتفيه بحركة دقيقة ، فكل المخبرين يعرفون ان غارين « رئيس كبير » وان طريقته جديرة بطفل . دقيقة .. دقيقتان ..

– آه ! كفى حتى الآن ! ليجب على الفور !

قال نيكولاييف باحترام وسخرية :

– لكنك قلت ان امامه خمس دقائق .

– انت ، اكفني نفسك ، هه !

اخذ المسدس عن المكتب . كانت يده اليمنى ثابتة رغم وزن السلاح : امـا اليسرى التي تبرز من العلاقة ، فبيضاء ترتعد من الحمى . قلت للصيني من جديد ان يجيب فأتى بحركة تدل على العجز .

الانفجار . لم يتحرك جسد الصيني ، بينما ارتسمت على وجهه سمة ذهـول عميق . وقفز نيكولاييف واستند الى الجدار . هل ُجرح ؟

ثانية .. اثنتان .. وانهار الصيني ، رخواً وساقاه نصف منثنيتين وبدأ الدم يسيل .

تمتم نيكولاييف :

– لكن ، لكن ..

– « حلْ » عني !

بلغت اللهجة حداً لم يلبث الرجل البدين بعدها ان صمت . لم يعد يبتسم . تهدل فمه فزاد من ابراز خديه المتدليين وانعقدت يـداه على صدره بحركة امرأة عجوز . كان غارين ينظر الى الجدار امامه وسبطانة المسدس منخفضة نصف انخفاضة يتصاعد منها دخن خفيف شفاف .

– الى الآخر الآن . ترجم من جديد .

لا فائدة . كان الكهل قد بدأ يتكلم ، وقد استبد به الذعر وراحت عيناه تختلجان..وامسك نيكولاييف بقلم وراح يدون ملخصات الحديث بيد مرتعدة ، قال غارين بالكانتونية :

– اصمت .

ثم التفت الي وقال :

– اخطره قبل ان يسترسل اكثر من ذلك انه اذا كان يروي لنا الاكاذيب فان ذلك سيجلب عليه الشؤم ..

– انه يرى ذلك جيداً .

– ان عقوبة الموت تصبح اكثر اتقانا عند الاقتضاء .

– كيف تريدني ان اقول له هذا ؟

– آه ! كما تشاء !

(والواقع انه كان يفهم ..)

وبينما كان السجين يتكلم بصوت لاهث كان نيكولاييف ينفخ طارداً الحشرات النافعة المتساقطة على ما يلخصه من اقوال ..

اشترى الرجل من قبل عملاء تشينغ تيونغ مينغ ، كان ذلك واضحاً . تكلم بسرعة بادىء الأمر لكنه لم يذكر شيئاً جوهرياً . فقد تردد حينما رأى فوهة المسدس مخفضة . وفجأة صمت . فنظر اليه غارين وهو في ذروة السخط .

– و .. اذا .. اذا قلت كل شيء ، ماذا تعطو ..

لم يلبث ان سقط وذراعاه ممدودان كالجناحين الصغيرين وراح يتدحرج الى مسافة متر . لقد اهوى غارين الغاضب على فكه بقبضته ثم جلس على ركن المكتب وقبضته ما تزال مضمومة وراح يعض شفتيه مقطب الحاجبين :

– لقد نكأ جرحي .

اما السجين فقد تظاهر بالموت حيث هو على الارض .

– اسأله عما اذا كان سمع شيئاً عن البخور !

ترجمت مرة اخرى ففتح الرجل عينيه ببطء وقال دون ان ينهض موجهاً حديثه الى احدنا دون ان ينظر الينا :

– كانوا ثلاثة . القي القبض على اثنين منهما ، وأحد هذين قد مات . اما الآخر فهنا . ولعل الثالث في جوار الآبار .

نظرنا غارين وانا الى نيكولاييف الذي كان يريد ارجاء الاستجواب الى الغد . بذل جهداً كبيراً ليخفي كل شعور . فلا فمه تحرك ولا حاجباه . لكن عضلات خديه كانت تتقلص وتتمدد بسرعة وكأنها ترتعد . راح يكتب بينما

اخذ السجين يعيّن الوقائع بدقة .
– أهذا كل شيء ؟
– نعم .
– اذا كنت لم تدلِ بكل شيء ..
– لقد ادليت بكل شيء .
بدا السجين بعدئذ لامباليا .
قرع نيكولاييف الجرس ، واطلعنا على ورقة ثم اعطاها للساعي .
التفت الينا :
– في هذه الحالات .. في هذه الحالات .. لعل هناك آخرين على أية حال .. واذن .. غارين .. ألا ترى .. انه يجب بذل محاولة ما ... كيفما اتفق ؟

كان على استعداد للأمر بتعذيب ذلك الرجل « كيفما اتفق » وهو الذي كان سيرجىء استجوابه الى الغد ، ليجد بذلك عذراً لاهماله الرهيب .
تمتم غارين بين اسنانه :
ـ لن نستخلص منه شيئاً جديداً .
ثم اضاف بصوت مرتفع :
ـ الكي يروي لنا الاكاذيب ويطلقنا على آثار خاطئة؟ .. لا يمكنه امتلاك معلومات عامة . في « شغلة » الآبار ، لا يزيد العملاء عن الثلاثة تقريباً ابدا . ثلاثة ؛ سامع ؟ ليس اثنان !

وبدوره قرع الجرس اربع مرات . دخل جنديان واقتادا السجين . اما نيكولاييف الذي لم يحر جواباً فقد راح يزيح الحشرات المتساقطة فوق مكتبه بحركة رفيقة من يده وكأنه يملس الورق الذي امامه كما يفعل الطفل العاقل .

التقينا في الممشى بساع من مفوضية الحرب يحمل برقية : بدأت قطعات تشانغ تتراجع .

✶

سلم بيت غارين مظلم : فالمصباح الذي ينيره قد تحطم . والليـل مستمر في الخارج وفي اعصابي .. اجفـــاني متحرقة لكنني لا اشعر بنعاس . رعشات خفيفة تجتاح جسدي و كأنني بدأت ادوخ من السكر. وبينما كنت اضع اقدامي بتثاقل باحثاً باذني عن كل درجة ، انطبقت اجفاني فرأيت بمزيج من التشوش والاشراق العجيب صوراً مشوهة : السجينين ، السجين الميت (على الارض) ، نيكولاييف ، الزواج السخريّ الذي تحـــدث عنه غارين ، خطوط اضواء الشوارع ، وجه كلين الممزق ، بقعة المنشورات الوردية .. انتفضت لدى سماعي صوت غارين و كأنني استيقظت مترجفاً :

ـ لا استطيع ان آلف هذا الظلام . انه يعطيني الاحساس بانني اعمى ..

ولكن ها هوذا الضوء . نحن من جديدة في الحجرة الصغيرة والحقيبتان ما تزالان هنا .

ـ أهذا كل ما تحمل معك ؟

ـ من اجل بضعة اشهر ، يكفي ويزيد ..

أصغى بالكاد الى ما اقول . كان يصيخ السمع بضجة ضعيفة جداً تملأ البيت كله ، ضجة كانت تشغل بالي قبل انصرافنا .

ـ هل تسمع ؟

ـ نعم .. لقد سمعت هذه الضجة من قبل ، قبل انصرافنا ..

ـ من اين تظن انها آتية ؟

ـ اسمع ..

هناك شيء غامض في هذه الضجة المكتومة النائية الآلية . انها صريف أصم كصريف الحيوانات القارضة ، لكنه منتظم تصدر عنه بالتناوب ، فقاقيع في ماء عكرة ، واصوات تشبه طقطقات الخشب ، تتطاول لفترة ككل الاصوات في الظلام وتضيع في ذلك الصريف الدائب الذي يبـدو وكأنه صادر عن القبو والافق بآن واحد . توقف غارين قلقاً ، يتنفس بصعوبة ، وكتفاه مضمومتان ، يحاول الاتيـــان بأقل ضجة ممكنة . ان اي نقيض من حذائه يُخبي الاصوات

والضجات بشراسة لتعود بعد ثوان معدودة ، اشبه بوميض خافت جداً ، فتعلو لتعاود احتدادها البعيد الممتنع التفسير . واخيراً استرخى جسده وصرف حركة لامبالية ثم استلقى على السرير الخشبي :

ـ هل تريد شيئاً من القهوة ، في هذه الاثناء ؟

ـ كلا ، شكراً . انك لتعمل عملاً افضل لو اخذت بعض الكينين وغيرت ضمادة جرحك ..

ـ كل شيء في حينه ..

نظر الى حقائبه :

ـ ثلاثة اشهر ولعلها ستة ؟..

اخذ يعض الجانب الانسي من خديه وهو دائم الاكتئاب :

ـ ثم على كل حال ، لن يكون البقـــاء هنا اكثر ذكاء لعدم الذهاب في الوقت المناسب ..

وهو اذ قال : البقاء لم يكن يعني الاقامة بل : الموت .

ـ ان صديقي نيكولاييف يلمح الى ان الأوان قد فات ..

كان حتى الآن يتحدث مع نفسه . لكن طبقـــة صوته تغيرت وهز كتفه اليمنى مرة اخرى ايضاً :

ـ يا للمخبول !.. لو انني ما ذهبت الليلة الى هناك... بمن يستطيع بورودين ان يبدلني ؟ بـ : شين فيما يتعلق بدائرة الدعاية للفصائل. ولكن بمن عن الخدمات الاخرى ؟ ببعض الاقوياء امثال نيكولاييف ـ المنضبط ، الشديد الانضباط ـ فقد تسوء العقبى ... لقد مات كلين...على أية صورة سأرى كل هذه الامور عند عودتي ؟... تكفي هفوة من دائرة الأمن لتجعلني ادخل في حياة كانتون هـــذه كما ادخل في سترتي . مع ذلك يخيل الي في هذه اللحظة انني قـــد انصرفت من هنا . يا لله ! اذا نفقت وانا في البحر ، فبامكانهم ان يلصقوا على الكيس بطاقــة جميلة !...

أصبحت شفتاه أرق مما كانتا عليه منذ حين وعيناه مغمضتين. واختلط ظل

أنفه الذي بدا اكثر نتوءاً على تلك الحالة ، بالدائرة المحدقة بعينه اليسرى . انه بشع ، بشاعة الاموات المزعجة الحادة قبل طلاقة الوجه :

– فكر انني عندما جئت الى هنا على عهد لامبير ، كانت كانتون جمهورية مهزلة ! واليوم ، انجلترا ! الانتصار على مدينة . التغلب على مدينة : فالمدينة اكبر ما في الوجود من مدلول اجتماعي ، بل رمز المجتمع نفسه : هناك واحدة على الاقل يضعها الكانتونيون المقملون في وضع رائع ! هذا المرسوم .. جهد كل الرجال الذين جعلوا من هونغ كونغ قبضة مضمومة ، اصبح اخيراً ...

أنزل قدمه وانحنى الى الامام وكأنه يسحق شيئاً ما ببطء وثقل . وبنفس الوقت الذي نصب فيه قامته ، أخرج من جيبه مرآة صغيرة ذات خلفية من السلولوئيد وراح ينظر فيها الى وجهه (وتلك اول مرة).

– اظن ان الوقت كان قد حان ... حقيقاً انه لمن الغباء المفرط ان اموت كأي فلاح في مستعمرة . اذا لم يُغتل الرجال امثالي فمن الذين يغتالون ؟

كان في اقواله شيء ما يقلقني ، يضايقني .. استأنف :

– ماذا تراني مستطيعاً فعله في اوروبا بحق الشيطان ؟... موسكو ؟... في الحال التي انا فيها مع بورودين ... انني احذر اساليب الدولية ، ولكن لا بد من التأمل ... خلال ستة ايام، شانغهاي، وبعدها المركب النرويجي والاحساس بالنزول الى حجرة بواب البناية . المهم ان لا ارى كل ما صنعته قد استحال الى مزق عندما سأعود ! يملك بورودين قوة كبيرة ، لكنه يملك احياناً كثيراً من الخرق ... آه ! لا يمضي المرء ابداً حيثما كان يريد ...

– الى اين كنت تود المضي بحق الشيطان ؟

– الى انكلترا . انني ادرك الآن ما هي المملكة . صولة عنيدة ودائبة . ادارة وتقرير . اكراه . هنا تكمن الحياة ...

وفجأة فهمت السبب الذي من اجله كانت اقواله تحيرني : انه لم يكن يريد اقناعي انا ، انه لا يؤمن بما يقول فيبذل طاقة اعصابه المتوفزة لاقناع نفسه ...

ترى هل يدري انه هالك ، هل يخشى ان يكون ، ام تراه لا يدري شيئاً ؟ ان حنقاً يائساً يتولد في نفسي من توكيداته وآماله ازاء الموت الأكيد . استبدت بي الرغبة في ان اقول له : « كفى ، كفى ! سوف تموت » . راودني اغراء ، كان وجودي والاستحالة المادية كافيين مع ذلك لصده . لقد أمعن المرض في وجهه تقميراً حتى رأيتني لا احتاج الى اي جهد لأتخيله ميتاً . مع ذلك ، وبالرغم مني ، كنت احس بانني اذا تكلمت عن الموت ، فسوف افرض على انظاره هـذه الصورة ، هذه التقاطيع الأكثر جلاء التي لا اجد سبيلاً للافلات منها . كما يبدو لي ايضاً ان كلماتي ستحوي شيئاً ما خطيراً ، وكأن موته المعروف من قبله قد اصبح بفعلي امراً مقضياً .. اما هو ، فقـد صمت منذ بعض الوقت . وفي ذلك السكون ، عدنا الى الشعور بتلك الضجة الغريبة التي كانت تكايدنا منذ حين . لم تعد مجرد ضجة ، بل ضوضاء تحدثها رجات متعاقبة نائية او مكتومة جداً ، ضوضاء حلم ، يخيل معها انهم يقرعون الارض على مبعدة بادوات ثقيلة ملفوفـة بقطيفة . اما الاصوات الاكثر وضوحاً ، تلك التي كانت تشبه منذ حين طقطقة الاخشاب ، فقد استحالت معدنية توحي للمرء بالهدير المكتوم الذي يصدر عن كور الحداد ، هدير تطغى عليه ضربات المطارق الموسيقية ...

ومن جديد، اختلط بهذه الضوضاء المتداخلة صرير عجلات تنبو على الحصباء. صعد مستجد يسبقه خادم . انه يحمل جواب ضابط اللاسلكي . والضجـة تملأ الغرفة وان كانت نائية ...

سأل غارين الخادم :

– هل تسمع ؟

– نعم يا سيدي المفوض .

– ما هذا ؟

– لا ادري يا سيدي المفوض .

هز المستجد رأسه :

– انه الجيش ، ايها الرفيق غارين ..

رفع غارين عينيه :

– انها مؤخرة الجيش الأحمر تتأهب لدخول المعركة ...

تنفس غارين بعمق ثم قرأ البرقيات وناولني اياها :

– ألقي القبض على العميل الثالث ، حاملاً ثمانمائة غرام من السيانور . تقهقر العدو . ألوية عديدة هيأتها الدعاية ، انضمت الينا . المؤن والمدفعية بين ايدينا . القيادة العامة في فوضى . الخيالة تتعقب تشينغ في فراره .

وقـّع اشعار الوصول واعاده الى المستجد الذي انصرف يتقدمه الخادم .

– لن يرى توقيعي بعد الآن خلال بعض الوقت!.. قطعات تشينغ ممزقة... قبل عام تكون شنغهاي ...

كان هدير القطعات يقترب ويبتعد مع الهواء الساخن . اصبحنا نميز الآن صرير الجرارات وارتجاج الارض المكتوم تحت وقع خطى الرجال ، واحياناً ، مع نفحة خانقـة ، حوافر الجياد وصدى محاور المدافع تقرع ... داخلته حمية غامضة مع هذه الجلبة النائية . أمن الفرح ؟

– قد لا أراك غداً صباحاً بين كل اولئك الحمقى الذين سيأتون لتشييعي ...

وببطء ، وهو يعض شفته السفلى ، أخرج ذراعه المصابة من العلاقة ورفعها. تحاضنـّا . ولد في نفسي أسى مجهول عميق ويائس استوجبه كل ما هناك من باطل، وذلك الموت الحاضر ... وعندما سقط النور من جديد على وجوهنا، نظر الي . بحثت في عينيه عن الفرح الذي تخيلت اني شهدته ، ولكن لم يكن فيهما شيء من ذلك . لا شيء الا تلك الصرامة الاخوية رغم قسوتها .

تنبيه

انقضى اكثر من عشرين عاماً على نشر سفر الشباب هذا وتدفقت مياه كثيرة تحت عديد من الجسور المحطمة ! وبعد عشرين عاماً على استيلاء جيش تشانغ كاي شيك الثوري على بكين ، سمعنا بخبر استيلاء جيش ماوتسي تونغ الثوري على كانتون تشانغ كاي شيك . فهل ترى سيطرد جيش ثوري آخر « الفاشي » ماو في غضون الاعوام العشرين المقبلة ؟ ترى ما رأي طيف بورودين في كل هذا ؟ بورودين الذي روت آخر الاخبار انه كان يلتمس من الكرملين قبل الحرب « مسكناً ذا مدفأة » ؟ وما رأي طيف غالين المنتحر ؟

مع ذلك ، فان جيوش ماو تستخلص انتصاراتها من الثورة التي كانت تعتلج في نفوس جنود قطعات العام ١٩٢٥ ، رغم الملابسات المعقدة التي قد تلقي – قد ... – بالصين الى جانب روسيا . وليست النزعة القديمة الى التحرر هي التي تبدلت . بل ان اكثر ما تغير هناك ليس الصين وليس روسيا بل اوروبا : لم يعد لأوروبا اي حساب .

✶

الا ان هذا الكتاب ملك للتاريخ في ظاهره . وهو ان طفا فليس لأنه وصف احقابا ما من الثورة الصينية ، بل لانه أبرز نموذجاً من الابطال ، تتحد فيه الكفاءة مع العمل والثقافة والتبصر المشرق . وهذه القيم كانت مرتبطة ارتباطاً غير مباشر بقيم اوروبا حينذاك . وطالما يسائلني الناس :

« الى مَ صارت في اوروبة اليوم من بين تلك ، القيم التي تخص الروح ؟ » ، افضل الاجابة بالنداء الذي وجهته الى رجال الفكر في ٥ آذار من العام ١٩٤٨ في قاعة بلييل *Pleyel* باسم زملائي الديغوليين . (نسبة الى دي‌غول رئيس الجمهورية الفرنسية) .

ان شكله (اختزال خطاب مرتجل بتتبع ملاحظات) يدل دلالة مستفيضة على انه ليس بمجرد محاولة . لقد وسعت بعض الفكر التي وردت فيه على صعيد آخر في « سيكولوجية الفن » . لكن ما في الخطاب من نبوءة هادفة ، بدا لي وكأنه منذور لأهواء الرواية وحدود المشاكل التي تقترحها اكثر منه ممارسة لتجرد مفتعل . ان ضعف الاحساس الاوروبي لا يحلّل فيه الا بشكل موجز ، بينما يتطلب الامر تسليط الانوار على التهديد الاكثر مباشرة والاكثر استتاراً واعني التخبيل عن طريق السيكوتقنية [1] (وقد قطعت الدعاية شوطاً بعيداً منذ غارين) ، وتحديد ما يجب ان يصان في اعيننا ، تحديداً دقيقاً .

« لقد تعرض الفكر الاوروبي لتغير جوهري مزدوج . ان مأساة القرن العشرين في نظرنا هي التالية : في ذات الوقت الذي تحتضر فيه اسطورة الدولية السياسية يحدث تدويل في الثقافة لا سابق له » .

---

١ ـ « السيكوتقنية » هي دراسة الطبائع والملكات دراسة علمية لتوجيه الاشخاص الوجهة التي تتفق ومؤهلاتهم . وهي تستعمل اليوم للتأثير في الجماهير وفي الرأي عن طريق مختلف الوسائل الاعلامية .
المترجم

« فمنذ صيحة ميشليه [١] Michelet وحتى صيحة جوريس [٢] Jaurès ، بدا طيلة القرن الأخير بما يشبه اليقين ، ان الانسان ليصبح اكثر انسانا بمقدار ما يقل ارتباطه بوطنه . ولم يكن ذلك دناءة ولا غواية : كان حينذاك صورة الأمل . كان فيكتور هوغو يظن ان الولايات المتحـــدة الاوروبية ستتكون من تلقاء ذاتها وانها ستكون فاتحة الولايات المتحدة العالمية . في حين ان الولايات المتحدة الاوروبية تتكون في الألم بينما لا تزال الولايات المتحدة العالميـــة بعيدة المنال ... »

« الذي علمناه ، هو ان حركة الازدراء الكبرى التي أزاحت بهـــا روسيا انشودة الدولية التي سيظل مرتبطاً بهـا حلم البشر الازلي في العدالة ، شاءت أم أبت ، كنست دفعة واحدة احلام القرن التاسع عشر . ونحن نعلم منذئذ ان المرء لن يكون اكثر انساناً بمقـــدار ما يكون اقل فرنسية ، بل انه يصبح ببساطة اكثر روسية . اننا مرتبطون بالوطن في السراء كما في الضراء . ونحن نعلم اننا لا يمكن ان نكون اوروبيين بدونه . وان علينا ، شئنا ام ابينا ، ان نقيم الاوروبي فوقه » .

« وفي الوقت الذي كان هذا الأمل العظيم يموت فيه ، وفي الوقت الذي كان كل انسان يرتد الى وطنه، بدأ انتاج غني من الاعمال الفنية يغزو المدنية : بدأت الموسيقى والفنون البلاستيكية في ابتكار وسيلة انتشارها » .

ودخلت الترجمات في كل بلد من بابه الواسع : لحق فيهـــا الكولونيـل لاورانس ب : بنيـــامين كونستان [٣] ومجموعة بايّو بمؤلفـــات

١ ـ هو جول ميشليه المؤرخ والاديب الفرنسي (١٧٩٨ ـ ١٨٧٤) الذي أدت آراؤه المتحررة الى إلغاء براجه في « كوليج دوفرانس » مرتين . له عـدة مؤلفات منهـا تاريخ فرنسا وتاريخ الثوره والجبل، والطير الخ ... المترجم

٢ ـ هو جان جوريس ولا ريب الذي اغتيل في باريس عام ١٩١٤ وكان احد زعماء الحزب الاشتراكي . ولد عام ١٨٥٩ . المترجم

٣ ـ بنيامين كونستان دو روبيك ، سياسي وكاتب فرنسي (١٧٦٧ ـ ١٨٣٠) ، شغل مركزاً مرموقاً في حزب الاحرار الفرنسي وكان صديقاً لمدام ستايل ، خلف آثاراً فكرية فـذة عن الدين ومصدره واشكاله وتطوره . المترجم

غارنييه [1] المدرسية (الكلاسيكية) .

« واخيراً ولدت الصور المتحركة . وفي هذه الساعة قد تبكي امرأة هندية تشهد آنا كارنينا، متأثرة بالفكرة التي كوّنها الروسي تولستوي عن الحب ،والتي تعبر عنها ممثلة سويدية وينتجها مخرج امريكي... »

«فاذا كنا قد فشلنا في توحيد احلام الاحياء،فاننا على الأقل وحدنا الأموات بشكل افضل !

« وفي هذه القاعة ، نستطيع ان نقول هذا المساء دون ان نتعرض للهزء : « انتم يا من تجلسون هنا ، انتم الجيل الاول من ورثة الارض برمتها . »

« كيف يتسنى تحقيق مثل هذا الميراث ؟ لنكن على بينة جلية من ان كلاً من الحضارات التي بادت كانت تتصل بجانب من الانسان فحسب.كانت حضارة العصر الوسيط تثقيفاً للروح قبل كل شيء ، كما كانت حضارة القرن الثامن عشر تثقيفاً للفكر اولاً وقبل كل شيء . ومن عصر الى عصر ، اخذت الحضارات المتعاقبة التي تتوجه الى اركان في الانسان متوالية ، تتنضد بعضهافوق بعض.فهي لا تنضم انضماماً عميقاً الا في ورثتها . والارث تحول دائم . والوارث الحقيقي لشارتر [2] *Chartres* ليس فن كنيسة سان سوبليس بل هو رامبران [3] *Rembrandt* . وميكل آنج الذي ظن انه يعيد احياء القديم لم يكن يحيي غير ميكل آنج ... »

---

١ ـ غارنييه : اسم عائلة فرنسية غنية بالرجالات البارزين في مختلف المجالات من بينهم الشاعر روبير غارنييه (١٥٣٤ ـ ١٥٩٠)والاقتصادي جرمان غارنييه وزير الدولة (١٧٥٤- ١٨٢١) والفيلسوف ادولف غارنييه (١٨٠١ ـ ١٨٦٤) والاقتصادي كليمان جوزيف غارنييه من انصار التبادل الحر (١٨١٣ ـ ١٨٨٢) والمهندس شارل غارنييه الذي اقام دار اوبرا باريس ١٨٢٥ ـ ١٨٩٨ وغيرهم وغيرهم . المترجم

٢ ـ شارتر مدينة فرنسية على نهر الأور ٨٨ كم ج. غ. باريس ، مشهورة بكاتدرائيتها التي تعتبر قمة الفن الغوطي . المترجم

٣ ـ رامبران فان رين ، رسام ونحات هولندي شهير ابدع ما لا يقل عن ٣٥٠ لوحة رائعة من بينها درس التشريح واسرة النجار وجولة الليل الخ ... (١٦٠٦ ـ ١٦٦٩) . المترجم

« ترى ماذا كان بمقـــدور اولئك الذين تولدت حضارتنا عنهم ان يقولوا لأنفسهم ؟ انها تضم ركناً يونانياً وركناً رومانياً وعنصراً دينياً ، وكلنـا نعرف ذلك . ولكن ، ماذا كان ليتبادل القيصر والياس النبي من احاديث ؟ رجوم ! فلكي يولد حقاً الحوار بين المسيح وافلاطون كان لا بد وان يولد مونتاني [١] Montaigne » .

« ان الوارث وحده هو الذي يحدث عنده التحول الذي يلد الحياة » .

« وهذا التحول ، من ذا الذي يطالب به اليوم ؟ الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي واوروبا . وقبل ان اصل الى جوهر الموضوع ، بودي ان امهد له قليلاً ، فأستبعد اولاً الدعابة الساخرة التي تزعم ان الثقافات في تناحر دائم على طريقة الدول . ان امريكا اللاتينية تكفي لتنهض دليلاً على سخف هذا الزعم . انها توفق في الوقت الحاضر بين ما ترغب في تلقيه من العالم الانجلوسكسوني وما تريد الحصول عليه من العالم اللاتيني دون أي صراع . هناك منازعات سياسية لا تُجبَر ، ولكنه باطل تماماً ان تكون المنازعات الثقافية ممتنعة الانتقاص من حيث التعريف ، اذ قد يحدث ان تكون على ذلك النحو وعلى اخطر الاشكال كما يحدث ان لا تكون كذلك مطلقاً » .

« فلنوفر على انفسنا هـذه المانوية [٢] الخرقاء ، وهذا الفصل بين الملائكة اصدقاء الخطيب وبين الشياطين اعداء الخطيب ، الذي اصبح مألوفاً كلما كانت امريكا وروسيا محور القضية . ان ما نفكر فيه عن السياسة الروسية حيال بلدنا واضح : نحن نرى ان القوى التي جعلتهـا تعمل لصالح فرنسا ابان التحرير هي

---

١ ـ ميشال دو مونتاني كاتب اخلاقي فرنسي ١٥٣٣ ـ ١٥٩٢ ، مبدع وخلاق ، خلد اسمه في مؤلفه : *Essais* « اختبارات » الذي صور فيه بالاحرف الانسانية جمعاء . وقـد اصدرت منشورات عويدات دراسة عنه في سلسلة « زدني علماً » . المترجم

٢ ـ نسبة الى مانوس من مواليد القرن الثـالث الميلادي ، الذي يرى ـ مثله في ذلك مثل زرادشت ـ وجود مبدأين اساسيين للوجود هما الخير والشر ، احـدهما خير مطلق والآخر شر مطلق . ثم اطلق اسمه على كل مبدأ من مبادىء الضدين . المترجم

نفسها التي تجعلها تناهضها اليوم بغلة لا تروى، واننا نزمع تنسيقها تنسيقاً حسناً. لكن ستالين لا يعني شيئاً ضد دوستويفسكي، ليس اكثر من ضمان عبقرية موسّورغسكي [1] لسياسة ستالين».

«لنتطلع اولاً الى مطالبة الولايات المتحدة بتركة العالم الحضارية. النقطة الاولى: ليست هناك حضارة تتحلى بخصائص امريكية في امريكا. انها بدعة الغربيين. انهم في امريكا، يعتبرون ان هناك زخرفاً خاصاً للحياة. ويعتبرون ان امريكا بلد دون جذور، بلد مدني: بلد يجهل العلاقة القديمة العميقة بين الاشجار والحجارة التي تتصل بها اقدم عبقريات الصين واكثر العبقريات الغربية قدماً. بلد له علينا ميزة القدرة والارادة على استقبال كل تركات العالم بشعور مماثل فيرينا هذا المتحف الرئيسي او ذاك، التماثيل الرومانية التي تنظر عن بعد الى غربنا في القاعة ذاتها التي تعرض تماثيل تانغ التي تنظر الى اعماق الحضارة الصينية».

«اوليست الحضارة، اية حضارة عظمى، حتى في صيغتها الملحمية، مشغل تحف وعاديات رفيع. والحضارة الامريكية مضمار معارف اكثر بكثير مما هي مضمار حضارة عضوية، حالما تصبح اوروبا منفية منها».

«ومن جهة اخرى، تعطي امريكا فنون الجماهير نبراتها: كالراديو والسينما والصحافة».

«ان فنها يبدو مطبوعاً بالخاصة الامريكية عندما يكون فناً جماهيرياً على الاخص. وتالله، ليس بين روح «لايف» وروح «سامدي سوار» كثير من الاختلاف. هناك بكل بساطة امريكيون اكثر مما هناك من فرنسيين..»

«وأخيراً، ان لأمريكا رومانسية خاصة (نسق خاص في الابتكار الخيالي). ولكن، وأقولها مرة اخرى، هل هي امريكية بخاصتها؟ هناك بلا جدال،

---

١ - موسورغسكي (بضم الواو) موسيقي روسي ومؤلف اوبرات مشهور ١٨٣٩ - ١٨٨١ المترجم

موقف امريكي حيال العالم، هو تحليل دائم للعالم في معطيته الرومانسية. ولكن، هل تراني بحاجة الى تذكيركم بان ريشيليو في رواية الفرسان الثلاثة كان أقل عظمة بسبب تنبيهه الملك الى فقدان مجوهرات آن دوتريش منه لما فعل بفرنسا ؟ ان امريكا في الوقت الحاضر تعني الرومانسية اكثر مما يعنيها اي بلد آخر، لكنها تعنيها على الارجح بوصفها بلد جماهير . والحضارة أبعد كثيراً من مثل هـــذه المسائل. ترى ماذا يرى المثقفون الامريكيون ؟ انهم يرون ان الثقافة الامريكية هي احدى ثقــافات الغرب الوطنية وانه ليس هناك من فارق بين الثقافـــة الامريكية العليا والثقافة الفرنسية العليـــا الا بقدر ما بين هذه وبين الثقافة الانجليزية او ما كان يدعى بالثقافة الألمانية العليا . ونحن في اوروبا ، لسنا اناساً نتشابه شبهاً كلياً ! وثقوا بان الانحراف بين البيهافيورية والبيرغسونية ليس من طبيعة تختلف عما هي عليه بين بيرغسون وهيغل . خلاصة القول : ان امريكا لم تكن قط متمخضة في مداركنا على الصعيد الحضاري كجزء من العالم بل فهمناها دائماً على انها جزء من عالمنا . فليس هناك فن امريكي بمقدار ما ليس هناك فنانون امريكيون . ان لنا مقاييس القيم ذاتها . صحيح انه ليس لديهم كل جوهر ماضي اوروبا ، لكن كل ما هو جوهري عندهم مرتبط باوروبا . اكرر : ان الحضارة الامريكية كحضارة متميزة عن حضارتنا تميُّز الحضارة الصينية ليست الا محض ابتكار مجرد ابتدعه الاوروبيون » .

« وانه ليس هناك من قياس فرضي لحضارة امريكية مختصة معارض لقياسنا ، الا بمعيار الاستعفاء الاوروبي ذاته » .

« من الصعب اعتبار روسيا بلداً اوروبياً دون شيء من الحرج » .

« كانت سان بيترسبورج تعطي انطباعاً « بمؤسسة » اوروبية (كما لا تزال تعطي لينينغراد اليوم) ، بوكالة امبريالية غربية رحبة — مخازن وثكنات وقباب بدلهي جديدة شمالية » .

« ولكن ، ان نعتبر الروسيين ، كما اعتبرهم خصومهم دائماً ، مجرد آسيويين ،

وبالتالي الواناً من الصينيين او الهنود ، امر يدعو للسخرية . ولعل الحقيقة انه لا يجب النظر بجدية مفرطة الى الخرائط الجغرافية، وان روسيا ليست في اوروبا ولا في آسيا بل هي في روسيا ، تماماً كاليابان التي يحتل فيها الحب والجيش دوراً عظيماً جداً ، والتي ليست في الصين ولا في امريكا ».

« ان بلدان اوروبا الأخرى جزء من حضارتنا بالرسوبات والمبادلات . ففي حقبة ما من القرون ، هيمنت ايطاليا واسبانيا وفرنسا وانجلترا عليها . وكل هذه البلدان تملك مشاعاً اسطورة اليونان الحضارية وروما ، وتركة خمسة عشر قرناً من المسيحية المشتركة . وهذه التركة الاخيرة وحدها ، التي فصلت سلافيي بوهيميا عن سلافيي روسيا ، ذات وزن ثقيل ثقلاً خاصاً ولا ريب ، كذلك فان تركة بيزنطة اثرت هي الاخرى تأثيراً عميقاً على روسيا حتى ان فن الرسم الروسي لم يستطع التخلص من نفوذها تماماً وحتى راح ستالين يستشهد بها بمقدار ما كان يفعل باسيل الثاني وبطرس الأكبر على الاقل » .

« لم تدخل روسيا في الحضارة الغربية الا ابتداء من القرن التاسع عشر بموسيقاها وروائييها . ولعل دوستويفسكي هو الوحيد من بين هؤلاء الذي ما يزال مطبوعاً بالخاصة الروسية .

« لقد اجاب ايليا اهرنبورغ اجابة غير مباشرة على مقابلة صحفية تحدثت فيها عن الحضارة الاطلسية بسؤاله : « ما هو الاوروبي ؟ القنبلة الذرية ام تولستوي ؟ »

« لنترك القنبلة الذرية وشأنها لو سمحتم . فاذا لم يكن الروسيون يملكونها حينذاك فليس ذلك بالتأكيد لأنهم سعوا اليها . وان نقدم ستالين على انه شخص من طراز غاندي ، امر يفتقر الى الجدية ! »

« بقي تولستوي . عن اي تولستوي نتكلم ؟ ان مؤلف آنا كارنينا والحرب والسلام ليس جزءاً من اوروبا فحسب بل انه احد ذرى العبقرية الغربية . والقول

المأثور : « يستحسن ان لا نبصق في المياه التي شربنا منها » . فهو عندما كان يكتب رواياته ، كان يريد ان يكون اوروبياً قبل كل شيء ، لشعوره بالمنافسة بينه وبين بلزاك على الأخص . ولكن اذا كان الأمر متعلقاً بالكونت ليون نيكولاييفيتش الذي يحاول من جانبه ان يحيي كغاندي مسيحي على لون ما ، وان يموت في الثلوج على طريقة احد أبطال بيلين ، والذي كتب قائلاً : « انه يفضل زوجاً جيداً من الاحذية على شكسبير » ، فانني حينئذ سأفكر باحد كبار ملتهمي بيزنطة ، حتى اذا وجب بأي ثمن ان نقارنه باحد العباقرة ، فسنقارنه بطاغور الذي لا يمكن فصله عن الهند . وهوُ ان كتب رواية من اكبر الروايات العالمية ، البيت والعالم ، فلن نقارنه بستاندال .

« ان اكثر ما يفصله عنا هو بلا ريب ما يفصلنا نحن أيضاً عن روسيا : عقيدته الشرقية . ان ستالين مؤمن بحقيقته وحقيقته لا هامش لها . اما تولستوي فانه ما أن انفصل عن الغرب حتى فقد ايمانه بحقيقته بينما وضعت عبقرية دوستويفسكي طيلة حياة هذا الأخير في خدمة عظة جامحة لا تقهر . لم يكن لروسيا قط « نهضة [١]» ولا « أثينا » ، لا باكون ولا مونتاني .

« في روسيا دائماً ما يميل الى الانطباع بطابع اسبارطة وما يريد الانطباع بطابع بيزنطة . فاما اسبارطة ، فانها تنتظم بسهولة في الغرب . واما بيزنطة فلا . واليوم ، نستطيع ان نرى في التصنيع المجنون لهذا البلد الزراعي الهائل ، الذي شُرع فيه خلال الثلاثين عاما ، اعظم جهد مفرط « للتغريب [٢]» عرفه منذ بطرس الكبير . « ان نلحق بأمريكا ونسبقها ! » . لكن العقلية الروسية تحمي نفسها بمقدار ما يزداد ذلك المجهود ضخامة » .

---

١ ـ المقصود هنا عصر النهضة والحضاره اليونانية . وباكون المذكور هنا هو فرنسوا باكون دوفيرولام (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) الفيلسوف الشهير المولود في لندن ، احد مبدعي النهج التجريبي .

٢ ـ نسبة الى الغرب وبالتالي الحضارة الغربية . المترجم

« ليس محض اتفاق ان يهاجم الشيوعيون الروسيون بيكاسو . ان هذا الرسام يثير مسألة المذهب نفسه الذي يقيمون اركانهم عليه ، انه شاؤوا ام أبوا ، اكثر مظاهر الوجود الاوروبي حدة ».

« اما على مستوى الفكر ، فان كل ما تسميه روسيا : افــراط بالتمسك بالشكليات ، وما تبعده او تقتله منذ عشر سنوات ، انما هو اوروبا. فالرسامون والكتاب والسينمائيون والفلاسفة والموسيقيون المشبوهون ، مشبوهون قبل كل شيء بخضوعهم لنفوذ« اوروبا المتفسخة ». فهم اوروبيون ، اينشتانيون، بابليون ، بروكوفييف . ان الروح الاوروبية خطر بالنسبة لصناعة فرعونية . ان التنديد ببيكاسو في موسكو ليس حادثاً عرضياً قط : انه رغبة في جعله دفــاعاً عن الخطط الخمسية ... »

« وتبعا لما يموت فنانون في وقت مناسب او يتأخرون قليلاً ، يـــدفنون بمظاهر التبجيل في جدار الكرملين أو يوارون الثرى دون اي تعظيم عند الجدار السيبيري لمعسكر المنفيين ».

« ان السبب الحقيقي الذي ليست روسيا من اجله اوروبية لا علاقـــة له بالجغرافيا : انه الارادة الروسية » .

« لست هنا بصدد ايراد دراسة عن تاريخ الحضارة : لن اتكلم عن اوروبا الا بالنسبة للاتحاد السوفياتي وللولايات المتحدة . ان لهـــا في الوقت الحاضر طابعين مميزين :

« الاول : صلتها بين الفن والحضارة . ان هـــاتين الدائرتين منفصلتان في روسيا باعتقادية الفكر. وهما منفصلتان كذلك بشدة مماثلة في الولايات المتحدة، لأن رجل الحضارة في الولايات المتحدة ليس الفنان بل الرجل الجامعي . ان أي كاتب امريكي : هيمنغواي ، فولكنر ، ليس قط مثيلا لـ : جيد او لفاليري : انه معادل لـ : رووه او براك . انهم اخصائيون لامعون وسط حضارة محـدودة

ومعارف محددة : فهم ليسوا رجال التاريخ ولا رجال مذاهب » .

« الطابع الثاني ، وهو مهم على نحوٍ آخر : ارادة التسامي . انتبهوا ! ان اوروبا هي الجزء من العـــالم الذي تعاقب فيه شارتر وميكل آنج وشكسبير ورامبران .. وهؤلاء ، هل ننكرهم ؟ نعم ام لا ؟ لا ! اذن ، يجب ان ندرك عمّ نتكلم » .

«يغلب علينا الظن اننا تعساء امام حضارة عميمة اسمها الروائيون الامريكيون وحضارة اخرى ضخمة لست ادري ما اسمها– والافضل ان ادعوها :الموسيقيين الروسيين (وهي ليست تسمية رديئة) ».

« لكن الواقع ان نصف العالم ما زال ينظر الى اوروبا رغم ذلك وانهـــا وحدها التي تجيب على تساؤله العميق . من ذا الذي احتل مكان ميكل آنج ؟ ان البريق الذي يبحثون عنه فيها انما هو آخر شعاع من نور رامبران. اما الحركة العظيمة الصردة التي تظن انها ترافق نزعها فانهـــا ما تزال حركة ميكل آنج البطولية ... »

« ويقولون لنا : « ان هذه قيمٌ بورجوازية » . ولكن ، ما هي هذه الحكاية ، حكاية تعريف الفن تبعاً لظروفه ؟ »

« ليفهمني الناس جيداً . انني اعتبر عادلاً قول فيلسوف روسي – هو على أية حال في سيبيريا منذئذ – ان « فكرة افلاطون لا تنفصل عن الرقيق » . صحيح ان هناك معطية تاريخية للفكر ، شرط ظرفي للفكر . لكن المسألة لا تنتهي هنا ، بل تبدأ . ذلك لأنكم انتم آخر الأمر قد قرأتم افلاطون ! انكم لم تفعلوا ذلك كرقيق او كمالكين للرقيق ! »

« ما من احد في هذه القاعة – لا انا ولا الآخرون – يعلم اية عاطفة كانت تعتلج في صدر نحات مصري عندما كان ينحت تمثالاً من تماثيل المملكة التليدة . ولكن ليس اقل صحة من ذلك اننا ننظر الى ذلك التمثال باعجاب لم نمض للبحث

عنه في تمجيد القيم البورجوازية . والمسألة التي تطرح نفسها هي على وجه الدقة ان نعرف ما الذي يضمن السمو الجزئي للحضارات الميتة » .

« انني لا اتكلم هنا عن الخلود ، بل عن التحول . لقد عادت مصر للظهور لنا وكانت قد اختفت نيفاً وخمسة عشر قرناً. فهل التحول غير متوقع ؟حسناً ! نحن نجابه معطية اساسية للحضارة ، هي عدم توقع النهضات . لكنني افضل عالماً غير متوقع على عالم غشاش » .

« ان مأساة اوروبا الحالية هي موت الانسان . لقد فهم الناس منذ القنبلة الذرية بل وقبلها ، ان ذلك الذي اطلق عليه القرن التاسع عشر اسم « التقدم » يتطلب فدية فادحة . فهموا ان العالم قد عاد من جديد الى الثّـنَـوية وان الأمل الهائل غير الفاعل الذي وضعه الانسان في المستقبل لم يعد ذا قيمة » .

« ولكن ، ليس من اجل انّ تفاؤل القرن التاسع عشر لم يعد له وجود ، لم يعد من وجود كذلك للفكر الانساني ! منذ متى كانت الارادة مرتكزة على التفاؤل المباشر ؟ لو كان الامر كذلك لما حدثت قط مقاومة قبل العام ١٩٤٤ . هناك جملة قديمة وشهيرة تقول : « ليس من الضرورة ان نأمل لنشرع ... » — وانتم تعرفون البقية » .

« يجب ان يعاد تأسيس الانسان ، نعم : ولكن ، ليس على صور ايبينال . ان اوروبا لا تزال تحمي ارفع قيم العالم الفكرية . فلو أننا في المكان الذي كان اسمه فلورنسا والمكان الذي كان اسمه باريس ، بلغنا اليوم الذي « تنحني فيه الاسل المتمتمة الهاوية » ، ألا تظنون حقاً انه لا بد من وقت طويل جداً لتعود ما كانت عليه هذه المواقع الشهيرة الى ذاكرة الانسان وكأنها صور مقدسة ؟» .

« ليس هناك من فقد ايمانه باوروبا غيرنا: فالعالم ما يزال ينظر باجلال وجلٍ وقصيّ الى تلك الايدي القديمة التي تتلمس الظلام .. »

« واذا لم تعد اوروبا تتجسد في الفكر بكلمات الحرية بل بعبارات المصير ،

فهذه ليست المرة الاولى. لم تكن الامور على خير ما يرام ابان معركة موهاكز[1]. كذلك لم تكن الحال على ما يرام عندما كان ميكل آنج ينحت على قاعدة تمثال « الليل » : « اذا كانت يقظتك لترى الطغيان فلا تستيقظ ! »

« فليس الأمر اذن خضوع اوروبا . لينصرفوا عنا بهذه الاراجيف ! هناك من جهة فرضية : لقد اصبحت اوروبا عنصراً رئيسياً للحضارة الاطلسية . وهناك كذلك سؤال : ماذا يحل بأوروبا في البنية السوفياتية ؟ ان المدنية الاطلسية تدعو اوروبا وما تزال في اعماقها تحترمها (بوصفها حضارة) ، اما البنية السوفياتية فتحتقر ماضيها وتمقت حاضرها ولا ترتضي منها بغير مستقبل لا يتبقى فيه على وجه الدقة شيء مما كانت عليه » .

« ان قيم اوروبا مهددة من الداخل من قبل التقنيات المتولدة عن وسائل الاستعانة بالأهواء الجماعية من صحيفة وسينما وراديو واعلان – وبكلمة واحدة « وسائل الدعاية » وهذا ما يسمى باسلوب التفخيم : التقنيات السيكولوجية » .

« لقد نضجت على الأخص في البلدان التي كنا بصدد التحدث عنها . فهي في امريكا في خدمة مذهب اقتصادي بصورة رئيسية ، تهدف الى قسر الفرد على الشراء . اما في روسيا ، فانها في خدمة مذهب سياسي ، وهي تهدف الى قسر المواطن على الانخراط دون تحفظ في ايديولوجية الحاكمين ، لذلك فانها تجند الانسان بكليته » .

« يجب ان لا نخلط بين فعل هذه التقنيات في بلد المنشأ وبين انعكاس اثرها في اوروبا وبصورة خاصة في فرنسا . ان انعكاس السيكوتقنيات الامريكية

---

١ ـ مدينة هنغارية على الدانوب قرب الحدود اليوغوسلافية هزم فيها لويس الثاني الهنغاري من قبل سليمان الثاني عام ١٥٢٦ كما هزم فيها شارل دولورين الاتراك عام ١٦٨٧ .

المترجم

على حضارتنا ثانوي . اما السيكوتقنيات الروسية فتريد ان يكون انعكاسها حاسماً » .

« ليس علينا على الاخص ان نناقش هنا حضارة مقبلة ، تعتمد عليها السيكوتقنية الروسية دائماً . لنتكلم عما هو كائن : ان مجموع التقنية السوفياتية في فرنسا تنتهي اليوم عملياً بتنظيم منهجي للأكاذيب المختارة بسبب نجعتها » .

« ان الجنرال دي‌غول « ضد الجمهورية » (ألأنه أحياها ؟) و « ضد اليهود » (ألأنه ألغى القوانين العرقية ؟) و « ضد فرنسا » ؛ وانه لمفيد ان يستطيع المرء الكتابة مرة واحدة تقريباً كل اسبوع دون ان يثير الضحك ، انه ضد فرنسا ، ذلك الذي حافظ على شرفها فوق غفلة هذا البلد المريعة ، وكأنه قصد لا يقهر ... »

« المثير هو ، ان الستالينيين يعرفون مثلنا بالطبع ان كل هذه الاقوال خاطئة تماما . وهذه التقنية هي نفسها المتبعة في الدعاية : فهم يغلفون في الورقة نفسها صابون كادوم و « الغدوات المفردة » . والغاية دائما هي الحصول على الانعكاس المحكم ، أعني العمل على جعل مفردات معينة متعلقة قياسيا ببعض الاسماء ، قادرة على ان تربط بهذه الاسماء الأحاسيس التي تدعو اليها تلك المفردات عادة . وان نعير نقائصنا لخصمنا حتى ليتعذر على القارىء ان يفهم اي شيء ، طريقة مبتذلة بالمثل . المثال على ذلك : « الحزب الامريكي » .

« انني ألح على ما يلي : لست بصدد مناقشة الخطأ والصواب في مقالات « الاومانيتيه » ، بل تحديد التقنيات التي يرتكز اليها اعمق فعل سيكولوجي عرفه العالم منذ عدة قرون . فعلى الصعيد الفكري ، فضح الخصم اولاً ثم جعل المناقشة مستحيلة. لقد حاول جان بولهان طيلة عام ان يقنع الستالينيين بأنه قال ما قال فحسب ، ولكن عبثاً » .

« هاجم على الاخص على الصعيد الاخلاقي : ان ما يقتضي لهـذا النوع من الفكر ، ليس ان يكون الخصم خصماً ، بل ان يكون شريراً فاسقاً بحسب ما كانوا يسمونه في القرن الثامن عشر » .

« ان الواقع الوحيد لهذه الدعاية هو السخط . (وهذا على اية حال اكثر ما فيها من متعب) . وهذا الاسلوب الذي يرتكز على المبدأ الاساسي : الغـاية تبرر الوسائل – واذن ليست هنـاك اخلاقية بل غايات – ، هو اسلوب الدعاية الاكثر عنـاداً والاكثر اخلاقاً كل يوم من كل ما شهدناه في حياتنـا من قبل » .

« تهدف هذه التقنية الى الحصول على الصعيد الفكري اما على حلفاء واما (في روسيا) على ستالينيين » .

« اما عن الحلفاء : ان لدينا اولاً خديعة عريقة ، هي الخديعة المسيحيـة اللاهوتية . لقـد ظل بعض أعمق عناصر الستالينية في فرنسا مرتبطين ارتباطاً لا ينفصم بالدعوة المسيحية . لكننا نعرف اليوم مقدار ما تساوي هذه المهازل » .

« والخديعة الثانية هي الخديعة القومية . وهـذه ، تعود لتقطع كل السياسة الستالينية المتبعة منذ الكومنفورم . المقصود في البلدان الغربية ، الحؤول دون الانتعاش الاقتصادي الذي قد يؤدي الى جر هذه البلدان نحو الولايات المتحدة وانكلترا . ومن اجل ذلك ، يجب ابتكار : « الدفاع القومي للبلدان المهددة من قبل الامريكيين » .

« يريد الستالينيون ان يضيفوا الى تجنيدهم العمالي تجنيداً بورجوازياً واسعاً ، وبالتالي اقامة ايديولوجية قومية يصبح فيها الحزب الشيوعي ما يدعوه بالجنـاح المتحرك ، بشكل لا يصبح المرء فيها متتبعاً للمعطية الروسية ولا لمعطية طبقـة ضد طبقة ، بل لمعطية اختبرها الستالينيون خلال المقاومة ، وهي جمع كل

القوى القومية المخلصة تحت لواء شيوعية زائفة لصالح موسكو » .

« ثم خديعة الافق التاريخي . اكرر ان الوقت قد حان لاستبدال السؤال : « ما هو ؟ » بالرغبة في ان نفسر دائماً المعنى الكامن والتاريخي على الأرجح لما هو كائن . انهم يقيمون نظرية الواقعية الاشتراكية بالرسم – ومن الطبيعي انها قابلة للدفاع عنها كأي شيء آخر ، ولكن أية لوحات يرسمونها ؟ انهم لا يرسمون مطلقاً لوحات واقعية اشتراكية بل ايقونات لستالين على طريقة ديروليد [1] .

« ان ندين برنانوس ادانة قاطعة باسم بروليتاريا اسطورية عمل قد يمكن تبريره لو لم يكن من الضروري ايضاً ان نعجب بروايات م. غارودي القدوة . آه ! كم من الآمال خذلت ، كم من السباب والاموات ، لتنتهي كلها بمجرد تبديل مكتبة باخرى !

« وبعد ، هناك الخديعة الشهيرة عن طريق الاستمرار الثوري . كلنا نعلم ان المارشالات الذين تغطي الرتب والاوسمة صدورهم ، هم الورثة الشرعيون لرفاق لينين ذوي السترات الجلدية . هنا ايضاً لا بد ان نتفاهم في هذا الشأن : لقد وقع لنا : اندريه جيد وانا ، ان ُطلب الينا ان نحمل الى هتلر عرائض الاحتجاج على الحكم الصادر بحق ديميتروف ، البريء من حريق الريخستاغ . كان ذلك شرفاً عظيماً لنا (ولم يكن هناك عدد كبير يصلح لهذا العمل على اية حال) . واليوم ، عندما وصل ديميتروف الى الحكم ، أمر بشنق بيتكوف البريء . فمن الذي تغير ؟ جيد وأنا ام ديميتروف ؟

« كانت الماركسية اولاً تعيد تشكيل العالم وفقاً للحرية . ولقد لعبت حرية الفرد العاطفية دوراً هائلاً في روسية لينين . كان هذا قد طلب الى «شاغال»

---

١ - *Déroulède* هو بول ديروليد ، الشاعر والسياسي الفرنسي ١٨٤٦ - ١٩١٤ ، رئيس رابطة المواطنين ومؤلف « اغاني الجنود » . المترجم

Chagall ان يزين جدران مسرح موسكو اليهودي بالرسوم الزيتية . واليوم تحط الستالينية من شأن شاغال . فمن الذي تغير ؟ »

« كتاب من كتبي ، « الوضع البشري[1] » كان في حينه قد آثار اهتمام عدد كبير من الروسيين . وكان سيصبح موضوع شريط سينمائي لإيزنشتاين مع موسيقي غوستاكوفيتش . وكان سيقتبس في تمثيلية لـ : ميرهولد وموسيقى بروكوفييف ... أليست هذه القائمة من التنظيم كافية لمؤلّف واحد عن الموت والجحود ؟ شرحوا لي فيما بعد انني اجهل الجدلية « الديالكتيك » : كذلك المحكومون بالاشغال الشاقة ، ـ واكثر من ذلك الجثث » .

« هنـاك تصدعات عديدة : فيكتور سيرج ، جيد ، هيمينغواي ، دوس باسوس ، مورياك وكثيرون آخرون . وانه لخطأ الزعم بان هـذه التصدعات ذات علاقة بالمشكلة الاجتماعية . ذلك انه لم يكن قط متوقعاً ان تصبح «الغدوات المغردة » هذا التهليل الذي يتصاعد من القرم وحتى البحر الأبيض وان تصبح اناشيدها غناء المحكومين بالاشغال » .

« نحن هنا على هذه المنصة ولن نجحد فيها اسبانيا . فليصعد ستالين ذات يوم اليها ليدافع عن تروتسكي ! »

« لكن المسألة في روسيا مختلفة . فالبلد مغلق ، وهو لهـذا السبب منقطع عن جوهر الحضارة الحديثة . انها البلد الذي يتوجب على كل شيء فيه الآن ان يكون « ماضياً » . وانني اورد موجز التاريخ من اجل الشبيبة :

« انه مدرس روسي ، سيولكووسكي ، الذي أعدّ نظرية الدفع الانعكاسي . وكهربائي فني روسي آخر ، بوبوف ، الذي اخترع الراديو ، اول من اخترع (سيمليا روسكايا ، ص ٥٥) » .

« التعليم في البلدان الرأسمالية ، شيء خاص ويقتضي نفقات باهظة جداً . وهو محض رغبة وحلم لا يمكن تحقيقه للكثير الكثير من الفتيان والفتيات .

(١) صدر عن منشورات عويدات في سلسلة : من التراث الغربي — الناشر

(المصدر السابق ص ٢٧٧) . »

« لنمر ... »

« تبقى على الصعيد الايجابي ، فكرة تهدف الى تمجيد التضامن والعمل وارتقاب نخروج نبيل معين ، رغم ما لدى اصحاب الفكرة دائماً من ازدراء . ثم هناك سيكوتقنيات مخصصة لخلق صورة العالم والمشاعر الأكثر ملاءمة لفعل الحزب : الكتّاب مهندسو « النفوس » ، وأي مهندسين ! »

« لكنهم من اجل ذلك يطالبون بالحقيقة . . لا ننس ان اكبر صحيفة روسية اسمها البرافدا ، أي الحقيقة . مع ذلك فهناك من يعلمون . وهنا ينطرح سؤال على جانب من الأهمية : ابتداء من اية درجة يحق لهم الآن ان يكونوا كاذبين في روسيا ؟ ذلك ان ستالين يعرف مثل ما اعرف ان التعليم موجود في فرنسا . فهناك اذن المساهمون في اللعبة وغير المساهمين فيها .واعتقد ان هذا الامر يستحق التأمل فيه بمقدار ما يستحقه الازدراء المتضمن في التقنيات السيكولوجية . فلو ان القصد كان الحض على شراء الصابون او الحصول على بطاقة الانتخاب ، لقلنا انه ليس هناك تقنية سيكولوجية لا تقوم على قاعدة الاستخفاف بالمشتري او المنتخب ، والا لكانت عديمة الجدوى . لكن الانسان نفسه موضع بحث هنا ، والاسلوب كلّ وليس جزء . يمكن للتقنية ان تكون بدون تشميل مطلق ولكنها تتبع هذا الاطلاق بمثل القدرية المحتومة التي تتبع فيها الغيبيو *Guépéou* ، لأنها اذا جردت عن الشرطة اصبحت وحشاً يمكن القضاء عليه . لقد كان من الصعب قبل بضعة اعوام انكار ان تروتسكي هو الذي أوجد الجيش الاحمر : فلكي تكون صحيفة الاومانيتيه ذات فعالية كلية وجب ان لا يستطيع القارىء مطالعة صحيفة معارضة » .

« وليست هناك هوامش . لذلك فان أي انشقاق ، ولو كان جزئياً ، بين أي فنان وبين النظام ، يقوده الى لون من الجحود » .

« وهنـا ينطرح سؤالنا الاساسي : كيف نمنع التقنيات السيكولوجية من تدمير خاصية الفكر ؟ لم يعد هناك فن مطلق في العالم ، على فرض انه كان موجوداً من قبل . لم يعـد للمسيحية كاتدرائيات بل حفلات سانت كلوتيلد . وروسيا تسترجع بصور ستالين الفن الأكثر بورجوازية في مصطلحه . قلت : «على فرض انه كان موجوداً من قبل»،وذلك ان الجماهير لم تكن متحسسة بالفن كفن . (والارستقراطية والبورجوازية تشكلان الجماهير في هذا المفهوم...). انني اطلق اسم فنـــان على اولئك المتحسسين بالمعطيـــة الخاصة لفن ٍ ما . اما الآخرون ، فان احساسهم مقتصر على الناحية العاطفية . فليس هناك « الانسان الذي يجهـــل الموسيقى » بل هناك من يحبون موزار واولئك الذين يحبون « المارشات » العسكرية . وليس هناك « الانسان الذي يجهل فن الرسم » بـل هناك الذين يحبون الرسم والذين يحبون « حلم ديتاي» [1] او القطط في السلال . وليس هناك « الانسان الذي يجهل الشعر » بل الذين يهتمون بشكسبير واولئك الذين تعجبهم الأغاني المؤثرة . والفارق بين اولئك وهؤلاء ، هو ان الفن بالنسبة للأخيرين وسيلة للاعراب العاطفي » .

« وقد يحدث في حقبة ما ، ان يختلط هذا الاعراب العـاطفي بجانب كبير من الفن.وهذا ما وقع للفن القوطي. ان التحام اعمقالعواطف – الحب وعيوب الظرف الانساني – مع قوة مطاوعة دقيقة احدثت فناً عبقرياً أحدث أثراً في كل انسان . (وهناك شيء مشابه لدى اكبر الرومانطيقيين الفرديين امثـــال بيتهوفن وفاغنر على نحو ما ، وميكل آنج بحق ورامبران بـــل وفكتور هوغو » .

« اما ان يكون هذا او ذاك من الاعمال العاطفية فنيـــاً ، فواقع لا لبس

---

١ ـ هو ادوار ديتـــاي *Detaille* ، رسام عسكري فرنسي ولد في باريس (١٨٤٨ - ١٩١٢) واضع صور متكاملة مصنوعة بمهارة ودقة متناهيتين . المترجم

فيه : انه ليس نظرية ولا مبدأ . فالمسألة الملحة التي تطرح امامنا هي اذن ، في تعابير سياسية ، ان نستبدل خلقاً حقيقيـــاً لحضارة ديموقراطية بنداء كاذب لحضارة مستبدة ، ايا كانت . وليس المقصود ان نقسر الجمـاهير على فن لا شأن لهـــا به بل ان نفتح مضمار الحضارة امام كل اولئك الذين يبتغون بلوغه . وبعبـارة اخرى ، حق الحضارة هو ببساطة ودون قيد ، الرغبة في الوصول اليها » .

« واذن ، لسنا نزعم ان نحدد هنا نموذجاً للحضارة تحديداً غـــير معقول ، بل ان نضفي عليها القدرة على الاحتفاظ بأعلى ما بلغت اليه عندنا في تحولهـــا المقبل » .

« اننا نعتبر ان القيمة الاساسية للفنان الاوروبي في اعظم ازمنتنا ، منـــذ نحاتي شارتر وحتى اكبر الفرديين ، من رامبران الى فكتور هـوغو ، تكمن في الرغبة في ابقاء الفن والحضارة على انها موضوع فتح . وعلى سبيل التحديد أقول ان العبقرية بون مكتسب وان العبقرية تبدأ — سواء كانت عبقرية رينـــوار او عبقرية نحات تيبي – بالآتي : ان انساناً كان ينظر منذ طفولته الى بعض الاعمال الرائعة التي كانت كافية لصرفه عن العالم ، شعر ذات يوم بانه انفصم عن هـذه الاشكال سواء لأنها لم تكن على اشراق كافٍ ام لأنها كانت مفرطـة الاشراق ، فكانت ارادته في الالتزام بحقيقة غامضة يتعذر اشراك الغير فيها(الا عن طريق ما تصفه يداه) ، وكان العالم والاعمال نفسها التي ولد منها ، هما هذه الرغبة التي حددت عبقريته . وبعبارات أخرى ، ليست هناك عبقرية ناسخة ، ليست هناك عبقرية رقية . ليدعونا وشأننا مع صناع القرون الوسطى ! ان مقلد الاشكال ، حتى في مدنية يكون الفنانون فيها جميعهم من الرقيق ، سيكون مكابراً بالنسبة للرقيق الذي وجد اشكالا كانت غير معروفة . ان في الاكتشاف ، في الفن كما في المجالات الاخرى ، لوناً من امضاء العبقرية . وهذا الامضاء لم يختلف عبر الالوف الخمسة من التاريخ التي نعرفها » .

« واذا كانت الانسانية تحمل في ذاتها معطية ازلية ، فانها ذلــك التردد المأساتي للانسان ، الذي أطلق عليه فيما بعد وطيلة قرون ، اسم فنــان ، ازاء العمل الذي يشعر به بعمق اكثر من أي كان والذي يعجب به اعجاباً لا يضاهى ، والذي يريد وحده في الدنيا بنفس الوقت ان يحطمه سراً في اعماق نفسه ».

« وعليه ، اذا كانت العبقرية اكتشافاً ، فلنفهم جيداً ان على هذا الاكتشاف يشاد بعث الماضي ونشوره . لقد تكلمت في مطلع هذا الخطاب عمــا يمكــن ان يكون نهضة وعما يمكن ان يكون تركة حضارة ما . ان حضارة ما تبعث عندما يستخلص رجال عباقرة باحثون عن حقيقتهم الذاتية من اعــماق القرون كل مــا كان يشبه من قبل تلك الحقيقة حتى ولو كانوا يجهلونها » .

« لقد صنعت النهضة العصر القديم على الاقــل بقدر مــا صنع العصر القديم النهضة . ولم تصنع التعاويذ الزنجية الوحوش المفترسة بأقل مما صنعت الوحوش المفترسة التعاويذ الزنجية . وبعد ، فان الوارث الحقيقي للفن الذي انبثق مــن جديد في غضون خمسين سنة ليس امريــكا التي تصفّ روائعــه بجانب بعضهــا بعضا ولا روسيــا التي تشبع دعوتهــا الواسعة القديمــة بثمن بخس من ايقوناتهــا الجديدة . ان الوارث هو هذه « المدرسة الباريسية المتمسكة بالشكيات » التي تبدو نشورات كل هذه القرون وكأنها اسرة كبرى . ان خصمنا بيــكاسو هــو الذي يستطيع الرد على البرافــدا : « قد اكون كما تقولــين ، مسفاً ومتفسخاً . لكنك لو عرفت كيف تنظرين الى لوحاتي بــدلا مــن ان تعجبي بكل هــذه الايقونات ذات الشوارب ، اذن لتبينت ان تاريخك المنتحل ليس اكثر من شيء قميء امام خضم الاجيال وانه سيقدر لهذه الرسوم الزائلة ان تبعث مع التماثيــل السومرية ، اللغة المنسية منذ اربعة آلاف من السنين ... »

« والحال ، ان هذا الفتح لا يكون ناجعا الا في البحث الحر . وكل ما يعترض ارادة الاكتشاف التي لا تجبر ، ان لم يكنِ من ناحية الموت لانــه ليس في الفن

موت – وتالله ، هناك فن مصري مؤكد – الا انه شلل لاكثر خصائص الفنان خصبا . لذلك نطالب بضرورة الحفاظ على حرية هذا البحث ضد كل من يزمع تحديد اتجاهه مسبقا ، وقبل كل شيء ، ضد اساليب الفعل السيكوتقينة القائمة على دعوة اللاوعي الجماعي لاغراض سياسية ».

«اننا نطالب أولا بالقيم ، لا باللاوعي بل بالشعور ، لا بالاستسلام بل بالارادة ، لا بحشو الرؤوس بل بالحقيقة . (اعرف ان واحداً من المشاهير قال من قبل : « ما هي الحقيقة ؟ ...) ان الحقيقة في مضمار ما نحن بصدد الكلام عنه هي ما يمكن التحقق منه). واخيراً نطالب بحرية الاكتشاف . كل هذا ليس « نحو أي شيء ؟ » لاننا لا ندري من الامر شيئا ، بل « انطلاقا من اين ؟ » ، كما هو الحال في العلوم المعاصرة . وسواء شئنا ام أبينا ، فان » الاوروبي سيستنير من المشعل الذي يحمله حتى ولو احترقت يده » .

« وهذه القيم ، نريد اذن ان نقيمها على اساس الحاضر . ان كل فكرة رجعية تدور حول محور الماضي ، وهو ما نعرفه منذ زمن بعيد . وكل فكرة ستالينية تدور حول هيغلية (نسبة الى هيغل) موجهة بمستقبل لا يمكن التثبت منه . فما نحن بحاجة اليه بادىء الامر اذن هو ايجاد الحاضر ».

« ان ما ندافع عنه هنا ، سيصبح قبل نهاية هذا القرن موضع دفاع الامم الغربية الكبرى . نريد ان نعيد لفرنسا الدور الذي قامت به من قبل مرات عديدة في العصور الرومانية والقوطية كما في القرن التاسع عشر ، والذي فرض طابعها على اوروبا عندما كان ذلك الطابع طابع الجرأة والحرية بآن واحد ».

« انكم جميعاً تقريباً تابعون لمضمار الفكر ، متحررون . ان ضمان الحرية السياسية بالنسبة الينا وحرية الفكر ، ليس في مذهب الليبرالية السياسية المحكوم عليها بالموت طالما كان الستالينيون في مواجهتها . ان ضمان الحرية هو قوة الدولة في خدمة كل المواطنين .

« متى كانت فرنسا عظيمة ؟ عندما لم تكن معتصمة بفرنسا . انها عمومية شاملة . ان فرنسا العظمى بالنسبة للعالم ، فرنسة الكاتدرائيات اكثر منها فرنسة لويس الرابع عشر . هناك بلدان كبريطانيا العظمى مثلاً – ولعل في ذلك فخراً لها – تزداد عظمة كلما ازدادت تفرداً . لكن فرنسا لم تكن قط اعظم منها عندما كانت تتكلم باسم كل البشر ، لذلك كان صمتها يُسمع بشكل مؤلم بمقدار ذلك ... »

« اما ماذا سيكون الفكر ؟ حقاً ، سيكون وفق ما به تفعلون » .

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع
منشورات عويدات - ص. ب ٦٢٨
بيروت - لبنان تلفون ٢٧٢٧١٤
في اواخر آب (اوت) ١٩٦٧

منشورات عويدات ١٢٠/٨/١٩٦٧

ANDRÉ MALRAUX

LES CONQUÉRANTS

Texte traduit en arabe

par

FAYEZ KUM NACCHE

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban

الثمن : ٥٠٠ غ. ل.